

الأعمال الشعرية

عبد العظيم فنجان



الأعمال الشعرية

عبد العظيم فنجان



الأعمال الشعرية

عبد العظيم فنجان

الأعمال الشعرية

عبد العظيم فنجان

الطبعة الأولى- سنة 2020

ISBN: 978-9922-608-98-3



دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد شارع المتنبي مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492567

Email: bal_alame@yahoo.com

SUMER

Printing, Publishing & Distribution

LUXEMBOURG - 2-c Crauthemerstroos - L-3334 HELLANGE

+352 671531017

«على الحالم أن يرضى بأنه يحلم، واثقا من أن المخيلة تصنع الجوهر؛ هذه هي وظيفة الشاعر، وهي الأسمى، لأنها تُبلغه المجهول؛ تُبلغه حدود الخلق..»..

هنري ميللر

إهــــــــــداء

إلى كافـة القراء والمدونـين المجهولين، الذين احتفـوا بشعـري، كل بطريقتـه، وهـذا أرفع وسام وتقدير يمكن أن يناله شاعر..

أولا:

حفلة القلب، الحب والمرأة

«مؤلمٌ أن أحبك في مكان هش، كالعالم..»

صوفيا دي ميللو

إلى حسن جوان، طبعا

امرأة

امرأةٌ تمشي في مرآة،

فجأة، يظهرُ شخصٌ ما، ويكسرُها

لكن المرأةَ، في فضاء المرآة، تظل ماشيةً...

استنارة

وجـودُكِ يُنيرني من الداخـل، دون حاجتي لأن أكون حبيباً أو صديقاً، أو حتى غريباً.

أنتِ أندرُ من أن تكوني شيئاً ملموساً.

فراشات

لا أتذكـر مـرّةً، مرّةً واحدةً، نظـرتُ إليكِ بغير نظـرة المُحب، فيـما أنــتِ غارقــةٌ في اللامبالاة غير عابئة بالشـغف الذي يُشـعل وتـر الروح بالاضطراب، وكنت أفعل ذلك، أفعل ما يليق بي من انبهارٍ، لئلا يتحطمَ سـحرُ المَلاك، الذي نسـجتُ بدلته من خيوط فكـرتي عنكِ، رغم أن حبي لم يكـترث بعاداتكِ، بجمال وجهكِ، بتقلبات المناخ العاطفي، أو بألوان ثيابكِ.

لقد أحببتُ فيك شيئاً غامضاً، لا أعرف ما هو، ولم يزعجني أبدا أنـكِ لا تعرفين شـيئاً عن عبادتي للهـواء، الذي يفصـلُ بيننا، ما دامَ يحملُ فراشاتٍ، لم يرها أحدٌ قط، تنطلق نحوي، مخضّبةً بأنفاسكِ..

الأعزل

كان يعـرفُ أنكِ لسـتِ لـه، لكنه لبـث مُصمّماً عـلى أنْ يُحبكِ بصمت، لأنّ استضافةَ وجهكِ، واستحواذَ خيالِهِ المضطرب على ملامحكِ، ولو لبُرهةٍ قصيرة جدّا من الزمن، كان كافياً، لأنْ يَقطعَ طريقَ الحياة المُفخّخ بالرّعب، مُسلّحا بسلطةِ الجمال.

سقف الوحِدة

عثرتُ، في أحد جيوب سترتي الشتائية، على فراشة وتذكرتكِ: أنتِ المصابةُ بالجمال، الجمال المدوّي، الواسعةُ العينين كالرحمة، والأنيقةُ كطعنة الحب الخاسر.

حنانكِ مرضٌ نادر، يُصيبُ القلبَ بالشفاء، فيجعله هائما، يبحثُ عن علّة تذبحه في الكتبِ، في الأحلام وفي الخطرِ..

أدمنتُ وجهكِ، لأنني الغريبُ في العالم، ولأنه يُشفيني من الهلع، ومن العيش تحت سقف الوحِدة..

كانت آيتكِ أنكِ امرأة

كانت آيتكِ أنكِ امرأةٌ تنقلُ الضوءَ، بنظراتها، من شمعة إلى شمعة.

كان الغريبُ، عندما لا يجد مَن ينادي عليه، يتخذ من صوتكِ مأوىً، وكان المشتاقُ يمشي على نور يديكِ ليقابل قلبَه.

ومن آياتكِ أيضا.. أنكِ امرأة تتشمّسُ في داخلها الموسيقى، وتنفردُ بها القصائدُ، عندما يتراكم الغبارُ على الكتب..

ضعفكِ الهائل

عـلى كتفيـكِ الهزيلتين تحملين ثقلَ العالم، وتبتسـمين ابتسـامة تُخرِج القسوةَ عن طورها، فتنحني لفتوّةِ القلب، الذي يحفّزُ أرضَ روحكِ على الاخضرار.

تقوديـن النبـعَ إلى الغزالـة، الرحيـقَ إلى الـوردة، ثـم تمشـين، متبخترةً، بضعفكِ الهائل..

جاء في القلب أنكِ الحنان

جاء في الفرح أنكِ العيدُ، وجاء في العيد أنك صبيةٌ، وجاء في الصبية أنكِ عاشقةٌ، وجاء في العاشقة أنكِ القلبُ، وجاء في القلب أنكِ الحنانُ، وجاء في الحنان أنكِ الربيعُ، وجاء في الربيع أنكِ الوردةُ، و جاء في الوردة أنكِ الفراشةُ، وجاء في الفراشة أنكِ الرحيقُ..

ما جاء في الرحيق لن يصدقه أحدٌ، لأنه وجهُكِ، ولأن ما جاء في وجهكِ هو الصباحَ: ذلك الصباحُ الذي يخلع فيه الزمنُ جلبابَ برودته ويبتسمُ، لأنكِ صبيةٌ عاشقةٌ، صبيةٌ عاشقةٌ، وحدها، تعرفُ أين المفتاحُ، المفتاحُ المسحورُ، الذي يفتحُ جميعَ الأبوابَ ليدخل، بكامل قيافته، العيدُ..

عليكِ السلام

عليكِ السـلامُ كلما رنَّ الجـمالُ في الأقاصي، كلما انفجر الضوءُ في باطن العاشـقة، كلما فرَّتْ الروحُ مـن العائلة، كلما نصعَ القمرُ فوق تلال الجسد، كلما سقط المشتاقُ مضرَّجاً باللهفة، كلما توّلهتْ امرأةٌ، كلما شعّ الإنسانُ في قلب عاشق، كلما كتبَ الملاكُ ذنباً، كلما صدح الغناءُ من خلفِ نافذةٍ، كلما مشـى الشـاعرُ فوق المياه، كلما نبتـتْ كلمـةٌ، كلما خرجتْ من الكلمة سـبعُ كلـمات، كلما أنبتتْ الكلماتُ حدائقَ مسحورةً بقصائد وجهكِ..

عليكِ السلام كلما فاضتْ، من ثقوب الناي، حياتي.

العطر الهارب

الاشـتياق، هـذا العطـر الهـارب في الهـواء، الذي سرعـان ما يضرب جوهر القلب بقسوة، ثم يختفي، دون أن يترك أثرا، ليعود ويتصاعد مرة أخرى، كشكل مركّز من المواساة، التي ترفع درجة حرارة الحنين في روح المشتاق!

الحنين، الاشتياق..

هل هذا هو اسمه؟

هـذا الـشيء الغامـض، المـدوّي في داخـلي، الـذي يطفـرُ مـع دموعي، ويتركُ مكانه دوياً أعظم منه..!

أجملهن هي أنتِ

ليس وجهُك الجامحُ: سيّدُ الخيال، ولا شعرُكِ الطويلُ الذي يُثري قامتكِ بالبهاء.

ليس فمُكِ الماكرُ، مبتكرُ القبل، ونديمُ الثمالة، ولا أصابعكِ التي تحرّك الموسيقى في وتر الغبطة.

ليس ساعداك الممتدتان من قعر الحنان ليهشّا قلق العالم، ولا الابتسامةُ التي حين ترنُّ، يرتعشُ خلخالُ الزمن.

لا بريقُ قلبك، ولا هديلُ الحمام في صوتك.

أنتِ امرأةٌ، امرأةٌ جدا، امرأةٌ حقا، كشعبٍ من العطر ينظفُ رئة الهواء .

وأنت، بدون هذا وبدون ذاك، أنتِ:

أجملُهنَّ هي أنتِ..

جمالُكِ

لا أجدُ، في الشِعر، إلا الحدودَ الواهيةَ، تلك الحدودُ المتداخلةُ كخطوط راحة اليد، بين أنتِ و جَمالِكِ، وها إني أعطّر شِعري باسمكِ، الذي لا يُنطقُ، لأنعشه بالحنين إلى البراءةِ، وإلى الطفولة.

هناك عيدٌ كثيرٌ في شموسِ ابتسامتكِ.

هناك شِجارُ عصافيرٍ في بحّة صوتكِ، وأنت تغنين، يحوّلُ الصباحَ إلى حقل سنابل.

كيف يمكن فصلُ جَمالكِ عن وهم جَمالكِ؟!

المدينة الضائعة

أميّزكِ بحواس أخرى، كما تميّزُ النملةُ، رغم العواصف، ثقبَ بيتها.
أعثرُ عليكِ، مهما ضعتِ، كما يعثرُ المسافرُ على مدينته الضائعة.
أخلقكِ، كما يخلقُ الطفل ألعابه، وأحبكِ أيضا كما يحبها.

كـما تعـرفُ القطـرةُ مصيرَهـا، وهـي تنحدرُ مـن الينبـوع إلى الشلال، أعرفكِ..

اليتيم

أتمتعُ بشعور الناجي الوحيد من المجزرة، رغم أن لا أحدَ قد خرج منها حياً. في تلك البلدة النائية، في تلك الليلة، عندما حُوصِرنا من قِبَلِ اللهِ وجنودِه، أو من قِبَلِ الشيطانِ ورعاياه.

في تلك اللحظةِ الخاصة، التي يتوقفُ فيها كلُّ شيء عن العمل، فكّرتُ أن أقول لكِ: "أحبُّكِ" ولم أنطقها، لأن الرصاصَ اخترقني من جميع الجهات، لكنكِ تجليتِ بكامل عزلتكِ: اخترقتِ الحصارَ، وجلستِ تمسّدين شعري، كاليتيمِ، في الظلام.

الحبُّ سرٌّ لم تُفك شفرتُه بعد!

جوهر جمالكِ

استمتعتُ بمرافقتكِ. كنتِ تشرحين أشياء كثيرة، عن الحب بمراتبه وأطواره، وعن الحياة بأصفادها البشعة.

كان وجهكِ، بتعابيره المتعددة، يضفي على الإشارات مسحة من الخلود، وعلى رفقتنا لمسة من التناغم، لم تحصل لي مع أحد من قبل.

عندما وصلنا كنتِ قد انتهيتِ، ولم أشعر بذلك، إذ كنتِ صامتة طوال الطريق، ومَن كان ينطق، بدلا عنك، هو وجهُكِ، يداكِ، وضفائرُكِ التي ترقص، كلما حرّكتِ رأسكِ.

كنتِ خرساء، وكان الخرس، بحد ذاته، هو الإطار الذي يحتوي امرأة بجرعة مركزة من الجمال، بل أن الخرس هو جوهر جمالكِ، وهو أيضا موقفكِ الحاد، الجارح والرافض، ضد هذا العالم، الذي لا يتقن فن التناغم بالإصغاء إلى الأسى النبيل، والصامت.

الناي المكسور

كيف تمكّنَ صوتُكِ من مزج الحنان بالقسوة، في بحّة واحدة، وأين تدرّبتِ على موهبة الغوص عميقاً، في الصرخة، حتى قعرِ الألم؟!

يا شاهدةً على انهياري. يا قويةً كنايٍ، كنايٍ مكسورٍ، كأغنيةٍ.

كيـف لا أنضو عني جلباب سـحنتي الآدميـةَ، وأعودُ ملاكاً، وأنتِ معي؟!

وكيف لا ألفُّ عنقي حولَ منديلكِ، وهو جاهزُ العنق لكل مشنقة؟!

العاصفة

عندما نتخاصمُ، عندما تزعلين دون سـبب، وعندما أطيرُ من الحزن حتى تخوم اليأس:

العاصفـةُ تخلـع ثيابهـا، ثـم تجلسُ عاريـة تحت مظلـة الهاتف، والشجرة بأوراقها وأغصانها، تعصفُ، شاردة، في الشوارع..

وتر

ليس ثمة ما هو أكثرُ حياديةً من المطر: وجهكِ برق!

أيتها الناصعةُ كالفجر، أيتها الضائعةُ كعناوين القتلى في الحروب، أيتها الطالعة كالشرارة، من كل حريق.

هناك وترٌ في العود اشتعلَ، في خياله، بهاءُ وجهكِ، واجتاحه فيضٌ من الشوق لأن يعزفَه في لحن..

الفضائل الغائبة

استخرجُ، من باطنكِ، إرثَ أسلافكِ المليء بالكنوز، بكلمة بسيطة: أحبكِ، ولا أنحني إلا لقامتكِ، فأنتِ الكنز الذي ترتفع بملامسته الروح، لتصبح تنهدات، وأنتِ الشمعة، بيت النور ووتر الغبطة، الذي يكشط الطلاء عن الفضائل الغائبة، التي تراكم عليها الغبار.

بكلمة منكِ: أحبكَ، تخترق عظامي، يفرّ الموتُ من سفر الوجود، لأكون خالدا كالهواء، أيتها الخالدة.

آه، ليس الحب بعثراته، التي تطيح بأنبل المشاعر، عندما يذبل.

لا.

إن ما أضفى على خصامنا، تصالحنا وتمازجنا، هذا التنوّع والبهجة، هذا الجنون المترع بالحكمة، وهذا الشعور بالضعف الذي يعتري القوة، لم يكن إلا ذلك الوهج النقي، وتلك الألفة الروحية العميقة، التي كانت تجبرُ العالمَ على أن ينصتَ، صاغرا، للتشوّش المتناغم بين مزاجين مضطربين، بقيا يبتكران أعجوبة القُبل، تحت سماء أكثر الحروب قذارة..

تعالي نزعل!

تعـالي نزعلْ لأن البحّارةَ عادوا باللؤلؤة، وفي اليوم التالي ألقوا بها إلى البحر، من أجل أن يبحروا، ثانية، بحثا عنها..

تعالي نزعلْ، لأنّ الحبَّ ليس اللؤلؤةَ، وإنما الرحلةُ نحوها!

صنّارة الكتابة

وسطَ هذا الخراب العاصف، الذي يجتاح بلداً بأكمله، أنتِ الجوهرةُ، التي يفورُ لمعانُ جمالِها بين سطور كل جملة، ليجعل الأملَ عالقاً في صِنارة الكتابة، مثلَ سمكة!

دموعُكِ ملحُ الأرض، وابتسامتُكِ أعيادٌ تهطلُ، على هامة الغريب، بغزارة.

غيابُكِ حنونٌ، كالمطر الناعم، من خلفِ زجاج نوافذ الشتاء، وحضورُكِ حميمٌ، كعصفور يتفقّد الزقزقاتِ المنسيةَ، بين أعواد سريره..

تمزق

لا أستطيع أن أحبكِ لأن قدرتي على العيش، تحت سقف جسدكِ، تعتريها الزوابعُ، يسقطُ البرقُ، و تطحنني الرغبةُ في أن أغوصَ، حتى آخرِ قشة تقصم ظهرَ الزمن، لكنني أيضاً لا أستطيع إلا أنْ أحبكِ، لأن حبي لا يُتمّ مراسمَ تمزّقه إلا بذلك ..

أبلورُ وهمكِ

أحبكِ، أنا الذي قلبُهُ مثلُ ميتم، وأخلصُ لكِ، أنا الخائنُ لكلّ القلوب التي لاذتْ بحناني. مأزقٌ أنتِ، وطريقٌ يراني غريباً، رغم أنني أتأبط أرصفتَه، كما يتأبط النهرُ زوارقَه وأسماكَه:

معجزةٌ أنتِ، رغم أنّ حبلكِ يلتفُّ حول عنقي، مثلَ مشنقة.

ليس أكثرَ من هذا حبٌّ، ليس أكثرَ من هذا صمتٌ، ذلك أني أملكُ ما لا يُمكنُ للغاتِ أنْ تقولَه، ولا أنطق، لأنني حين جرّبتُ وآويتُكِ إلى لغةٍ تُفضي إلى الحرّية، وجدتكِ في الحرية، قبلَ أنْ أبتكرَ لغتي.

جَمالُكِ يفترسُ كلَّ لغة، يمرّغها باليأسِ، ينسفُها ويخطفُ له، ممّا لا يقال، ألفاظاً تحترسُ كلُّ اللغات من إيوائها، لأنّ قواميسَها صُنعتْ للعبيد.

وهمٌ خارق أنتِ!

هكذا جاء في أخباركِ، وها إني أبلور وهمَكِ، وأُبدعكِ كبلّورٍ.

بدون رأس

أفكـــرُ في الظـلِّ، ظلـكِ الذي بقـيَ معـي، بعد أن غـطّ العالمُ بالليل، و افترقنا إلى الأبد.

أفكرُ في اسمكِ الغريب، في الكتب التي اشتريتُها معكِ، والتي كلما فتحتُ واحدا طارت منه فراشةٌ.

أفكرُ في العشبِ تحت إبطيكِ، في طعم الملحِ، في رائحةِ الغِزْيَن، وفي تلـك المرّة المذعورة، اللحظةِ الداعرة، المُفاجئة، التي لم أفعلْها مـع امرأةٍ من قبلُ أو من بعدُ، عندما أسـندتُكِ إلى الحائط: نظرتُ إلى وجهـكِ الصغـير، وجهـكِ الجميـلِ القبيـحِ، الرائـع الذابـلِ والشـهواني: دفنـتُ رأسي في صـدركِ، الـذي خفقـتْ أجراسُـهُ بعنف، بحثا عن أمي المفقودة، عن وطني، عن بيتٍ وعن صديقٍ، ثم مسحتُ دموعي، ومشيتُ:

تركـتُ الرايـاتِ تَسـقطُ مكسـورةً عـلى أرض المعركـة، التي وزّعت قتلاها تحت قميصكِ.

تركْتُـكِ مُرتبكـةً، جَزعـةً و مُشـتعلة، وواصلـتُ حياتي بدون رأس!

ذكرى

ما أن يخطرُ عطـرُ وردة الجوري، في الهواء، حتى تهبّ الذكرى متوّجـة بوجهكِ، الذي اضطربتْ ألوانـه، عندما ضبطني والدكِ أقطفُ وردة في الحديقة.

لم تربكني صفعتُه، ولم أرمِ الوردة، لكن رؤيتكِ، وأنتِ تغطين رأسـكِ و تبكين، تركتني أتحَسـسُ خدي، لحد الآن، كلما سالتْ، على خد العاشق المخذول، دمعةٌ..

الفزّاعة

كنتِ تسألينني أنْ أكفّ عن رمْي الأحجار صوبَ النافذة. تقولين: " صرتَ كبيرا، يا عبد العظيم " فأصدّقكِ، لكنني عندما أمدُّ يدي إلى القمر، وأعجزُ عن إمساك نوركِ الساطع بين أحجاره، أعودُ غاضبا، فأتسلقُ سياجَ الحديقة وأرميكِ، وسطَ عائلتكِ، بكلّ ما تحملُهُ يدايَ، من أجلِ أنْ ترفعي رأسَكِ فترَيْني، مثلَ فزّاعةٍ وقعتْ في غرام حقولكِ.

- ابتعدْ، أيها الأحمق!

تصرخُ أمُّكِ، وهي تهشّني كالغُراب، من دون فائدة!

عندما أتذكرُ الآن كيف كان يَشتعلُ وجهُكِ، ويمتزجُ على بَشَرتكِ الفرحُ بالحزن، فتشتعلينَ وتنطفئين في نفس اللحظة، يتأكدُ لي أنني كنتُ حكيما حتى في مراهقتي.

حماقاتي كانت تُناغمُ الكون في عبثيتِهِ، وهي الطريقةُ الوحيدةُ لحلّ اللغز، لغز جمالكِ.

قصيدة الإثم

كنـتُ أنظـرُ، خلسـةً، إلى طيف جسـدكِ، من خلـف النافذة، وكانـت تلـك عـادتي التـي لا يمكن تفاديهـا، رغم أننـي ما كنت أعرف ماذا وراء ذلك، إذ لم أتعرّفْ على جسـدي بعد، لكنَّ هناك عاصفـةً مـن العطـر توقظني، كلـما أفاق العسـلُ مـن غفوته، في سريـركِ، كلما ارتفعـتْ درجةُ حرارة الهيام، وكلما اختلط الأسـى بالغناء، الذي يُعلن انتشاءَ الصباح بصوتك.

كنتُ أنظـرُ إليكِ، في ذلك الصباح العتيـق، وأنتِ تخلعين عن الليـل بدلتـه المرصعةَ بالتنهـدات وبالنعاس، عندما كـبُرتُ دفعةً واحدة:

تبرعم الإثمُ، فجأة، تحت الثياب،

واخضّرتْ الشجرةُ..

النافذة تهطل بغزارة

كنتُ أسرقُ الطباشير من الصف، وأرسمُ لعينيكِ القمحيتين مدرسة تلتهمها النارُ.

كان لكِ من العمر سَنةٌ من الفراشات، عندما انفجرتْ رغبتي، وتبخّرتُ في طريقكِ عطرا.

كان شعرُكِ قروناً من السنابل، وكنتُ طائراً في لحظة من القمح، أعزفكِ زقزقة لرحلتي الطويلة.

كان قلبي في أشد ضعفه، عندما وُلدتِ مثلَ صباح، وتغلغلتْ شمسُكِ في خواطري، التي تراكم عليها سُخامُ الحرائق.

كنتُ أغني تحت مطركِ، والنافذةُ تهطل بغزارة..

المطاردة السحرية

كنتُ أنظرُ، من وراء ظهركِ، إلى الورقة، ورقتكِ، فأنجحُ في الامتحان، وتفشلين، كما إنني كنتُ الولدَ الطائشَ الوقح الذي، في ظهائر تموز، يضغط زرَّ الجرس ويهرب، لا لشيء، إلا من أجل أن تبدأ تلك المطاردةُ السحريةُ في الأزقة، حيث أبوكِ يلعن، شاتماً أسلافي، وأسلاف الذين خرجتُ من صلبهم:

تضحكين، أفرحُ لأنكِ تضحكين، وأنا أُمسكُ أطراف ثوبي بأسناني وأركضُ، في سباق سيُبقيني طفلاً إلى آخر دقيقة، أعيشها في الحياة.

قصيدة النُبلة

أنــا الذي، خلســة، سرقتُ قلمكِ، عســى أن ترفعي رأســكِ، لتريني أرســم قلبــاً تخترقه نُبلــةٌ، لكنكِ اســتعنتِ بقلــم آخر، من المحفظة، وابتســمتِ بغموض، دون أن ترفعي رأسكِ، ودون أن تنظري إلى قلبي الذي مازال، لحد الآن، يجاهد كي ينتزع النبلة..

ابتسامة الظّفر

أنـتِ التـي تضغـطُ الآن على ذاكـرتي، فينفتـح البـابُ، البابُ الـسريّ للروح، لتخرجَ المدارسُ والكتبُ، التظاهراتُ والسـهرُ، حتى الصباحِ، تحتَ نور أعمدة الكهرباء.

كنـتِ تحبيننـي ضائعا في المشي تحـت المطر، عائدا إليكِ بخسـائرَ فادحةٍ تعطّ منها القصائد. تعشـقينني كما أنا: أتدلّى من سـقفِ العالم بحبل الإفلاس، ومن دواخلي يشـعُّ، يلهثُ ذَهبُ وجهكِ المحفوف بفـرح الطفولةِ، وبهبوبِ العواصف. وكنتُ أُحبكِ كما أنتِ غيرَ آبهةٍ بالمصـير، غائبـةً عن الوعي، مثلَ كلّ السـائرين في نومهم، مُسـتعدةً للمشي معي إلى الهاوية، وعلى شفتيكِ ابتسامةُ الظّفر.

أنتِ التي تضغطُ الآن على ذاكرتي، فتخرجُ عصا أبي: تلسـعُني عـلى ظهـري، في ذلـك الصباح، ذلـك الصبـاحُ، الذي هبـطَ فيه المـلاكُ، فصرتُ عاشـقا يضربُـهُ والـدُهُ بالعصا، ويرجُمـهُ بالكُتبِ وبالشـتائم، وتغمرينه بالقبـلات، بطائراتٍ ورقيـة، وبعضـةّ من قلبكِ، الذي كان أكبرَ من والدي، من آدم ومن حواء، من الأفعى ومن التفاحة.

الحظ!

كنــتِ منيعــةً ضدّ أوبئـةِ الصّداقة، المدرسـةِ أو الحــب، وكنتُ أثبُ من على سياج نحافتي، لأكتملَ بكِ، لكـن الهيكلَ العظميّ لعاصفتي سُرعانَ ما يتهدّمُ تحت ضرباتِ ريشتكِ.

آه، لقـد حفظتُ المعوّذتيْن، أنا الكسـولُ، من أجل أنْ أقرأهُما، وأنفخهـا بوجهـكِ، كلـما التقينا، لأنكِ يائسـةٌ بدون سـبب، ولم أعرفْ أنّـــكِ ولدتِ غاضبةً، أصلا، حتى من الله، لكنّه الحظ!

كنــتِ مُحصّنةً فطرياً ضـدّ العائلة، وكثيرا مـا هربتِ وضبطوكِ جالسـةً عند المُسـنّاة، غاضبةً، ترمين الأحجارَ عـلى النهرِ، وكنتُ بابتسامتي، كلما عدتِ من أسفاركِ الطائشة، أحاولُ أنْ أمسحَ عن وجهكِ ذلك الأسـى الغامـضَ، أو تلكَ الدموعَ التـي لم تُفلحْ في فـــرْكِ الصّدأ عن قلبِ العالم.

لم أكــنْ معهــم، ولا ضــدّكِ. كان قلبي يُحاولُ أنْ يُتقنَ الشـكلَ الذي يُناسبكِ، لكنكِ كنتِ مجبولةً على أنْ تكسريه.

أزقة البراءة

كنتُ صبيا، طفـلا يحبو في أزقة البراءة، عندما أشرقَ وجهكِ، بغتـةً، في السـوق، فقفزتُ من النافذة، وهجرتُ البيتَ، المدرسـةَ ومقهـى أبي. تركتُ أقراني يلعبون تحـت مصابيح مدينتنا الفقيرة، وأخـذتُ الليل، ليـليَ الخاصَّ، وتبعتـكِ، لأنني شـعرتُ بغابات وبأثـمار تنمو تحت ثيـابي، ثم كبرتُ.. آه، لقـد صرتُ كبيرا، حتى وصلتُ إلى آخر العمر، في لحظة واحدة.

ابتسامتكِ

كنـتُ أنتقـي القميـصَ، قميصَـكِ، من بـين الثياب المنشـورة لتجـفّ، ثـم أطرق الباب، زاعـماً أن العاصفةَ قد حملته إلى سـطح البيت، وكنتِ تعرفين أن ذلك محضُ هراء، إذ لا عاصفةَ تجرؤ على أن تعكّـر جريَ الخيول المرسـومة عليه، خاصـة وأنَّ الجو صحوٌ، فتضحكـين، تَغرقـين بالضحـك، وتنشريـن، عـلى حبـل حياتي، ابتسامة نديّـةً مسبوكةً بحرير صوتكِ.

آه، لـو تعرفين أنّ تلك الابتسـامة لبثت خالـدةً في حياتي، مثلَ اسـمي، بل هـي الزادُ الأعظمُ من البراءة، الـذي حملتُه معي، وأنا أقطع طريق الشِـعر المليء بالمكائد، وهي أيضا، ضحكتُكِ، تَميمتي وحِصنـي، كلما غزاني اليأسُ، أو كلما جرجرني الحنينُ، من ياقتي، إلى الصبا، إذ لم تتمكن منها فئرانُ الزمن، لم تكنسها الريحُ العاتيةُ، التـي مرّتْ وكنسـتْ الأمانَ عن بلـد بأكمله، طوالَ السـنين، ولم تجفّ تحت أقسى الشموس، لحد الآن..

فكرةٌ عن الضوء أو ضوء فكرة

لا أتذكـرُ كيـف وصلـتُ، لأننـي تخطيتُ جسـدي وسـكنتُ الفكـرةَ. لم يروّعني ما صادفتُ من وحـوش أو من أعداء، لأنني كنتُ أريدُ مقابلة الجَمال شـخصيا، حتى عانقنـي، أخيرا، فبكيتُ وهـو يربِّتُ على كتفي: " لقـد وصلتَ، يا أخي.. " وفتحتُ عينيّ لأجدكِ، واقفة، بانتظاري.

خفـتُ من جَمالكِ، لأنه كان جميـلا، كما إنني كنتُ أضعفَ من أن أسكنَ صاعقته، أو من أن أعومَ في حوض جلالته، فأغمضتُ عينـيَّ، ورضيـتُ بالخسـارة، مكتفيـا بأننـي قابلتُ جَـمالـكِ مرة واحـدة، وأن صاعقتـه قد ضربتني برفق، رغم أنني لم أعد سـوى فكرة عن الضوء، أو ضوء فكرة.

ثقل العالم

أحتــاجُ أن تكتبــي: " أحبكَ "، رغم أن ذلـك لا يقدّم أو يؤخر شــيئاً من حقيقة أننا خاسران، فلســنا حرّين لنتعانق، ولو خلســةً عن الحب نفسه.

أحتــاجُ أن نلتصــقَ، أن نتناغــم كالموســيقى، وأن نمتــزجَ، كما تمتزجُ قبلةٌ بقبلة، كي يتعطّل الموتُ، يتوقف الزمنُ، وتولد الحياة.

أحتــاجُ: " أحبكَ " الآن، لأشــعرَ أنكِ ما زلتِ تشــاركينني كلّ ثقل العالم.

أحتاجكِ

أحتاجـكِ الآن، في هـذه اللحظـة المباركة، التي يغسـلني فيها الحـزنُ الغامـضُ النبيلُ، فأعـود جديداً، كما لو أننـي لم أحبكِ من قبـل آلافَ المرات، منـذ أن هبط آدم من الجنة، متسـلحاً بحنانكِ ضدَّ وحشية العالم.

أحتاجكِ حقاً، لكنني مجبول على الفقدان، فاستمرُّ بالمشي، ولا أقول..

أترك نفسي

أجثو راكعاً في صالة اسمكِ،

وفي وجهكِ الذي يغزو الخيال، مجرّة بعد مجرّة،

في قلقكِ الذي يطيرُ فيه الشعراءُ، وتعثر فيه العاصفةُ على أقدامها،

في سرّكِ الذي تنطقه المفاتيحُ فتنبجسُ الأسرارُ، مثلَ نافورة نور، تضيء القلب.

في هَولكِ، في حرير حنانكِ، في رعب غموضكِ.

فيكِ: أتركُ نفسي.

قصيدة التفاحة

أحـبُّ يدكِ التـي ابتكرتْني من الطين، وأكملـتْ مُعجزتَها بأنْ رسمتْ تقاسيمَ وجهي، ثم هبطتْ فنحتتْ قلبي.

أحبُّ غايتَكِ مني، طريقَتكِ في العيش تحت سـقفِ جسـدي، وأسلوبَكِ المرتبكَ في حمايتي.

أحـبُّ عريَـكِ في قديـم الصباحات، حـين كان العـالمُ صالحا للعيش، عندما أشرقتِ: تجلّيتِ بهيئةِ تفاحة،

آه..

تفاحتُكِ التي أكلتني.

أحبّـكِ، أحبّ شِـعري، الذي خرّبـه جمالُـكِ، وخرافاتي التي تُشبهكِ..

القشة

أحبكِ بصمتٍ، بصمتٍ بالغِ الاخضرار، بنبرةٍ مشوبة بالقلق، وبقلبٍ واثقٍ من انكساره، وأخافُ.

أنتِ القشّة، وأنا الطوفانُ، أنهارُ مرعوباً، أمام لمعان القوة، التي تشعّ من تاج ضعفكِ العظيم.

أنا المضطربُ الحنونُ، الذي تمنيتُ أن أهزّ لكِ سريرَ الطمأنينة بأنفاسي.

أنا دفتركِ السريُّ الحميم،الذي امتلأتْ صفحاتُه بفراشاتك وقبلاتي.

أنا الذي، حين جرحتُكِ،

تدفقتْ، من عينيّ، دموعُكِ..

البستان

مـن أقـصى الماضي أتيـتُ لأقولَ: أحبـكِ، وإلى أقـصى الماضي مضيتُ لأقول: أحبكِ.

في ذلك الذهاب، وفي تلك العودة، كنتُ البستانَ الذي يطوفُ الأزمنة بحثا عن شـجرة، هي خلاصتُه، ساعةَ يتصحّرُ العالمُ، فلا يعود العاشـقُ من رحلتـه إلا بالغبار على القدمـين، أو بحفنة من الرمل، من داخلها ينفجرُ، ويفيضُ مثلَ واحةٍ، قلبُه..

عزلة الجوهرة

أحـبّ ضفيرتكِ التـي تقول ما لا تقولينـه، وأنصتُ لإيماءات أصابعِكِ المتقنةَ الجمال، التي ضفرتْ هذا الجدولَ من الحنان.

أحبَ سـماءَ جبهتكِ، وتقطيبـةَ القلق، التـي تبتكرينها مكتظةً بالغيوم، عندما أغيبُ.

أحـبّ فمكِ الذي يخلق أطواراً من الدهشـة، وهو يعيد نحتَ جسدي، قبلةً بعد قبلة، كلما بعثره الاشتياقُ.

أحـبّ قبلتكِ المترعة بالرحيق، تلك التـي طبعتِ معها فمكِ، في آخر مرة.

أحبنـي ضائعـاً في بياضِـكِ الخـرافي، بياضُك الناصـعُ، الذي أحاط حياتي بعزلة الجوهرة، وصقلَ هواجسي إلى الأبد.

مثل غيمة هاربة من يد الفصول

مازلـتُ أحبكِ، أحـب انخطافَكِ بالمطر، واعتقـادكِ أن كرامة الحب هي في تحويله الإنسانَ إلى غيمة.

مـا زلتُ أكتبكِ، وأرفض أن أكتبَ اسـمكِ، خشـية أن يكون مشاعا، فلسـتِ الترابَ لتكوني في متناول الجميع، ولا الماءَ لتبحر في حوضـكِ حتـى زوارق القراصنة، لا، ولا الهواءَ الذي يتنفسـه الجلاد والضحية.

أنتِ النارُ، التي لا تعثر على شكلها، حتى نهاية الحريق.

أريـدكِ مثـلَ غيمة هاربة من يد الفصـول، مثلَ برق يخطف في لحظة مفاجئة، لكنه يظل مشرقا، طوال الحياة، في الذاكرة.

ثقوب النايات

لا أحبكِ، لئلا أخـرّبَ هدوءَكِ، لئلا أهزّ لكِ سريرَ العاصفة، ولئلا أهدمَكِ وأبنيكِ، لتكوني لي كتفين.

قلـتُ: لا أحبـكِ، وأعنـي أنني أعرفُ قسـمتي مـن الفقدان، ونصيبي من الخيبة.

لا أحبـكِ، وأعنـي: أننـي أتمزقُ، مثـلَ أرض يضربهـا زلزالٌ، عندما أشتاق..

لا أحبـكِ، وأعنـي عكـس هذا، ضـد ذاك، وقبـل الحب و ما بعده.

قلـتُ: لا أحبكِ، وطفـرتُ، مثلَ دمعة كبـيرة، من بين ثقوب النايات في نحيبكِ..

كما تمتزج النارُ بالشعلة

عندما سرقتُ وجهكِ لم أعرف أنه الفانوسُ الذي سيفضحني وسط ظلام العالم: لم أجد مكاناً أفرّ إليه سوى أن ادخلَ في شعلتكِ، لأن الحياة ضيقةٌ جداً، لا تكفي لإيواء خيط شمعة.

دخلتُ شعلتكِ واشتعلتُ، حتى امتزجتُ بكِ، كما تمتزج النارُ بالشعلة، وصرتُ غريباً..

لماذا تستعجلين الخصام دائما؟

كما لو أنك تعشقين العيشَ على الحافة.

كما لو أن طمأنينتكِ محفوفةٌ، دائما، بالمخاطر.

كأن ريشَ عواطفكِ لا يجدُ نفسَه، إلا بالطيران على ظهر الهلاك.

كما لو كنتِ مسكونةً بقلقٍ لا خلاصَ منه، إلا بتركِه يقلبُ، على هواه، قواربَ مصيري التي، تحت كل الظروف، تعبرُ نحوكِ..

لماذا تستعجلين الخصامَ دائما؟

المرآة

ابتكـرتُ الحبّ، حبكِ، على أمل أن أكونَ ولداً صالحاً، فأكفّ عن الطيران في أزقة الخيال. لم أتوقع أنّ جنونا آخر ينتظرني عندما صرتِ مـرآتي، التـي كلما وقفـتُ أمامها رأيتنـي لا أصلح لشيء، سوى أن أكسرها، محاولاً الإمساكَ بجمالكِ الداخلي، الذي يتمرد على جماله، فيقودني لأكسر حياتي من مرآة إلى مرآة..

جمالُـكِ يُشعِرُ الموتَ بضآلة أفعالِه!

امرأة صديقة

جمالكِ الداخليُّ يتكفل بكِ كغريبةٍ في قافلة طويلة من النســاء، كنجمة لا تُطاق، أو كعطرٍ هارب من كل وردة، لكنه الفــنُّ الذي يجعلكِ قريبةً.

ستأخذكِ الحياةُ إلى الزواج، فيكون لكِ بيتٌ من التقاليد، زوجٌ هابطٌ، وسيولد لك أبناء يموتون في الحرب، أمّا الشِعر فسيتوجكِ ملكةً على شــعب من السائرين في نومهم، وستلبثين خالدة هناك، فهؤلاء ليسوا عرضة للانقراض، إذ لن يموتوا أبدا!

إلى امرأة عابرة

قبل عشرين عاماً، في مدينة ساحلية، رأيتكِ بشكل عابر، عندما أشعلتِ سيجارتكِ من ولاعتي، ثم انصرفتِ، دون أن تقولي كلمة واحدة.

كلُّ شيء أخذ طريقه إلى النسيان بعد ذلك، عدا دخانَ سيجارتكِ، وعدا وجهَكِ:

وجهُكِ المليء بالأسى، والخالدُ، كما الألم.

الرائحة

كانـت لحظـة عابرة، غيرَ مخطط لهـا، أفلتتْ مـن قبضة الزمن، لتجمعنـا وتفرّقنـا في نفس الوقـت، عندما التفـتَ كلٌّ واحد منا، وسـطَ الزحام، ورأى الآخرَ العميقَ، بكامل جواهره وأطيانه، ثم مضينا قابضين على ابتسامة غامضة، ظلّت تشعُّ أبداً.

كأنّ دفقـاً من الرعشـات قد اندفع من داخل جسـدينا، وكأنّ قلبي قد امتلأ برائحتكِ..

المرأة السرية

أخافتني كثيرا كلمة "أحبك".

تمنيتُ أن تبقى علاقتنا في المرتبة الغامضة من الحب: مخضّبة بالهدوء وبالهمس، ومكتفية بما تقوله حاجتنا إلى التلامس، أو إلى المرور، دون كلفة، أمام بعضينا، كالغرباء، لكنها خرقتْ الاتفاق، غير المعلن، فأخرجتْ ما بيننا عن طوره، عندما قالت: " أحبك " في تلك اللحظة، التي كنت أفكرُ في أنها، لفرط جمال صمتها، لا يمكن أن تكون مرئية.

لقد وجدتُ نفسي، وجها لوجه، أقفُ أمام مرآة الواقع، فرأيتُ كم كنتُ هزيلا ومحطما، ورأيتُ الأخرى، المرأة السرية، التي كانت لابثة في أعماقها، وقد تجلّتْ كملاك ناصع البياض، لا يمكن أن يجاوره شيطاني الماكر، الذي تجلى هو الآخر، ما أن نطقتْ، بهيئتي الآدمية.

لم أقصد أن أحبكِ

لم أقصـد أن أحبّ، لكن قلبي اتخذ شـكلَ مـَن يحبكِ، فصرتُ مَلاكا قادرا على أن يبتكرَ، من خلالكِ، المعجزة:

فتقتُ العاصفةَ لأستخلصَ لروحكِ معادنَ الهيجان، وحرارةَ السقوط إلى أعلى.

أجلســتُ الريحَ على أقدامكِ، وأمرت النسمةَ أن تبني عرشها في رئتيكِ.

ارتفعتُ بسـاقيكِ عاليـاً، كراية الحرية، وعـلى بطنكِ تمددتُ، كميدان من برادة العشب والنحاس.

غسلتُ روحكِ بزيت الشِعر.

مشّطتُ شعركِ بهواجس الممسوس بالمشي تحت المطر، خضّبتُ دمكِ بالعيد، وأطعمتُ قلبكِ كِسرة من شطوط الطفولة.

بضمّةٍ يائسـة كنسـتُ الفـراغَ المتراكمَ على شـفتيكِ، وكسرتُ عتمة الأيام ببياض إبطيكِ.

أعـرفُ أنني أركـبُ طائرة ورقية، لكن الخيـال مجرّة، وروحي نيزك صغير.

تآكلتُ في طريقي إليك، ولمـّا وصلتُ كنتُ لا أحد.

أنتِ مَن أحببتُ قبل أن يعثر الإنسان على قلبه.

أنتِ مَن غنيّتـُكِ وحيدا بحنجرةِ الجميع.

أنتِ عدة شموع في شعاع واحد.

أنت سفينة في عدة طوفانات.

أنتِ حزمة مفاتيح في معرفة واحدة.

أنتِ سهمُ الرحمة الذي يذبح القلب، ويرسمه ملاكا في راية الشيطان.

أنتِ لا نهائية الغفران في الخطيئة.

أنتِ فيضانٌ من الشكِ في قناعة أكيدة.

أنتِ انشطارُ المعنى، ومفترقُ طرق أمام مسافر واحد.

ألقيتُ عليكِ من الفصول كلَّ ربيع، ومن الربيع خلاصةَ التبرعم، ومن التبرعم خلاصة الرحيق.

أحبكِ، وأعني أن الشِعرَ يعمّني عندما أحبكِ.

أحبكِ، وأعني أن عمري يزحف إلى الهلاكِ على ركبتيه عندما لا احبكِ.

أحبكِ، وأعني أنكِ صحو الصخور على الصباح، إذ يشرق بالشمس على بحارة تائهين.

أحبـكِ، وأعني أنكِ ملحُ الأسـاطير، وامرأة السـلام التي من أجلها تنشبُ الحروب.

لم أقصد أن أحبكِ،

لكنكِ تجليتِ كتابا، فقرأتكِ على العشاق في دفتر العالم..

كانت تمطر ريشا

رفعنا رأسينا: كانت السماء تمطرُ ريشا.

كانت هناك الطفولة، وهي تطلي جدران براءتنا البِكر بهواجس الطيران، في غاباتٍ لم نرها قط.

هناك أيضا ينابيعٌ، كأسرار في جسدينا، تشقُّ طريقها إلى الخارج: تنمو تحت طيّات ثيابنا، فتكوّن أزهاراً، براكينَ وبحيراتٍ، لم نكشفها لأحد، خشية أن يكتشفونا نكبرُ خلسة، فيطردونا من الفردوس إلى جحيمهم.

من أجل ذلك أزحنا الممرات، نفضنا البراري، و جمعنا الأقاصي في جيوبنا، حتى سمعنا وقعَ خطوات الزمن في الساعات، التي كوّنت أعمارنا.

كنا قد افترشنا عشبَ الجمال مبكرين، مذ طارت أولُ فراشة من مراعي إبطيك: مذ ركضنا نلتقطُ الأمكنة التي تحطُّ عليها الفراشةُ، وهي تطيرُ، فنتبعها، من مكان إلى آخر، إلى أن كبرنا فلم تعد هناك أمكنة أو فراشة.

غير أننا، في ذلك المقطع المنسي من رواية عاشقَين، افترقا دون أن يعرفا ما السبب، عثرنا، بين الأمكنة التي جمعناها، على أغنية:

" كان هناك طائر.

كان يمرُّ، فوق رؤوسنا، وهو يغرّدُ.

أحيانا كان يمرُّ دون أن يغرّد

أحيانا أخرى

كان يغرّدُ دون أن يمرّ.. "

غنيّنـا، ولم نوقظ أحدا، لأننا كنـّا نيـّاما، حتى رأينا الرعاة، في التلال، يقودون قطيعا من الغابات بأصوات ناياتهم.

سألتـُكِ: من أين لكِ هذا؟!

وكنتُ أقصدُ فمكِ، لأنه كان بمرتبة القنديل.

من أين لكِ هذا الغيم؟

وكنت أشير إلى حواجبكِ.

من أين لكِ هذا الجدول؟

وكنت أقصدُ شعركِ..

.. كانت تمطر ريشا،

عندما رقصتِ في آخر مرة،

لأنكِ تحوّلتِ، من فرط الغبطة، إلى حمامةٍ، وطرتِ.

أحبكِ أكثر مما أحبكِ

أرسـمُ عصفورا، ونحوكِ أطيرُ، راضيـاً أن أعيشَ قريبا منكِ، في قفـص. ذلك أقـصى ما يمكنني بناؤه من سـدود عندما يذوب الصبرُ، فتنحدر السـيولُ بأطيانها، من منابـع دموعكِ، رغم أنني أشعرُ بالأمان، يهطلُ مدراراً، عندما تبتسمين، بل وأحبكِ أكثرَ مما أستطيع، أكثر مما أحبكِ، فأشاركك الغناء، غناءَكِ، الذي يصيبني بالأسى وباليقظة معا.

إننـي موشـكٌ على الطيران وعلى السـقوط، في نفـس الوقت: أنتشي بأنفاسكِ، التي ترشُّ الربيعَ على مسام جسدي، وبنظراتكِ الواثقة، التي ترسم الابتسامةَ على تقاسيم وجهي، لكنني سرعانَ مـا أنكسرُ أمام حزنـكِ الصامت المتأمل، الذي لا أعـرف من أيّةِ جهةٍ ينبثق، فيجعلني حائرا، أدور حول نفسي، أو أجلس في تلك الزاويـة الموجعة من الـروح، كمن اضطرّته الحاجـةُ إلى الغوص، عميقاً، إلى قاع الغرق، بحثا عن يديه..

العصفور

لأنـكِ تتوحدين مع الغيوم، أشـعرُكِ تمطرين، حالما أتمُّ عرسَ قصيدتـكِ لكن، لأنـكِ تتعارضين مع كلّ شـكل: تخلقين أطوارا غـير مخلوقـة من قبل، أكتبكِ ثانية فأشـعرُكِ كالنـار، تقلبين مزاج الجهات، بحثا عن شكل يلعبُ بالريح، فيقلبُ شكلها..

أكتبـكِ ثالثـة ورابعة وخامسـة، ثـم أجلسُ القرفصـاء داخل الكتابة، فلسـتُ أعرفُ لغة تطلقُ سراحـي من أسر حريتكِ، غير أن أخرّبَ الخيال والعقل معا، لأكتبكِ على لا هدى.

أكتبُ: أحبكِ، وأعني: لا أشعر بالأمان ولا بالخوف.

أحبكِ تعني: إنني أطلبُ معجزة رحمتكِ، مثل عصفور ضربته العاصفةُ، فلم يعد يُحسن الإمساكَ حتى بجناحيه..

شعبٌ من الفراشات والبلور

لم أنسَ أنني قلت: " أحبكِ " من قبل، لكنني أكرر هذه اللفظةَ المعجزة، كي أصونَ حريتي من الهبوط إلى وحل العالم، فأنتِ العادلةُ كالهواء، النبيلة كأفراح الطفولة، الشائعة لكنْ كالمطر، والغريبة كبلدان مرسومة على خرائط الخيال.

آه، سيزداد العنفُ، أعرفُ ذلك، وسيسيل الدمعُ من النوافذ، حتى تخرّ الجدرانُ صعقاً: سننكشف دون حماية، على سرير الطفولة، وسط الانفجارات، وسأحبكِ دائما، فالحبُّ، حبُكِ، يرفعني من ذاتي الضائعة في العبدِ، إلى مستوى ذاتي المشرقةِ في السيّد، كلما خالطني الخوفُ، إذ إنّ في مرجان ذاتكِ، وحدَها، يتكوّن لؤلؤُ الأمان، ومن حواسّكِ، وحدها، يضيء شعبٌ من الفراشات والبلور..

في وطن منهوب، وحزين

أحبّـكِ لأن قلبـي يتوهّج كشـعلة رغبتكِ، ولأن مـذاق الملح في دموعـكِ يُعيدني إلى الطين، الذي عندما جرّب أجدادي رسـم وجهكِ عليه، اكتشفوا الكتابة.

أحبـكِ لأنَّ أخطائـي صحيحـة، لأنَّ الصحيحَ مـن أفعالي هو الخطـأ الأكيـد، لأنكِ ممحاة للأسـوار، ولأنك الفـأس التي تهدمُ السياجَ الذي يحجزُ الجسدَ عن الجسد.

أحبـكِ لأنكِ حريـةٌ حرّة، وأنا طائر لا عشّ له، ولم تمسـكه يدُ السماء قط، لأن ذلك مما يخطفُ حريتي من قبضة الزمن، ولأنه مما يجعل الموتَ في حيرة من أمر ابتسامتي، وأنا بين أنيابه..

أحبكِ لأهربَ من بشاعتي، من زوابعي الداخلية، ومن الحزن الذي يعصف بحقولي كإعصار غاضب، لأنجو من ثقل وجودي في العالم، أو من ثقل العالم على وجودي، ولأمسكَ بالمعرفة، بالفن الذي يجعل الكون جميلاً.

أحبكِ..

آه، هذا أكثرُ نور يمكنني غزلُه، في وطن منهوب، وحزين.

أجنحة

لا يزال يحبكِ بقلب متماسك، يؤهله أن ينفذَ من مَسَام هزيمته، ليحتلَّ الإعصارَ حتى آخر ريشة، يُربِكَ النصرَ، يلمعَ بروح من ذهب، ويرفعَ قبضته، مهدداً فلول الجَمال، الذي يفكر أن يطولكِ.

لا يزال يكتبُ أشعارا، بحثاً عن مفتاح ضائع لأقفال لم تُصنعْ بعد، أو يرمي صنارته إلى بحيرة الغياب، ويصطادُ أسماكاً وفيرة، كالدموع.

لا يزال كما هو: يحلّق عالياً، فمذ أن ألقيتِ عليه قميصَ حنانكِ، ارتدّ طائرا، و نبتتْ له أجنحة..

أيتها الحافية كالندى

لا أعـرفُ أن أحبكِ بإتقان، لأن الحبَّ هـو ممّا يجعلني مبعثرا، كطير خالطه الشكُّ، فهاجر يبحث عن زقزقة تجرحُ حنجرته.

أيتهـا العاريةُ كالهواء، البسـيطةُ كقلم الرصـاص، والمضطربة كعصفـور يطـير من هنـا إلى هناك، ومـن هناك إلى هنـا، بحثا عن جناحيه.

أيتها الحافية كالندى.

أيتها البعيدة كـيَدي.

أيتها الدافئة، كموسم من القُبل.

أيتها الشفاه التي تعطفُ على الكلام.

لا أعـرفُ أن أحبكِ إلا وأنتِ سـاخطة، لأننـي طفلٌ يغارُ من خوفه عليكِ، فيكسركِ وتسيلُ دموعه من عيني المرأة، التي تظهرُ، عندما تقفين أمام مرآتكِ..

لمعان الدرّ

أريدُ أن أحبكِ كمأزقٍ، أو كورطة:

أن أصحَبكِ كأنفاسي، أن أفرَّ منكِ، وأن أقابلكِ وجهاً لوجهٍ، في كل مكان، كالمصير.

أريـدُ أن أجعلـك الملكةَ في قصيدة أخـرى، قصيدةٌ لا تُكتب، ولا تنال منها يدُ التداول.

أفكـرُ في أن أحبـكِ بوجـازة البلـور، وأن أُشـبعَكِ بالسّـباب وبالشتائم، بلمعان الدرّ، وبالدموع.

ولأنكِ وجيزة كما قُبلةٍ، وكثيفة مثلُ لؤلؤة، أفكرُ أن أرشّ،على أرض صـدركِ، حـسراتي، فتنمـو، عـلى سـفوحِه وبـين وديانـه، شاماتٌ لا تحصى.

عيدُ الحواس

لأنكِ ميادينٌ من النوم، وشوارعٌ من الرغبة.
لأنكِ قويةٌ كساق زهرة، لأنكِ مكسورةٌ كريح.
لأنكِ تبتكرين الأعياد والشبابيك والمصابيح.
لأنكِ تشرقين على القلب من جهته العميقة.
لأنكِ تلاطفين المحزونَ، وتلاعبين قلقَ العالم.
لأنكِ الخيالُ الذي يُفسد على الموت أعماله.
لأنكِ انشقاقُ الندى عن الماء.
لأنكِ عاصمةُ الدهشة، ووطنُ السائرين في نومهم.
لأنكِ خاطفةٌ كعُمرٍ، لأنكِ أزليةٌ كلحظة سُكر.
لأنكِ ذاهبة إلى قدميكِ، وعائدة بمواكب من النسيم.
لأنكِ تجدلين من قبلاتكِ مجرةً من النيازك، وسلالا من النجوم.

مرّ العمرُ كالغيم، ولم يبق في خواطره إلا وجهُكِ الخاطفُ، كالبرق.

وجهُكِ عيدُ الحواس..

موكب الهديل

أنـتِ التي عندمـا أطرقُ بابكِ، يرنّ الوتـرُ المقطوعُ فتخرجين، من جميع الأبواب، بهيئة موسـيقى، وعندما تتيه العاصفةُ، تسـندُ ظهرَها إلى أسـماء العشـاق المكتوبة على جذع شـجرتكِ: لتتنفسَ الغناءَ النقيَّ، وتستريح..

أيتها الهادئةُ كالندى، الصاخبةُ كالمطر، والحزينةُ كرحيقٍ لم يقع على وردتِه بعد!

دموعُـكِ تؤرّقنـي، وابتسـامتُـكِ، وحدها، تحصّـنُ حياتي من السقوط في كمائن الخذلان.

هـوذا حنانُكِ يتقـدم متفوقاً على حنانـه، ليقتلعني من اليأس، كـما كان يفعـل طوفانُ أجـدادي في غابر المطر، ثـم يفيض نجوماً ومجرات، ليغمرَ موكبا من الهديل، يتبعني أين ما كتبتُ اسمكِ.

أضمكِ

أضمّكِ إلى القلب، فأنتِ قلبه.

أسكنكِ لأنكِ مأهولة بي.

أفرّقكِ لأنكِ الشعاع الذي يضيء الباطن.

أتبعكِ لأنكِ هائمة في مرايا تعكسني عاشقا يلملمُ آثاركِ في الكتب، في الممكن، وفي غياهب المطلق.

أهربُ مني، فأجدني نائما في أحضانكِ.

أكتبكِ وأمحوكِ، فلستُ أعرف كيف أكتبكِ، فأنتِ الشِعر ومأزق الكتابة.

لا أعرفُ كيف أحبكِ، وأنا ملطخ ببياضكِ.

أريدُ أن أكتبكِ بقلم الرصاص، ثم أنكسرُ مثل قلم الرصاص.

أريدُ أن أنكسرَ، وأنا أرسمُ حقول الحنان في صوتكِ.

أريدُ أن أنكسرَ انكساركِ.

أريدُ أن أنكسرَ مثل جرّة، وانكسرَ مثل مكسور ينكسرُ، أتبعثرُ مثل شجرة في قلبها عاصفةُ ريح، ولا يجمعني إلا بياضُكِ.

الموت العميق

أنثـر أحلامـي على خرائـط النوم، أنـادِمُ الأرقَ أثناء حراسـته للوسادة، وأحبكِ بكل ما أملك، لأن ما أملكه حقا هو هذا الذي لا يجلـده سـوطٌ، و لا تحجزه القضبـانُ، لأنه الضمـيرُ أو القلبُ، ولأنه الفنُ أيضا عندما يكون عادلاً.

إنني هلـعٌ، في الأصل، منهوشُ القلب وحزيـن، لكنّ الحبَّ، وحده، مَن يجعل مني مخضّباً بالدروس التي لا جدوى من إتقانها، رغم أنها ضرورية للتزود بالعصيان.

أقود مؤامرةً، أعرف أنها فاشلةٌ، وأجهل أيضا ضد مَن أقودها: لهذا أحبكِ، لأنكِ تلهمينني القوةَ، أنا الذي صرتُ هيكلاً عظمياً للخسارة

احبـكِ، أنـا المفلـسُ، بكل مـا أملكه من لمعـان، ليتمتـع العالمُ بالشِـعر الذي يفـرك الصدأَ عن القلب، و لكـي أنجو من العيش في السهولة.

أحبكِ لأتمتعَ بموت عميق..

سقف الاضطراب

لأنـكِ مفقـودةٌ، ومسـتحيلة، لأنك غريبـة في النسـاء، وأليفة في الحب، لأنكِ بـاردة ودافئة، لأنكِ مجنونة كصباحٍ عاصف، كعاصفة في قصيدة، كنافذة مكسـورة، كشجرة تتسلق نفسها، كصرخة يأس، كمُشادة بين اللاشيء ونفسه، وكعطر ينهبُّ وردتَه من حديقة.

لأنكِ معطوفة وعطوفة.

لأنـكِ أداة مجهولـة لا يعرفهـا النّحـاةُ: ترفعـين المنصـوب، وتنصبين الفاعل.

لأنكِ مجرورة بالحلم، مرفوعة باليقظة، ومنصوبة بالحزن..

أهجـرُ كل معرفتي بالخذلان وبالنفي، وبالعيش تحت سـقف الاضطـراب، وأقول: " أحبـك " مُعلناً بداية تـشرّدي في هولكِ، في رعبـكِ، وفي الرمال المتحركة، التي لا يحيط بخواطرها إلا بهاءُ جمالكِ..

كوني واحدة، لأتعدد

أعطيتـكِ الحـواس كـي تبعثرينـي، كـما يفعـل زورقٌ بحزمـة أمواج، كما يفعل خيطٌ رفيع بروح شـمعة. لم أعرف أنني أعطيتكِ ما يجعلني أتيه فيكِ، آه.. تيهكِ، مع ذلك، من أندر ما يكون، فقد مارسـتُ هذه الضلالة، ولم أنتشِ كما الآن: أنا التائه قبل أن يبتكر الإنسان المتاهة.

كوني عادلة، لأشنق الزمن.

كوني قاسية، لأنحدر مع دموعكِ.

كوني بيضاء، لأكون لطخة نار في عروق الثلج.

كوني قديسة لأتمرد على الطاعة، ولأكون الموقد لجمرة الكفر.

كوني خائنة، لأخطفَ الوفاء.

كوني حنونة، لأرجمكِ قبلة بعد قبلة.

كوني حبيبة، لأبحث عنك في الشعر وفي الأغاني .

قولي: أكرهكَ، لأكشف الخلل في تركيبة الكون..

كوني واحدة، لأتعدد.

كوني عديدة، لأحبكِ ممزقا بين شرقك وغربكِ.

أكرهكِ

أريدُ أن أنسفَ حبي، وأبعثركِ، كما لو كنتُ لم أحبكِ من قبل: كما لو كنتُ لم المِلمْ من مروركِ، في حياتي، حياتي التي بعثرتْها المنافي، وفتتها الحروبُ.

أريدُ أن أهدمَ كتفيكِ، وأفجّركِ.

سأنثرُ شَعركِ على الغابات والأسلاك. أنشركِ على قميص العاصفة، أوزعكِ على أعمدة الكهرباء في الأزقةِ، وأرسمُ تقاسيم وجهكِ على وجوه الخائبات.

سأتركِكِ تنبتين، هناك، على جلد الحِيرة، مثل زهرة يأس، ومن عروقكِ تشعُ شمسُ الفاقة، فأقطفكِ.

سأرشّكِ على الأرصفةِ:

أبعثرُكِ في مخيّلات السكارى،على طاولات الحانات، وأجرحكِ بين طيّات دهشتكِ: سألمُّ حطامَكِ لأكسركِ، ثم أنفضُ الغبارَ عما اقترفتُ: أتوبُ من كل ذلك، وأرسمكِ كما أنتِ، لأسرقكِ.

سأشوّهكِ. ألطّخكِ بي، وأمزقكِ.

سأرمي بنفسي إلى داخلكِ:

أنفجرُ فيكِ، لأنسفكِ.

أريدُ أن أصوغكِ، أبتكركِ، ثم أضيّعكِ.

سأبكي، وأتلوى من الألم، حين أصحو من السُكر في ينابيعكِ.

سأهيم، في الشِعر بحثا عن رموزكِ، وسأبسطُ راحتيّ تحت صنبور غيابكِ:

قطرة بعد قطرة ستمتلئ البحيراتُ بوجهكِ، ويصير العشبُ اسما لأجفانكِ، أما الزوارقُ، على قميص البحر، فأطيافكِ..

لكنني

سرعان ما أعود إلى أول الأغنية:

سأطيرُ، كما طفل، بين غيوم حواجبكِ.

هكذا

استفزُ هدوءكِ.

سأرتدي حنوّكِ، وشُعاع برقكِ، وأركض بين القبلات، بحثا عن بصيص فمكِ.

سأشربكِ بيديكِ، وأنا أبحثُ عن يديكِ.

سأخلطكِ بالجحيم إذا كنتِ الفردوس، وبالفردوس إذا كنتِ الجحيم.

سأستاء طبعا، سأستاء، لكن باستيائكِ.

سأشدّكِ من جَمالكِ إلى جَمالكِ، وأشتمكِ.

سأحكم وثاقكِ إلى طولكِ، أجرجُركِ من دموعكِ،

ثم

أركع باكيا:

سأبكي من لطف ضمادكِ على جروح قسوتي، سأتضاءل أمام إعصار حزنكِ، وأسيلُ مغسولا بأنحائكِ حتى أصيرَ يتيمَكِ، لكنني لا أريدُ ذلك:

أريدُ أن أكون مجنونكِ.

أريدُ أن أشرّدكِ في الشتاء، أن أخرّبكِ في الربيع، وأن أصحّركِ في الصيف، ثم أكفُّ عن كل هذا، لأتساقط ورقا يابسا، من شجرتي فخذيكِ، في الخريف.

أسقطُ مكسورا ولا تلملمني إلا فراشاتُ أوصافكِ، فأشردكِ في المطر:

اجرّدُ عينيكِ من البحر في الربيع، وأشعلُ بصيف تموزكِ الصيف، ثم أسيلُ عَرقا، صاعدا كالشلال إلى إبطيك: ألتقطُ ريشَ عبوري، على جسر ذراعيكِ، من مَسام ذراعيكِ.

أريدُ أن أصيبكِ بحبي، لأخرّبكِ.

هكذا..

أحبكِ وأخربكِ:

أجرّكِ إلى الأرق، أغطيـّـكِ بالسهاد.

أقـودُ جيـوشي ضدكِ: أحاصركِ، أكشـطُ السـماء عن مدنكِ، وأحيطكِ،

ثم

فجأة أنكسرُ أمام عزلتكِ:

أغسلكِ بالنوم، أمشطُ أحلامكِ بالأغاني،

وأرتعشُ لفرط حنانكِ.

آه،

أريدُ أن احبكِ..

قوارب الاستعارات

عندمـا رأيتـكِ، أوّلَ مرة، طـافَ حول رأسي العطرُ، شـملني جمالُـكِ بالرعـب وبالأمان، فسـقطتُ من هول الحمـى، ولم أركِ حين مشى خلفي موكبٌ من اليأس، ومن الشموس..

عندمـا أحببتـكِ عرفـتُ كم هو محصـولي من الـبرق، كم هي رغبتكِ بالخطر، وكم علينا أن نطويَ الأرضَ إلى ما خلف الملاك، أو إلى ما قبل الشيطان.

عندمـا امتزجتُ بكِ مسَّ قلبي شـعاعٌ غامض، و حط قلبُكِ، مثلَ فراشة، فوق كتفي:

صرتُ وردة.

صرتُ ناراً.

وبين الوردة والنار وُلدتْ قصائدُ لا تُكتب، لأنها من جنسكِ، الـذي لا تطولـه المجـازاتُ، وتغـرقُ، في الطريـق إليـه، قـواربُ الاستعارات..

أنتِ حنانٌ نادر

أضمرُ في نفسي أن أكونكِ، فأكون غيركِ.

أضمرُ أن أَمَلّكِ، فأوزِّعُني.

أضمـرُ أن أقابلكِ في مـكان ليس فيه أحد سـوانا، فأقابلني في عيونكِ.

أنتِ حيرةُ الطفل في متاهة حلمه.

أنتِ بهجةُ الكتابة، وعناء السقوط في كمائن القصيدة .

أنـتِ سـلّمٌ مـن الأجفـان، ينتهي برمش سـعفة: أتسـلقه وفي السعفةِ أنا، فلا أجد إلا أنتِ في مكاني.

آه،

أنـتِ حنـانٌ نـادر، ينبـتُ كيف مـا اتفـق، كالفطـر، في براري روحي.

جزيل النجوم

إلى هناء، طبعا

جزيلُ الفرح لعبقرية قلبكِ،

لأنه يتناغمُ مع براري البساطة، ويشعُّ كنوم أبيض.

لأنـه يمسـكُ بخيـط الـبراءة، كـما ـ سـاعةَ العاصفة ـ تمسـكُ الشجرةُ بأغصانها.

لأنـه طليقٌ، كريـح تنحتُ الطريقَ، الذي تسـلكه الريشـةُ إلى قلب الهواء.

لأنه حقلٌ يغزو مناجلَ حصاده.

لأنه يترنمُ بالأقاصي، ويجتمعُ بالبعيد.

لأنه الوصولُ إلى الدليل.

جزيلُ الينابيع لوجهكِ المتخيَّل،

لأن ضحكتكِ جميعُ اللغات، وحزنكِ جميعُ الصمت،

لأن شرقـكِ ينقله عصفورٌ إلى الغـرب، ويأتي بغربكِ عصفورٌ من الشرق.

لأن في صوتكِ خلاصة الخجل، وفي وجهكِ براءة الشيطان.

لأن السماء، كلَّ السماء، تختصرها تلويحتُكِ من بعيد.

جزيلُ الأجنحة لروحكِ، التي تخفق في كل تحليق، لأنكِ سفرٌ العاشق إلى كل مكان،

لأنكِ عودةُ المشتاق من كل مكان.

لأنكِ أماكنُ مأهولة بأماكن لا تدل عليكِ.

لأن أماكنَ وجودك نفسَها أماكنُ غيابكِ.

لأنني أجهلُ ما أحبه فيكِ أحبكِ، لأمارسَ جهلا يقودني إلى معرفة تقودني إلى غموضكِ.

لأنني أحبكِ أناديكِ من كل مكان، وأعرفُ أنكِ لستِ في مكان، رغم أن كلَّ مكان يناديكِ!

جزيلُ النجوم أيها الشِعر!

صمت الندى

هناك قُبـلٌ تنتظرُ ولادتها، خلسةً عن النظام،

هناك قصائدُ تحبو نحو الفطام على يديكِ،

وهناك أنا المشلولُ، وسطَ موكب الرياح، لأنكِ تملكين أسرار أجنحتها.

أعرفـكِ تشرقين من خلف قضبـان التقاليد، عاريـةً كالفجر: تقـلِبين الأمـواجَ بوجه القوارب، تلاطفين خيـال بحّارة تائهين، وتفسدين على القدر لعبتَه بالمصائر، لكن..

آه، هنـاك ألـمٌ لا يقال، هناك جـزعٌ لا يُكتب، وهناك حبُّكِ الـذي لا يُنجـز كامـلا، مثـل قصيـدة أو كتـاب، أو مثـل فيلـم سينمائي.

حبكِ الذي لا يتمّ، ولا ينفد.

حبـكِ الصامـتُ، صمـتَ الندى، الـذي يملـؤني بالصخب، ويجرحني بعذريته..

عاشقة مبتدئة

كانـت تفاحتـا صـدري قـد كبُرتـا بمجـرد أن لمحتُـكَ تنظـر إليهما، خلسـةً، وأنا أمشي، مُسـدِلة ضفيرتي عـلى ظهري، أتظاهر باللامبالاة للحافز الذي بدأ يدفعني للطيران، مع كل خطوة، كأن تلـكَ اللحظـةَ، تلك اللحظـةَ الخاطفةَ، قد بعثـتْ بأنوثتي كاملةً، حتـى إنني حين عـدتُ إلى البيت، لاحظ الجميـعُ أن وجهي كان متوهجاً ومشرقاً، بكامل نورِه.

لم أعـر لهـم أيَـةَ أهميـةٍ، ودخلـتُ غرفتي، ثـم أغلقـتُ البابَ بإحـكام: خلعـتُ ثيابَ الطفولـة إلى الأبـد، ولأول مرة في حياتي فتحـتُ النافـذةَ، عـلى مصراعيهـا، ثم جلسـتُ خلفها، كعاشـقة مبتدئة، بانتظارِ مروركَ..

الحب بتياره الغريب

لمسةُ العطر، وراء أذني، هي التي فاحتْ، فأغوتكَ: أمرَتْكَ أن تتبعني، وأنا أتجولُ، في السوق، لا على هدى.

كنتُ أشعرُ أنك تتنفسني، ومن خلال امتزاج أنفاسنا، كان يولد شيء ما يُشبه السحرَ، لكنه خفي و غامض، شعرتُ بعذوبة تياره الغريب، يجري في أوصالي، ويكتسحني، حتى ظننتُ أنني ارتفعتُ في الهواء، وأمسكتُ بالغيم، بالمطر وبالنجوم ..

لقد كنتُ في لحظة اندلاع التفاحتين الغضتين، من تراب صدري الخصب، ومازلت أحبو على ركبتيّ، نحو طريق الهوى، مزهوّةً بالفطام..

آه، كم تمنيتُ أن تكون للحب يدٌ سحرية تنضو ثيابي عن جسدي، لتراني متوهجةً كالجمرة، كم تمنيتُ أن تكونَ شجاعاً، أن تخترقَ الجمرةَ، أن تسكنَها، أو أن تمسكها من أجراسها، لكنك كنتَ متردداً، كمن باغتَه المطرُ في يوم مشمس، أو كمن داهمه الخطرُ في لجّة العواطف، حتى أنكَ لم تنتبه لتوقفي المفاجئ أمامكَ.

لا أعتقد أنكَ لاحظتَ ارتعاشَ ركبتيّ، أو ارتجاف يديّ، ولم تسمع ضفيرتي التي همستْ لكَ، بهدوء الندى، وهي تتلوى على ظهري: أحبك..

تفرّق الناسُ وما تفرّق عطره

وقعتُ في حبه عندما قال الناسُ: إنه قادم، وأشاروا إلى جهة ، ليست بين الجهات، حَدَسَها قلبي، لأنه سمعَ خفق قلبه يأتي منهاً.

نطقوا باسـمه، فسـال حنيني، توهـّجتْ الرغبةُ، مثل شـمس كبيرة، و شعَّ جسدي، فسطعَ البيتُ، وانتشر الشعاعُ من الحيطان، من الأبواب ومن النوافذ، حتى غمرَ سومر بأكملها.

كلُّ امرأة مسّها الشعاعُ سقط قلبُها بين يديها، وركضتْ تسألُ عن أخباره الَشطوطَ والأعشابَ والبراري:

تفرّق الناسُ وما تفرّق عطرُه.

ضاعوا في الأسواقِ ، وضعتُ في جَماله.

له ألفُ ثدييْ هذا بورقِ التفاحِ، وأطلقُ الآخرَ عصفورا يحطُّ على كتفه .

تدّعـي كلُّ امـرأة أنـه كان نائـما عندها ليلـةَ أمس، وهـو ينامُ عندي: لم أدعه يبرحُ اًلبيتَ، مذ دخلَ طيفـُه في مدار منامي.

كلُّ امـرأةٍ حملتْ منه وضعـتْ حَملها، و وحدي التي حَملتُ به، فلم يولد بعد.

كيف يكون الجمال صاعقا..؟!

أيها الشِعرُ

اجمعْ جدولَ حنان حبيبتي، عندما يسقطُ شعرَها بين راحتيكَ، واصنعْ منه قصيدةً يجمعُ الناسُ، بإنشادها، أحلامَهم، التي لم يروها في خضمِّ الحروب، لأن دخانا من السهر كان يمنعهم من الطيران، بين الأشجار، التي فيها تبني الطيورُ الأعشاشَ من عيدان مشطها.

من بين قوسي أجفانها قلْ لشمس الكتابةِ أن تشرقَ، وأن تغربَ من حيث يرتفع الرخامُ، الذي بُنيتْ منه عمارةُ نومها..

من مقاطع هدوئها، يا شِعرُ، أعط المكانَ حيزا لمكانه، الذي ينامُ فيه الزمنُ، ويتوقفُ الوقتُ عن الدوران، باحثا عن سرير يستريحُ عليه، في زوارق ساعاتها، وهي تبحرُ نحو فصلِ تأكل فيه البراري من عشب إبطيها، ثم تعودُ، وقد نقصَ من الموتِ عمرٌ طويلٌ، خلاله تفيضُ الحياة، عائدة إلى وكرها.

من جَمالها دعْ الجَمالَ يتعلمُ كيف يبدو صاعقا:

إن مرّتْ فليقتبسْ، من بصيص ظلها، فكرةَ أن يكون فريدا، مثلما تبتكر الشجرةُ شكلَ أغصانها، ومثلما يتسلّق التلُ نفسَه، لتناول الفطور، فوق، مع الرعاة..

من طولها اصنعْ قامة الشاعر، إن أرادَ أن يكون باسلا، كالرمح.

مـن حياكـة سـاقيها علّـمْ الكتابة كي تكـون أنيقة، يحـجُّ إليها الابتكارُ كل لحظة.

وحينـما تريـد القصيدة أن تكـون محفوفة بزائريـن قادمين، من أجلهـا، من مدنٍ بعيـدةٍ، فلتكن مثـلَ حبيبتي: عازمةً على السـير حافية القدمين، فوق جمر أشـواقها، مثلَ قبلة تشتهي كلُّ امرأة أن ترتدي شـفتيها، وهي في طريقهـا إلى الحب، من موعد إلى موعد، في أزقة منسية، أو في غرف رخيصة.

يا شِعر..

اجمعْ من ضفائرِ شَـعرها قليـلا، في قارورة نجمة، وارمِ بها إلى الليل، ليعرف الليلُ كم من ليل شعر حبيبتي حاجته، ليصبح ليلا خاليا من الأشباح، التي تنقل الظلام، وتنشره غيمة بعد غيمة، في سـماء تعاني من جفاء النجوم، فيما النيازكُ تهطلُ بغزارة، لإشـعال الحريق في قلب كل ملاك يرضعُ، من ثدي حبيبتي، حليبَ الأمان بعد أن تم طرده، من الجنة، من دون فطام.

أيها الأزرق لشدة السماء، التي حبكتَ بها سلّتكَ:

أحفظْ ثديَـيْن لحبيبتي سافرا لبعض الحليب، لكنها عادت من دونهما، لأنها لم تجد الفجرَ في مكانه. تركتهما لوخديهما هناك يبحثان عن حلمة أي نبع، وعادت بكل ما تحمل كفّاها من عصارة دمع، ناثـرة، طـوال الطريق، قُبلا تحفـظُ الغزلانُ رائحتهـا، فتتبعها بين

البراري حتى نهايةِ النهايـة، حيث الصرخةُ، بعـد الصرخةِ، تأتي راكضة لسماع أصدائها..

لملمْ،

يا شِعر،

ترنيمة الحبيبة، لتعمَّ الكائنات مساءً.

إجمعْ بين الصخرة والصرخـة، ودعْ حبيبتي تتحول بسحركَ إلى طـير، ينقل المنامات من سرير إلى سرير: دعها تضع تحت وسادة كل نائم حلما يأنس إليه المكان، فيحلم بامرأة، يصنع الشعرُ من جدول حنانها بيتا، يعيشُ فيه العصفور مع النسر، و لا تفرّق فيه الصرخة بين نفسها وبين الصخرة، حين تقفان، وجها لوجه، أمام مرآة روحيهما.

يـا حبيبتـي، بعـد كل عناق، لن أغسـل شـفاهي، لئـلا تنزلق قبلتكِ، لكنني بعود ثقاب تتركينه قرب سـجائري، أشـعلُ ظلام الظلام في الكون، سائرا بين نجمتين: قبلتكِ وعود الثقاب، الذي تتركينـه عـادة، عندما يخلـف القمرُ وعـده، فلا يـشرق إلا وأنتِ عائـدة بقوتٍ من الحطب، هو جسـدُكِ، تُشـعلينه تحت شرشـف الخيـال، فيهطـل القمـرُ بكامله عـلى السريـر، وتنزلـق القبلةُ من مكانهـا، لتحل محلها قبلـةٌ أخرى: تكبر حتى تصـيرَ زورقا، نبحرُ فيـه تحت ضباب لذةٍ لم يرسـم خرائطها أحدٌ، لنعـرف أين أماكن وجودهـا، فيما يصير عـودُ الثقاب مثلَ عامود كهربـاء، نقرأ تحته، كما في الطفولة، كم المسافة بين نهديكِ وأصابعي.

ساعتَها يصبح الكون كائنا مثلنا، نفركُ عن روحه كآبة مجهولة جاءت مع الريح، تاركة ورقة هنا أو هناك، لم يحلّ طلاسمها سوى الشعر، لكنه لا يقول ذلك إلا لمن هو نفسه لا يقول..

أيها الشِعر

لا مسافة بين نهديها و أصابعي إلا أنتَ، عندما يتوقف نبضُكَ عن المرور أمام إشارات قلبها، أو يكفُّ حضورُك أن يظل ملعونا، فلا ينثر ريشه في ممرات رأسها المكتظ بهواجس النوم في حنجرة الغصة، التي ابتلعتْ حتى الغصةَ من شدة عمقها.

اختصرْنا يا شعر بكثافة معناك:

إننا كلمة تجهل معناها من دونك.

كيف يمكن أن تكون هناك مسافة داخل المسافة؟

وما السر يا شِعر إن غبتُ أو غابت،

ومَن اخترع الغياب؟!

النداء العميق

أتأمل في اضطرابكِ الغامض، الذي يعتري أعمق أعماق دخيلتكِ، وأنتِ تخلعين عنكِ جلبابَ الترددِ، ثم تتبعين النداءَ العميق لأنواركِ: تمشين إلى أين ما تقودكِ الشعلةُ في النار، فتدخلين لعبة الطيران فوق الجسد، التي تكسر الأقفالَ، تفرك الصدأ عن المفاتيح، وتقرر المصائر، بروحٍ لا تأبه بالفوز أو بالخسارة، فما أنتِ واثقةٌ منه: أن الحب يحتاج قلبا ضالعا في الذنب، لفرط اللؤلؤ، وهو يختلط بلمعان سريرتكِ.

هذا ـ وحدَه ـ يبقيكِ على أهبة العيش في سلام يشوبه الاشتعالُ، على متن الريشة، التي تعرفُ عند أي طير يرفرفُ الجناحُ الوسيمُ، ومثل سنبلة تنبتين عليه، غير عابئة بشيء سوى بعاصفتك الداخلية، التي تُربك ـ في هبوبها ـ أعتى الرياح، و تُربِك ـ بإعصارها ـ أشدَّ العواصف..

كمهاجر مخذول

ينقصني أن أحبكِ بشكل يجعلني متكاملاً مثل قلعة، أو بشكل يمرّغنـي باللامبالاة، ثم يهدم كبريائي، كما يتهدم سـياجُ مدينة في ساعة نهب.

أنْ أحبكِ يعني أن أتدهور، أنْ أسمو، أنْ أتطور، أو أنْ أتلاشى فيكِ، كما تذوبُ لحظةٌ عابرةٌ في مياه الزمن.

أن أحبـكِ يعني أن أحتلكِ كمحبوب، أو أن أضيع في خطوط يديكِ كالحظ الخائب، أو كمهاجر مخذول..

ينقصني أن أتجاوز الثنائيات والمفاهيم، حين أحبكِ:

ينقصنـي أن أمسـكَ الـوردة والخنجـر ومـا بينهـما، في نفس الوقت!

خرّبتِ أخلاق قصائدي

قلبتِ طاولـةَ الكتابة، فتحـتِ القاموسَ، وأفرغـتِ صفحاته مـن الكلـمات على الورقـة، ثم نفخـتِ الورقـة، فسـقط العالمُ في سـلة المهمـلات. سـكبتِ النورَ عـلى الفـراش، فتحـتِ النافذة، وقلـتِ للحريـة: " هيا بنا نلعـبُ " ثم رميتِ صنارة شـفاهكِ إلى قبـلات مكبوتة في قعر خواطري. مزّقتِ الليلَ بقميصكِ المغمور بالنجـوم، قلـتِ: " لا أحبـكَ أو أحبـكَ، مـا الفـرق؟ " ودخلتِ عميقا في جسدي، مثل طعنة حاقدة.

هكذا خرّبتِ أخلاق قصائدي..

كما يضيع الماء في قطرة ماء

أرى صوتكِ أزرق.

أسمعُ اسمكِ أبيض.

ذلـك عندما يُعيرني صدرُكِ عصفوريـه، فأطيرُ بهما نحوكِ ولا أصـل، لأنني أكون قد وصلتُ قبل أن أصـلَ، لأن بدنكِ كان قد حلَّ في بدني، مثلما حلَّ، في فمي، لسانُكِ: ألفظُ به اسمكِ، فيصيرُ كلُّ ابيـضٍ ازرقَ، ويصـير الأزرق ابيـض، أو يضيـع الأبيض في الأزرق، كما يضيع الماء في قطرة ماء.

فمك

حفيفُ غرائزكِ يأخذني إلى حدائقكِ المسحورة، حيثُ فمُكِ الذي يتقنُ غرس القبلة تلو القبلة، فيخرج البستانُ عن طوره، ليصير شجرة. الشجرةُ تصير غصنا، ثم ينقسم الغصنُ بين الورقة والثمرة. بفمكِ تقدّمين لي الثمرة، وبفمكِ، على الورقة، أرسمُ فمكِ.

فمكِ ينتظر أن أكون شريكه في خلق أطوار أخرى: طبقات أخرى من الأرض، لتنبتُ شجرة الرغبة، عالية جدا، لكنها سهلةُ الصعود مثلكِ، وعصيةٌ على السهولة، مثلكِ أيضا.

وكر الزلزال

ضحكـةٌ منكِ كافيـة لتنهار صحة الألم، وأنـت تمزقين الورقة، غـير عابئة بالمعنى ولا بالمبنى: تحرّكين بيادقَ لغة أخرى، تكسرين المجاز، تخترقين الاستعارة، ثم تدخلين الحياة، الحياةُ التي ليس لنا فيها من مكان: تمزقين هدوئي، وتفتحين أزرار القميص: تحفرين جسـدي، وتدخلين إلى وكر الزلزال: قلبي، حيث الأمانُ والهلعُ، يلعبانِ بمصيري.. هناك.

حفنة من الزقزقات

رأيتُكِ، في منامي، تخلعين قميصكِ فتهربُ، من صدركِ، عصافيرٌ كثيرة. كان جمالك مرعباً، وأنتِ تمشين عارية في الغرفة: تفتحين النافذةَ، ثم تلتحقين بالموكب، الذي سافر إلى كل مكان..

كان مناماً عصياً على التفسيرِ، أو الفهمِ، فبعد أن استيقظتُ وجدتني متوسّداً قميصَكِ، وفي راحة يدي حفنةٌ من الزقزقات!

حمى الحب

تحت وطأة حمّى الحب الحارقة، توهمّتِ أن القمرَ يريدُ أن يراكِ، فتعرّيتِ أمام المرآة: شعّ من جسدكِ نورٌ: غمرَ المشتاقَ والغريب، وشملَ الليلَ والصباح وبساتين الطفولة، والشوارعَ والتظاهرات والمنـافي والسـجون وحـرس الحدود، ثـم فاحـت التلويحاتُ من النوافـذ، و دخـل العيدُ، العيدُ الـذي لا موعدَ لـه، أو هلالَ، من جميع الأبواب، وعمّني الشعرُ بابتسامته الظافرة..

أخافُ من مرآتي أن تكسرَ جمالكِ

أنا الفزَعُ والخرائبُ، وأنتِ الطيرانُ.

ينبغـي أن أنظّفَ لحية فوضـاي، أن أنيرَ أعماق الشـمعة ، وأن أحلقَ لحية حرّيتي، فلستُ ناصعَ البياضِ، كما جوهركِ.

أخافُ عليكِ من اليأس الذي نصبتُ، بين ضواحيه، خيمتي، و من الريح التي سأكونها لو اهتزتْ سعفتي بين عيدان مشطكِ.

أخـافُ أن يخطـفَ رعبـي غبطتَـكِ بالمطـر، و نشـوتَكِ عندما يصدح الصباحُ في حنجرة بلبل.

أخافُ

من مرآتي أن تكسرَ جمالَـكِ.

مـا كنـتُ هكـذا لأن الله خلقنـي مـن أربع جهـات، وجعلني صافيا، كقلب الجمرة.

مـا كنـتُ أشـعثَ القلبِ، مثـل باقة شـوك، ولا حـافي الروح يرتدي جسـدا مفخخـا بالكهوف، لكنهم أعطـوني، من التاريخ، الصحراءَ والسيفَ، وأخذوا الوردةَ.

أيتها المرأة الحمامة

لم يعلّموني كيف أرسمُ ريشكِ في المدرسة: مسحوا هديلكِ المكتوب على سبورة الصف، عندما كان العالم بريئا، ورسموا بدلا منه الحرابَ على زجاج النوافذ.

كانوا كلما كسروا نافذة، بنشازِ أناشيدهم يهتفون:

لم نخسر الحربَ بعدُ، لقد خسرنا معركة، حتى، ذات يوم، ألبسوني خوذةً، لئلا تحلّق هواجسي بالقرب من أشواقكِ، وكما لو كنتُ قد خرجتُ من رحم دبابةٍ، أجبروني أن ارتدي المعدنَ.

صاحوا، وهم يطلقونني كالوحش في البراري: اطلِ قلبكَ بالطين، لئلا تراكَ المرأةُ.

قالوا: هنا نقطة ضعفكَ، وهم ينقبّون فيه عن بصيص دفئكِ، لأنهم رأوني أحلمُ بأني أحبكِ، قبل أن أولد، فأصيرُ بشرا.

أما الثكناتُ فقد لقنتني أنكِ كائنٌ ناقص العقل، وأنَّ عليَّ أن أفترسَ حدودَ تحليقكِ بعيني نسر، لأنكِ قد تكونين عدوا متخفيا.

صرتُ أخافكِ.

أخافُ حدودكِ، لأنكِ حدودُ حنان الأمهات الذي لا يُحدُّ. لأن كمشةً من ترابكِ تقود العميان إلى نورهم.

صرتُ أحشو بندقيتي بالمواعظ، ومسدسي بالحكمة، مع ذلك لم أنتصر، ولو مرة، في حياتي، لأنكِ الطيرانُ، وأنا الفزَعُ والخرائبُ.

كنتُ أعرفُ أن ظلكِ هو الموجة،

وأن الله خلقني كي أعومَ في حوض حنانكِ.

كنتُ أدركُ أن في تقاسيم وجهكِ بلاغةَ الحزن،

وفي دموعكِ اختصارَ العصور.

كنتُ أرى، في خطوط راحتيكِ، بيتَ المساكين، وفي صدركِ تسيرُ الجداولُ التي في مجراها يلبط الأمانُ.

كنتُ أشكُ في نصاعتي، لأن الظلام بكامل قيافته كان يتجوّلُ في داخلي، لكنهم درّبوني على أن أجرجركِ، إلى حصة الرمل، التي من أجلها صرتُ ساخنا، كالغبار.

كلما رأيتُ قمرا أطلقتُ عليه الرصاصَ، وهيأتُ المائدة، ليقاسمني الليلُ غنيمتي من السُخام.

كلما ومضتْ نجمة في طريقي، أطلقتُ صقرا ليلاحقها مجرةً بعد أخرى.

هكذا طاردتكِ من ضوء إلى ضوء، إلى أن نفدتْ المجرات، ولم يعد هناك شيء اسمه الشمسُ أو القمر، لكنكِ لبثتِ مشعة في الأرض، حتى انكشفتْ لي نفسي، ورأيتُ كم هي موحلة، فتقيأتها دفعة واحدة.

لم أنظفَ بعد.

ولأن الروح من فحم، لم يعد ممكنا أن ألمسَ الدرَّ، كما إنني صرتُ أخافُ أن أجرّكِ إلى هاويتي.

أخافُ أن أجففَ مياهكِ، أن أتسلى بتحوير أمواجكِ إلى صفعات، ورعاة تلالكِ إلى جواسيس.

أخافُ أن أحوّل الناي إلى ناظورٍ، وترنيمتَكِ إلى نشيدِ حربٍ.

أخافُ أن أدوسَ بأقدامي أرضَ روحكِ، كما لو كنتِ ساحة معركة، كما لو كنتِ قرية أسدُّ عليها الهواءَ، وأخنقُ الممرات.

ها أنتِ في القصيدة، وها إني أجهلُ في أية جملة أخبؤكِ، لأن قنبلةً ما، نَسيتُ تحت أيِّ سطر دفنتُها، ستنفجر فجأة.

أخافُ أن أعيشكِ، كما عشتُ في اللاعيش، وفي الملاجئ.

أخافُ أن أخونَ غيابَكِ، فأخسرُ قسمتي الوحيدةَ من الأمل، أو نصيبيَ القليلَ من النصاعة.

كم أريد أن ألوذَ بوجهكِ، وهو ينفجرُ كينبوع في مخيلتي.

كم أريد أن أغتسلَ بقيعان نومكِ.

كم أريد أن أطيرَ في هوائكِ الطلق، مثل ريشة من دخان، لكنني ارتجفُ من الذعر كلما نظرتُ إلى بهائكِ في المرآة، فالجمالُ يصير مرعبا إن مات في الكائن قلبُه.

أخافُ أن أقول: أحبكِ، وفي فمي فتيلُ قنبلة.

أخافُ أن أقودَ أقدامكِ، وعلى الرصيف أغنية تحتضر.

أخافُ أن أنام على سريركِ، ومن مسام جسدي تشع أبواقُ الثكنات.

أريد أن أعودَ سليم القلبِ،

كما في الطفولة،

فلستُ جميلا كما ينبغي.

لا أريد أن تحبيني وأنا محشوٌ بالقتلى.

أخافُ، أخافُ

أن تحملي مني وحشا..

كآبة غرامية

مازلـتِ كما أنتِ، في الجوهر من هذا الطيران، وفي مركز العمر الذي أشبعه الماضي هجراتٍ ومنافي.

مازلـتِ قـادرة عـلى شـلّ الكراهية، وعـلى أن تكـوني نظيفة، وهادئة جـدا كقطرة الندى، رغم أنكِ لم تكفّي بعد عن طرق بابي بالريـاح وبالعواصف، فأتجمّد من الرّعب في منحدرات ضميرك الملتهب بمشاعر متناقضة: أن أتشاجرَ مع الحزن، ومع الفرح، أن أصاب بالعطب وبالقوة، وأن أتشـظى: أن أكون، في كل شـظية، عاشقَـكِ الملطخَ بكآبة غرامية مرحة:

تتبارى النايات في إيوائي ثقباً بين ثقوبها، لكنني مجبول على أن أهرب منها إليكِ، حيث لا أغنية تقبلني شاعراً، ولا لحن.

كنتُ بحاجة إليكِ

كنتِ وحيدة في الكلمة، وكنتُ أنحتُ شِعرا يؤنسكِ، لكنني كنتُ أسيرا.

كنتُ أريدُ أن أقول: إن الشاعرَ يقعُ أسيرا في قبضة أسيره.

كنتُ أريدُ أن يبقى الشاعرُ في قبضة الأسر، حتى يُطلق من الأسر سراحَ الأسر، ويشطبُ على الحرية، من أجل حرّية متحوّلة.

كنتُ أريدُ الشِعرَ حريةً، وأريدُ الحرية شِعرا، وكنتُ أريدُ أن يبلغا الحبَ.

كنتُ أريدُ أن أبلغَ الحبَ الذي يعمّ الجسدَ بالحب، ويغسل الحبَ بالروح وبالحب.

كنتُ أحبكِ بالحب وبالحرية.

أحبكِ بالشِعر، أحبكِ بالجسد، وكنتُ بحاجة إليكِ.

كنتُ أريدُ أن أقول:

لا يقتلُ الشاعرُ نموذجَه عندما يكون نبعا لا ينضب.

يأنسُ الشاعرُ بما لا يُؤنس العالمَ، لأن عينيه مدرّبتان على الشك.

لا يأسر الشاعرُ السهولة.

وأنـا كنـتُ أنوي هـذا عندمـا اعتليـتُ المنصـة، فتلعثمتُ ولم أنطـق، لأنني رأيتُني قادما من مـكان آخر: رأيتني خارج الوقت، وغير صالح لحنان فوق العادة.

كنتُ أريدُ أن أشـيرَ إلى تلك الرائحة في جيفة المعرفة، إلى ذلك السُـخام في باطن اللمعان، إلى ذلـك النباح في حنجرة العندليب، إلى أفـكاري عن اليأس، ويأسي مـن الأفكار، و كنتُ بحاجة لأن أهاتفكِ.

كان حزني عليكِ عميقا، كلغز.

كان حزني عليكِ، كطير أخذتْ العاصفةُ أعوادَ سريره.

كان حزني عليك كشجرة تينٍ، كشجرة تينٍ هجرها الماءُ.

كان حزني عليكِ كوتر مقطوع.

كان حزني عليك كأغنية، كأغنية حزينة، كأغنية حزينة لا تُحزن أحداَ.

كان حـزني عليكِ عظيما، عظيما جدا، كسريـر عليه تنام امرأة، طافية فوق طوفان دموعها.

كان حزني عليـكِ، كنافذة مفتوحة، كنافذة مكسـورة، كنافذة أغلقتْ على نفسها بهواجس من زجاج.

كان حزني عليكِ يتهشـمُ، يتهشمُ كزجاج نافذة ضربها إعصارٌ عاصف من الحسرات.

كنتُ أريد أن أصرخَ:

كلّ صرخة تطالب بالحرية، تملأ العالم بالجدران.

كنتُ أريدُ أن أروي لكِ قصة الحب، واغني قصيدة الحرية:

كنتُ أقرأ عليكِ القصة، وهاتفُـكِ مغلقٌ.

كنتُ أسمعُني، وأنا أخبركِ:

أن شاعرا بسيطا يحبُ امرأة بسيطة.

أن امرأة أشعلتْ حريقا، ثم دخلتْ فيه.

أن شاعرا دخل ليبحثَ عنها، فلم يجدها، فصار النار.

كان هاتفكِ مقفلا، وكنتُ أريدُ أن تفهمي:

ما في الشعلة إلا النار، وما في النار سوى الشعلة.

كنتُ أريدُ أن تعرفي أن المرأة هي النار، وأن الشاعرَ هو الشعلة.

أن المرأة هي الشعلة وهي النار، وأن الشاعرَ هو الشعلة وهو النار.

كان هاتفـكِ مغلقاً، وكنـتُ أريدُ أن أخبركِ أن المرأة هي أنتِ،

وأنني كنتُ بحاجة إليكِ، لأن الشاعر هو أنا.

كان قلبي يرنُّ، لأن هاتفكِ مغلقٌ.

بقي هاتفكِ مغلقاً إلى الآن، وإلى الآن بقي قلبي يرنُّ..

رائحة المطر

أستنشـقُ رائحـةَ الأرض بعد المطر، وأفكر فيـكِ، رغم أننا ما مشـينا يومـاً معاً، مـا تصافحنا، ولم نجلس عـلى مصطبة، أو تحت سـقف واحد، فكل ما بيننا هـو هذا الهذيانُ العاطفيُّ على شـبكة الانترنيت.

آه، هـذا الهذيـانُ الذي يفضحنـا أمام بعضينـا، يؤكِّدُنا خائبَين أبدا، إذ مهما هطل المطرُ لن نبتلّ به، ولن تشـع رائحةُ العشـب من جسدينا.

مهـما سـقط الظـلامُ لـن يعـطَّ نـورُ قلبكِ: لـن تكـوني لي، لن تقاسـميني السـهرَ تحت ضوء قنديل في الأزقة، لـن أنبتَ إلا مثلَ غصّةٍ في حنجرتكِ، مهما غنَّيتِ، ولن أكون سوى خائبكِ الأرعنِ، الـذي لا أحـدَ يهتم به، والـذي يعتقد أنكِ خلفَ الشـبابيكِ كلها تنتظرينه، عائداً إليكِ بالغيمِ، بالعشبِ وبالمطرِ..

لستُ لكَ يا حبيبي، لستُ لكَ

باعـوا أجنحتـي إلى الغربـان، فلـم أعد أطـير مع الموسـيقى: لسـتُ لكَ يا حبيبي، لسـتُ لـكَ، الملاكُ يأمـرني أن لا أفتحَ نافذةً دون علمِـه، وأن لا أنظـرَ من ثقب الباب إلى قلبـي، الذي زرعته وردة حمراء في طريقك، فأنا الآن امرأةٌ صالحةٌ جدا: لا أمشي تحتَ المطـر، متأبّطـةً وجهَكَ الحزينَ، لأنَّ الملاكَ شـيّد لي بيتاً ليس فوقه سـماء، كما إنني لا اسـتطيع أن أرسـمَكَ على حيطان غرفتي، لأن غرفتي محروسةٌ بالعراء.

أنـا امرأةٌ بلا جـدران: لا نافذةَ أكتبُ عليها اسـمكَ فتطيرُ منه فراشـاتٌ، كـما إن الشـيطانَ، رسـولَنا النبيـلَ، لم يعـد يـزورني: لم يسـمحوا لي أن اتـركَ له عنواناً، ليخبركَ: إننـي لم أعدْ لكَ، لكنني رغـمَ ذلـك، وفـوقَ ذلـك، سـأبقى أعبـدُكَ في الـسر، فأنـا امرأة صالحة، امرأة موقنة أنَّ جحيمَكَ هو فردوسي، وأنتَ النارُ، ناريَ الرائعةُ، التي سوف أطيرُ نحوَها، مثلَ فراشة، حيث سألتحِمُ بها، وأحترقُ لأكون..

نقية مثل دمعة

لم أقصد أن أحبكِ: لقد لجأتُ إلى جَمال الأسى في حزنكِ الأنيق، هربـاً من المرارةِ، بعد أن خذلتني المرأةُ التي أحبُّ وطارتْ، بخفةِ الريشة، في هواء رجل آخر.

كانـت خيبتـي قد هيّأتْ لـكِ مكاناً آمناً في قلبـي، الذي عاش صراعَـه الطويلَ، مـع العاصفة، بهمّـةِ نسر يحـاول أن يلتقط ظله السـاقطَ عـلى الأرض، ولم أنجـحْ في ذلـك إلا بعد أن سـالَ دفقُ حسراتكِ في أودية حياتي، وكشطَ الأطيانَ من الداخل.

لقـد أحببتـكِ، دون أن أشـعرَ، أو دون أن أعـرف أني أحبكِ، لأنـكِ كنـتِ نقيةً مثل دمعـة، كما إنـكِ وقعتِ في حبـي، دون أن تعـرفي أن قلبـك قد اسـترد يقظته، بعـد أن خذلـكِ الرجلُ الذي أحببتِ، والذي خانكِ وهرب، مع امرأتي.

الهيكل العظمي للأفكار

يتصاعـدُ الدخانُ من سـيجارةِ أمـكِ، وهي منهمكـةٌ بالكتابة عـن الحبّ، العدالـةِ وحريةِ الزواج، فيما أنـتِ، في زاوية غرفتكِ، تنتظريـن متى ينشـقّ الجـدارُ، فيظهـر فارسُـكِ المخلِّـصُ، الذي انتظـرتِ منـذ أقـدمِ العصور، لكـنَّ دمعةً ما تسـقط: دمعـةٌ أكبر حجماً من العالم تسـقطُ، فجأة، من السقف، ثم يفور التنورُ: تهبُّ العاصفـةُ، وينبجـسُ المـاءُ من شـقوق الحيطـان، فيجـرفُ صورَ القبيلة، السـوطَ، الأقفالَ والمفاتيحَ، ثم يخلع الكتبَ من الرفوف، فينكشـف الهيكلُ العظميُّ للأفكار، وتطفو الصحفُ، المقالاتُ، والطاولـةُ: ينكفيء الحِبرُ عـلى التقاليد والأعراف، ويهزُّ الإعصارُ شـجرةَ العائلـةِ، فتتهشـم الأغصـانُ، وتتسـاقطُ أوراقُ التـوت، البنادقُ والخناجرُ، و..

ـ لماذا فتحتِ حنفية الماء، أيتها المجنونة؟

تـصرخُ أمُّكِ الطافيـةُ فوق الطاولة، وحريـةِ الزواج، والحب، والعصيان..

ـ ألم أمنعكِ من البكاء؟

و أنتِ، في زاوية غرفتكِ، تنتظرين متى ينشقّ الجدارُ.

المغول

لا أفكرُ في رحيلكِ، ولا في محاولاتي، من أجل بقائكِ كمجنونة، مجنونتي التي أُحبّ، ولا أرغب في أن تعودي، لنستأنفَ اللعبَ في غابة جسدينا: كنا نصنعُ أعشاشاً من خواطرنا، ونستضيفُ الرغبةَ بهيئة عصافير، فتولدُ زقزقاتٌ وقبلاتُ نملأ بها جيوبنا، دفاعاً عن حقنا في الحياة، حيث عائلتُكِ التي تشحذُ سكينَ الغضب بانتظاركِ، وحيث منجنيقاتُ المغول كلها تقصفُ أحلامي بالحجارة.

لا أفكر في أن أكونَ السدَّ، ولا أن تكوني الطوفانَ، لأنّ صيرورةَ الحب لن تكتملَ إلا في هذا المخاض، حيث يختلط نحيبُكِ، في آخر مرة، بضحكتي الساخرة، المفتعلة والهابطة..

لمعانُ غيابكِ يدلُّ على أنكِ اللؤلؤة..

ليس عليَّ أن أتذكركِ، فالنسيانُ لا يسع طوفانَ جمالكِ، الذي يقتلع السدودَ، كلَّ السدود، التي تحصّنتْ خلفها قواربُ ذاكرتي.

لا لطفولتكِ أو ليأسكِ، ولا لتحطيمِكِ زجاجَ نوافذ النواميس، مكانٌ إلا في هذا الألم، الذي أخوضُ في أيامه العميقة، فيجرفني إلى تقاويم ليس فيها إلا أنتِ، إلا انشقاقكِ عن العائلة، إلا هروبكِ الذي لَا ينتهي بتمزيق الكراريس، بل بالجلوس على السياج، ورجم الملاك، الذي عبثاً يحاول رفعَ غبارِ قدميكِ عن صفحات كتاب الطريق المؤدي إلى خارج المدرسة.

تحفرين وجودكِ في وجودٍ لا وجودَ له، إلا خلف أسطورة المرأة، التي تولد في قصائد غير مكتوبة، لكنها تقود أعنّةَ الخيال إلى أرخبيلكِ المحفوف بالأمان والهلاك معا.

لا أحدَ، حتى أنتِ، يفهمُ أنَّ نسيانكِ يحرمني امتيازَ أن أكون خاسرا يليقُ بطراز فقدانكِ الغامض، فقدانكِ الباهر، عندما ضعتِ في العالم، عندما أشعلتِ الحريقَ، وأفنيتِ نفسَكِ فيه، مثلَ شرارة:

تلاشيتِ فلم يعرف أحدٌ عنكِ شيئا إلايَ، أنا الذي أعرفُ اللاشيءَ عنكِ، وهو كافٍ لأن أنفذ من خلال الاحتمالات إلى

أشـكالكِ المؤجلـة: أشـكالكِ التـي تجعل مـن الكتابةِ مجـرّةً آهلةً بكواكـبَ من اليائسـين: أولئك الذيـن يصنعون الربيـعَ للوردة، وهم في طريقهم إلى الخريف.

ذلك ما يؤهلني عاشـقاً يعبثُ بمصيره الـذي فقدَ مغزاه، فإمّا أنتِ أو أنتِ، ولا ثالثَ إلا هذا الشـتاتُ، الذي يجدلُ مني شاعراً مهمِـلاً، يكتبكِ في الحانات، ويقرأ قصائـدَه على حزانى يعرفون، أكثـرَ منه، أنكِ ما عـدتِ له، ومع ذلك ينصتـون إليه، لأنه يبعثُ نداءً خفياً، في أعماقهم، إلى السطح .

ذلـك مـا يجعلكِ عنصراً غـيرَ مكتشَـفٍ، لأن في محيط روحكِ قاراتٍ أخرى، تعجزُ عن الوصول إليها زوارقُ البلاغة، ويرتبكُ أمام خضّتها محيطُ المجازات.

العالمُ يحكُّ رأسـه حائرا عندما تمرّينَ، ومـن جميع النوافذ تطلُّ رؤوسُ عشـاقٍ انتظـروكِ كإلهةٍ تأمر السـاعاتِ أن تُعلنَ الحبَ في خوابي الزمن.

كان المـوتُ يقف على مقربةٍ منكِ، وكنتِ فخورةً أنْ تمنحيه برهـةً من اللعـب، وهم يضعونكِ عـلى الحد: بـين أن أُقتلَ أو أُقتلَ، ففضّلتِ أن تذبحي قلبَكِ بموسـاكِ، عسى أن أبقى حياً فيه.

لماذا فعلتِ هذا، وأنت الأعرفُ بي:

الأدرى أنني أملكُ من الشجاعة مقدارا يجعلني أقبلُ بالهزيمة؟!

لِمَ أدميتِ بياض هذا الكتاب بدمكِ؟!

كان الصدقُ يخافُ صدقَكِ، وأنتِ تحرثين الأرض: ترشين بذورَ الاضطراب تحت خطوات الراعي، الذي يتملقه القطيعُ.

ـ الشيطانُ أولى بالورد، عندما نكتشفُ عطرَ وجودنا من خلاله.

لا حرامَ في العالم: الحرامُ الوحيدُ أن لا أحبكَ.

لا أبَ إلا البحرُ، وأنتَ تعوم فيه من خلالي، وأغرقُ فيه من خلالكَ.

لا أمَّ إلا تلك الشجرةُ، التي أتسلقها، لأنكَ تجلسُ هناك في داخل الثمرة.

كنتِ ترسلين قبلة عبر الهواء، لتولد الحمامة.

كان غناؤكِ يأسر العصفورَ، ويجعل للعاصفة ريشاً.

كانت أنفاسُكِ تكسو الصباحَ بعاداتِ الندى.

كانت نظراتُكِ تلاطفُ السائرين في نومهم، وتشطفُ جروحَ الحزانى.

لا يمكــن إقصاءُ حضوركِ في حياتي إلا بإقصاءِ حياتي، كما لا يمكنُ أن أحدَّه بالسـنوات، فلسـتِ الحاضرَ، ولا الماضيَ: أنــتِ الوقتُ الذي لا تشـير إليه السـاعاتُ، و لا يرنّ لقدومه الزمــنُ، فليس لوقع أقدامكِ من رصيف، ولا لجلوسـكِ من مصطبةٍ.

خارجَ الجميع أنتِ، خارجَ التسمية.

آه، لم يكن امتزاجنا ينحدرُ من هذا الحيّز الضئيل الذي يطلقون عليه الحب، بل هو من التشرّد في الأغاني، من النوم بين صفحات الكتب، من المشي في عروق الكلمات، و من عبث وجودنا ضالعين بالإثم أو بالطهر.

ولهُـكِ بي، ومـن ثم شـغفي، هـو من جنسـكِ المتعـذّر معرفةُ انحـداره، فـلا أصـلَ إلا أنتِ: لا قبيلـةَ إلا أنـت، ولا أعرافَ إلا قفزاتُـكِ الكونيـةُ بـين الشِـعر والموسـيقى، بين المطـر وصيحات البرق، وبين مفاصل الجمرة التي لا تأكل إلا نفسَها.

مادام التيهانُ هو مَن دلني عليك، فسيأخذني إليكِ ثانية.

التمزقُ، وحده، مَن سيجمعني بكِ.

لا مكانَ لأقدامي إلا حافةُ الهاوية:

هاويةُ جمالِـكِ، أو جمالُ هاويتكِ.

أحبكِ

لأن هـذا هو الشـفاء الوحيد من مرض الوقـوع في حب امرأة أخرى، ففي ذلك خيانة كبرى للجمال وللحب.

هكـذا يقـودني اختفاؤك إليـكِ، فليس ثمـة ما يـدلُّ على أنكِ اللؤلـؤة إلا لمعانُ غيابكِ، وليس ما يثبتُ أنـكِ المرأةُ، التي أفنيتُ حيـاتي في حـلّ لغزهـا، إلا لغـزُكِ وأنـتِ تـتـشـعبين في طرقـي: تفتحين كلَّ باب أطرقُه بحثا عنكِ، وتشـيرين إلى هناك، حيث لا يمكـنُ أن أقابلَكِ إلا في وجود يتعذر العثـورُ عليه في كل مكان، سوى الشِعر..

سألوني الناس عنكَ يا حبيبي

كان عطاسكِ يأتي من أريزونا، عبر الهاتف، لأنه موسم الزهور، وكنتُ أسحب لكِ منديلا من العلبة، واقفا تحت شجرة في كركوك، لكنكِ تقطعين قلقي فجأة فتغنين: (سألوني الناس عنكَ يا حبيبي) فيشملني صوتكِ بالرحيق، وبهجرة الفراشات.

كان ممكنا أن نستمر على هذا المنوال فنتحد: ننقل حبنا الافتراضي من وهمه الجميل إلى جحيم الواقع، فيكون لنا بيت تنسفه المفخخاتُ، أو أبناء غامضين يُقتلون في كل مكان، لولا أنني أؤمن بأشياء لا أعرف ما هي بالضبط.

هكذا شفيتِ من الزكام، صار لك أولاد من رجل آخر، فيما واصلتُ حياتي واقفا، في كركوك، تحت مظلة الهاتف، أغني في الفراغ كالمجنون (سألوني الناس..) أو أكتب أشعارا عنكِ، لا تقرأنيها، لأنكِ يئستِ من إصلاحي، دون أن تفهمي أنني منذورٌ لمثل هذه الانكسارات التي لا معنى لها، وأنّ جلّ ما كنت أصبو إليه، حين أحببتكِ، هو أن أراني طافيا فوق بحر الألم، فوق هذا الشِعر، الذي يوقظ القلبَ من غفوته، ويحتفي بالخسارة.

المأزق

تتواريـنَ خلف باب ما، تقفـين بكامل أناقتك أمـام المرآة، ثم تسـيرين كاشـفةً عن صـدركِ لأنفاس الهـواء الطلق، غـيرَ مباليةٍ بالـورد، بالنغـم، باليـأس أو بالفـرح أو بالشـوك، الـذي ازرعُـه بمهارة في طريقكِ.

أشـعر بالمـأزق: أن أحبكِ، أن أتلوّى بـين عواصف المجازات والاسـتعارات، مخْلِصـاً لفكرتي عنـكِ، فيما أنت خلـفَ بابٍ ما، أمامَ المرآة، تهزين كتفيكِ، وتمشين نحو أهدافكِ، مثلَ قطار يحمل في مخيلتـه ملايينَ المحطات، لكنْ لا محطةَ ينتظركِ فيها مسـافرُكِ المختارُ .

متاهة الخيال

أرسـمها نائمة عـلى سرير، والتفتُ عنهـا إلى اللوحة، فأجدها جالسة على مصطبة. أصيحُ بها: "كوني عاقلة، لأنني لابد أن أقتل نموذجكِ، كي اعبر إلى أفق آخر" فتبتسـمُ بمكر، ثم تقوم: تأخذ بيـدي إلى السريـر، وهنـاك.. بعـد أن انتهي من خلع ثيـابي: ارفع الشرشف، فأجدها نائمة مع رجل آخر.

كم يجرحني ذلك؟

أهزهـا غاضبـا كـما شـجرة، وأصيح بهـا: كفى عبثـا، فتحطمُ اللوحـة، و تنسـل نازلـة إلى الأرض، تهـز كتفيهـا، تمـشي، تفتـح الباب، وتخرج، تاركة إياي وحيدا في متاهة الخيال.

الملف

أتدفأ ببصيص من الفرح في رسائلكِ، التي حذفتُها في لحظة يأس، وأسرحُ في مراعي أكاذيبكِ الرائعة، التي كانت تسعى إلى إطلاق شرارة الحب في قش حياتي الرتيبة.

أندهشُ من عبقرية اختراعكِ للأمل، في جعلي متوهجاً: أنتظر ردَّكِ الذي لا يأتي ممهوراً بالفرح، أكثرَ الأحيان، إلا بعد سنة كاملة، ومع ذلك أطيرُ به، وعلى شفتيّ ابتسامةُ الظفر!

تراودني فكرةُ أن استردَّكِ مثلَ ملفٍّ ضائعٍ، أن أحبكِ، وأن أغضَّ النظرَ عما كنتِ تكتبينه إلى يائسين آخرين مثلي.

أفكرُ في أنكِ ضروريةٌ، بل أساسية لنا، نحن الذين خسرنا كلَّ المعارك، بما فيها معاركُنا معكِ، أيتها الصبيةُ الشقية، الماكرةُ..

أطوفُ حولكِ، كما تطوفُ ريشة حول عاصفة..

كنتُ صغيراً على الحب، وكنتِ أكبرَ.

كنتِ الأكبرَ من الحب، والغريبةَ عن الوقت.

وجميلةً كنتِ.

جميلة، كامرأة تتقدمُ جمالَها.

جميلة، كغرفة تطلق العنان لحرية جدرانها.

جميلة، كقطرة يغوصُ من أجلها الماءُ، ليعرف أين وقع قلبُه.

وصرتُ أجمل مني، حتى أني لم أعرفني، عندما أحببتكِ.

عندما أحببتكِ صرتُ شجاعا، كقلب ينتقي طعنته.

عندما أحببتكِ صرتُ حنانا عاليا، كبرج.

عندما أحببتكِ دخلتُ مغارة نفسي، وشاهدتُ الجوهرَ لكنني لم أحتمل أن أكون نبيا، فسكرتُ بجمالكِ. لم أعرف أن مَن يسكرُ بجمالكِ يحملُ على ظهره العالمَ.

هو ذا سُكْرُ جمالكِ،

آه..السكرُ العاصفُ يغمرُ دجلة، فيرتلُ آية زرقتكِ كلما خطرتْ في خيالي موجة.

السكرُ، سُـكريَ العاصفُ، يأخذني إلى كتبٍ سرقناها معا، ثم سرقتكِ منها.

أشـاهدني كثيرا معكِ، نصعدُ زورقا ورقيـا، ثم نغرقُ، فتنقذنا قبلة.

أصعدُ معكِ سلالم مخيلتي، وهناك تبتكرين مخيلةً أخرى، لأنكِ الأكـبرُ من الحـب، والأكثرُ مـن الخيال: وأنـا السُـكرُ العاصفُ، سُكري، يقود خطواتي، دائما، إلى حيث كنتِ تنتظرين:

أدخنُ سـجائري عند أقدام تمثال المتنبـي، فيخرجُ الدخان من منخريـه، ومـن جيوبه تطيرُ أحـلامٌ، قصائـدٌ، وفراشـاتٌ كنا قد حلمنـا أن نكتبها، فينكشـط الطلاءُ، وينكشـفُ الهيـكلُ العظمي لعالمنـا الهـش، فاغني: " **على قلـقٍ كأنَّ الريح تحتـي**.. " إذ سرعانَ مـا سـتأتي القبيلةُ، ثانيـةً، لتأخذكِ إلى المسـلخ، فيما يواصلُ سُـكرُ جمالكِ، السـكرُ العاصـفُ، يواصلُ لعبته معـي: يجرفني بأمواجه العاتية إلى السـاحات والأزقـة، أو يجرجرني من ياقتي إلى مصطبة على الشـاطئ، حيث لا يزال الشـيطانُ جالسـاً عليها، بانتظار أن تكوني ثالثـتَـنا.

درجة حرارة اليأس

يمرّغنـي الحنـينُ بأطيانـه ودموعـه، فأتفتتُ في هـواء الغياب السام، بحثاً عنكِ، أنتِ الهاربةُ لئلا ألمحَكِ، ولو بشكل عابر، حتى إنـكِ قطعتِ صلتكِ بالأغـاني التي كنا نحبُّها: اخـترتِ القطيعةَ، كي يغلقَ قلبُكِ بابَه عن كل شيء له صِلةٌ بي، ولم أنتبه إلى الأقسـى من ذلكِ عندما غيّرتِ اسـمَكِ، رفاقَكِ، وهجرتِ الزقاقَ، الذي كان يقود خواطري إلى ملعب عواطفكِ.

كنت ألوذُ بكِ عندما أفشلُ في أن أكون ولداً عاقلاً مع آلامي، أو عندما، في الليل، أرى إلى رأسي مطروحاً فوق علامة استفهام كبـيرة، أو عندمـا تأمرينني، من خلفِ ظهـرِ نُوح، أن لا أصعدَ في السفينة..

كثيرا ما كنتُ ألجأُ إلى صوتكِ، ألوذُ بكِ عندما أَسـمعُكِ تغنين عن الحنين، وعن الحب الخائب والاشتياق، فيرتفع منسوبُ المياه في صحـاري عطـشي، وتنخفـض درجة حـرارة اليـأس في قلب العالم.

أشتاقكِ أيتها اللعينةُ، أيتها المحبوبةُ، أيتها البريئة، أيتها الخائنة، لأنَّ لا امرأةً تشطفُ حطامي بفتنة الحب، وبالسخرية من النظام، كما أنتِ.

حياة مشتركة

أمـرُّ، أحيانا، بنفس المكان الـسري، الذي كنا نلتقي فيه لتبادل القُبل، أو للشِّجار، أو لترتيب مراسم حب لم يُكتب له أن يكتملَ، وأقرأ رسائلكِ القديمةَ، مُذعناً للحنين: أسمع نفْسَ الأغاني، التي كنا نسـمعها معا، أو أبحث عن الكتب، الكتب المحرّمة، التي كنا نتداولها بكتـمان، بالرغم من أنكِ، الآن، مرميةٌ في أقصى نقطة من البُعـد، وقـد حوّلتـكِ روحُكِ القلقـة إلى امرأة لا صلـةَ لها بذلك الماضي المترع باليُتم وبالأسى.

أفعـلُ ذلك، بقلـبٍ أخضرَ ويائـسٍ في نفس الوقـت، قافزاً عـلى حقيقة تحولاتكِ، متمنياً أن يرجـع الزمنُ إلى تلك اللحظةِ النـادرة، التـي لا تمـر إلا مـرةً واحـدةً في العمـر، هـي لحظـةُ اتحادنـا تحت قَسَـمِ اللوعـة، لحظةَ خضوعنـا لطاعةِ التشـوّشِ والاضطـراب، أو هي لحظـةُ اقترابنا من الحافـةِ: حافةُ الرعب الممهورِ بالفرح، المفتوح على بهجة الوقوع في الحب، والمخضّب بالطيران في الهواء الطلق ..

آه، كـم أريد، الآن، أن أعيش تلك الحياة، بلطفها وبفظاظتها، مرة أخرى..

قصيدة الصدأ

لم أندم عندما وجدتُ رجلاً سواي قد احتلّ قلبـَكِ.

لابـد أنكِ مَن حلّ وثاقَ اليأس، لتلعب الغرائزُ، لعبةَ الجسـد، على هواها. لم أحرّك ساكناً، لأنني قد تسمّمتُ بفكرة أن الحبَّ هو الحريـةُ، أن الحريةَ فعلٌ جوهرُه المعرفةُ والحبُّ، فما كنتُ استطيعُ فعلَ شيءٍ، حين وصلتكِ، بعد رحلة طويلة جداً.

كان وقوفي جامداً يؤكِّدُ سحرَ الحب.

كان عثوري عليكِ، وحدَه، كافياً لأن أنتشي بجرعةٍ مكثفةٍ من الألم النقيّ.

كانـت جرعـةً عاليةً من المرارةِ، المشـوبةَ بحـلاوة القبض على المفتاح، الذي يحلّ كلَّ لغز.

كانت جرعة شافيةً من كل داء.

كانت مميتةً أيضاً، لا تنفع معها أقوى الخمور، الصلاةُ، أو أنبلُ القصائـد، وهو ممـا أهَّـلَني لأن أكون الفارسَ الـذي يعود برأس الوحش الداخلي للإنسـان، ولأنْ أرميه أمام أقدام جميع الحزانى، لكن..ما من وسامٍ يليق بصدري الممزق، من كل الجهات، سوى الصدأ!

سبيكة البلور

أتمرنُ على أنْ أكتبكِ بطريقةٍ تتناسبُ والألمِ الذي سببتِه لي، رغم إدراكي جيداً أنَّ ما لا يطاقُ لا يمكن التعبيرُ عنه إلا بالصراخ الذي يذبحُ الحنجرةَ، أو بالصمت الذي يحوّلُ القلبَ إلى ساحة معركةٍ، بعد أنْ ينجليَ عنها الغبارُ، تحومُ حول قتلاها النسورُ.

هكذا أحاول أنْ أتخذَ سبيلي إلى المعجزة، عبرَ حدس ما: ثمة في الشِعر منطقةٌ تجمعُ بين النحيب وبين السكوت، أو بين الصدى كأساسٍ وبين الصرخةِ كأثرٍ، عبرَ لغةٍ تحكم إغلاقَ ممرات الدمع لئلا يكونَ فائضاً عن حاجةِ النهر، أو عبر تنهيدةٍ وجيزةٍ تُمسكُ بقبضتِها الألمَ والقلبَ معا.

هكذا أفكّرُ أنْ أخصّبَ ألمي، أن أشحذَ حواسّي، وأنْ أصنعَ من خذلانكِ سبيكةً من البلور

مثل طعنة من الخلف

كان يحبكِ، يحبُّ إخلاصَكِ المفرط للكذب، يحبُّ ولعَكِ بجرجرة الذكور من شاهق فحولتهم إلى حوض غرائزكِ التي تفلتُ من أسر ثيابكِ، وتنتشرُ عارية في المدن العنكبوتية.

كان يضمّكِ إلى ذخيرته من الأسلحة التي لا جدوى من امتلاكها: يكتبكِ على بطاقةِ الدعوة، ويدخلُ معكِ الحياةَ، كعاشقٍ يعرفُ أنّ معبودته الافتراضية ستخذله في أية لحظة.

كان مصمِّماً على هذا الخراب، وعلى أن يشيَع فوضاكِ كمقترحٍ آخرَ للنظام لأنه كان غريباً، وخارجَ الوقت.

كان يفهم أنّ رسائلكَ له مكتوبةٌ إلى آخرٍ لم يصلْ بعد، لكنه يتخلّقُ شيئاً فشيئاً في طرق الخيال، كما أنه يعرف أنّ عاطفتكِ المتقلبةَ، والمسفوحةَ على شبكة الانترنيت، محضُ هراء.

كان يدركُ تماما أنكِ مخلوقةٌ بقلبٍ هشّ مثله، وأنّ ما من طريقة لقبول الحياة بكل أوجاعِها إلا بهذا الخداعِ النبيل.

يكتبكِ الآن متألِماً، لأنكِ مازلت لا تفهمين أنه كان يغفرُ حاجتكِ المتذبذبةَ، عُريَكِ المتأججَ بالرغبات أمامَ الآخرين، يفسّر لماذا تظهرين وتختفين، ومن ثم يقبَلُكِ: يسمحُ لكِ أن تكوني مرآة لاضطرابه، ويستقبلكِ برحابة اليائس، بشجاعة مَن يعرف تماما أنْ عليه أنْ يسهوَ عنكِ كثيرا، مادام قد تمنّاكِ مثل طعنة من الخلف..

هذا فقط ما يؤلمني في هذه القصيدة!

خطـرَ لي أنْ أحبكِ هذه المرة أيضا رغم أنكِ، في المرة السـابقة، غيّرتِ عنوانكِ، ورغم أني ضبطتكِ تخونيني مع رجل آخر، وآخر وآخر.. حتى ينتهي العدُّ!

لا يهـم مـا حصـل، قلتُ لنفسـي، فنحـن الرجـال نلعب هذه اللعبة دائما.

ابتهجـتُ لأنكِ خائنةٌ أيضا، لأنـكِ الضعفُ الذي يعتري كلَّ قـوة، كما إنَّ ذلك يعني أنكِ تكترثين، بطريقةٍ ما، لسـلطتي عندما أكـون ثقيلاً على طيفكِ، فتمنيتُ أن تفهمي معنى أنْ أكونَ هشّـا، ضعيفـاً ومخلصاً، رغم أنكِ ـ هـذه المرة أيضا ـ ما زلتِ مصرّةً على أن خيانتـكِ لا تعنينـي، بـل هـي ثأرٌ يلازمـكِ، ثـأرٌ لا ينتهي من الرجل الأول، الأرعن، الذي حطّم قلبكِ، وإلى الأبد..

هذا فقط ما يؤلمني في هذه القصيدة!

النيزك

كانـت حاجتـكِ متذبذبةً، مثلَ الطقس في يـوم عاصف، رغم أنـكِ كنـتِ تعرضين نفسـكِ عاشـقةً على حافـة الانهيـار، كما لو أنـكِ عثرتِ على فارسـكِ المختار، أو كما لو أنه اكتشـافُـكِ البِكرُ للفروسـية، وانحيازُكِ التامُّ للإفلات من البيت، ومن القوانين في العائلة، لأنكِ كنتِ تائهة في خرائط قلق لا خلاصَ منه، مثل نيزك غاضب يطوف السماء، بحثاً في المجرات، عن أجمل الكواكب

كان يحدسُ ذلك.

كان واثقـاً أنكِ امرأتُه المنتظرةُ، فقـادكِ إلى نقطته الضعيفة، إلى هلاكِه الأكيد.

كان يحبكِ، يحبُّ رغبتكِ في تصحيح نظرته إلى العالم وإلى الحب.

كان ينتظر أن تزلزلي أرضَ حياته، أن تشعلي النارَ في أفكاره، كتبِه وأغانيِه، وأن تكنسي نشارةَ أحلامه بريح المعجزة، أو بهزّةِ اليقين.

كان يترنح أمامَكِ، متهيئاً للدمار على يديكِ، لكنكِ استدرتِ، فجأة، عائدة من حيث أتيتِ، ولم تنفجري فيه أو تنسفيه..

كان هذا هو ما آلمه في العمق.

كان هذا هو ما أصابه بالخراب، إلى الأبد.

فناء

إنْ لم أكنْ أنا الذي توهمّكِ امرأةً له، امرأةً تخونُهُ مع أول عابر.

إن لم أكنْ أنـا الـذي صعدتُ لأكـسرَ لوح مصـيري، ولمّـا قرأتُ اسمكِ فيه ترددتُ، وسكرتُ من الوجد، مع أنه يذكر أنكِ لستِ لي.

إن لم أكنْ أنا الذي انتخبكِ قطرتَه المرّة، من بين كل المياه.

إن لم أكـنْ أنـا الـذي أطلقـتُ النسرَ عـلى قلبي، وسـكنتُ مع غيابكِ تحت سقفٍ واحد.

إن لم أكـن أنا الذي ذهبتُ بعيداً عن نفسي لألتقيكِ، فأنا الذي عاد إلى نفسه والتقاكِ فيها..

تضرّع

أفـرّ من غيابكِ بالجلـوس إلى طاولة الكتابة، فتمدّين لسـانكِ ساخرةً من هذا الألم، الذي كلما طرحني أرضاً صرتُ أقربَ من اللؤلؤة، غير أني لا أمدّ يدي نحوَ قعركِ المشـع، خشـية أن أخسرَ مخاضي الحقيقي نحوَ القصيدة التي تشبهكِ.

كثـيرا مـا تمنيـتُ أن أنفجـرَ، لأنني مختنـقٌ بكِ، مختنـقٌ بالحنين وبالاشـتياق، لكننـي أخـافُ أن لا أتّقـنَ وثبتَـكِ منـي إلى خارج بدني، حين أزفركِ إلى هذا الفراغ العظيم..

آه، هذا الفراغُ الذي لا يسعُه أن يحتوي حضورَكِ!

لفتتُكِ

لا أُتقنُ إلاّ أنْ أفكرَ فيكِ، فأنقبَ عن آثاركِ في النسيان: نسيانيَ الزائفُ الذي أحشـوهُ، يومياً، بوجهكِ الحزين الخائف والمرتبك، وجهكِ الذي التفتَ نحوي، في لحظةِ شوقٍ أخيرة.

في التفاتتـكِ الوجيـزة، في نظرتـكِ المذعـورةِ والمَهولـةِ تلـك، اختـصرتِ الحـبَّ في أنقـى لحظاتِـه، فأتْـلفـتِ كلَّ ذاكـرةٍ، وكلَّ نسيان..

قصيدة النسيان

لم يَخْبُ جمالُــكِ، حتى وأنــتِ تختارين جهتَـكِ من النســيان:
النسيانُ، لأنكِ فيه، صار مضيئاً..

أنتِ

مثلُ كلّ الذين نحبهم، مثلُ كل الذين بكينا على أكتافهم، مثلُ كلّ الذيـن جرحونـا، مثـلُ كل الذين جرحناهم، مثـلُ كل الذين انهـاروا من الانتظار، مثـلُ كل الذين انتظرناهـم، مثلُ كل الذين سـكنونا، مثلُ كل الذين تركونا نرحـل، مثلُ كل الذين تركناهم، مثل كل الذين ضربوا الحيطانَ بقلوبنا وحطموها كالمصابيح، مثلُ كل الذين حطّمناهم، مثلُ كل الذين استسـلموا للحياة، مثلُ كل الذين أودعناهم جرعة شـافية من اليأس، مثـلُ كل الذين التفتوا قبل أنْ يتواروا في الزحام.

مثلُ كل الذين صاروا غرباء..

هكذا صارت خسارتي شِعرا

كمفتاحٍ دخلَ قفلَــكِ: فتحه وانكسر.

كشـبحٍ ممزَّقٍ، في مؤخرة جيش خاسر، ليـس له أولٌ، رغـم أن وجهَكِ هو المقدمةُ: وجهُكِ الجميلُ، النادرُ تكرارُه، الذي يتقدمُ، الذي يتأخر، من أجـلي، فلا أقدّمُ خطوةً، ملتفتاً إلى الوراء، حيث العشبُ المحروقُ يستعيدُ اخضرارَه، كلمّا غسلتُه بنظرة.

لن أنحتَ إلا هيبةَ الحريق:

سـأخيط الثغراتِ في ثياب النار، التـي التهمتْ حياتي، لكنني لن أحتفي إلا بخذلانـكِ .

لن أكتبَ عن عبقريةِ جمالكِ المتماسكِ كقلعة رومانية، فأنا شاعرٌ مختَــلٌ، ينفـرُ من كل قناعـة أكيدة، لا يرى في العـالم الذي تطوفينه، بحثاً عمّن يشـبهني، إلا حبلَ غسيل، منشورةٌ عليه أقنعةٌ زائفةٌ، أما الجوهـرُ فصدفةٌ لا تحصل إلا صدفةً، فيـما الحبُ هو المعجزةُ، لكنها لا تحـدث وأنـتِ تجعلين مـن نهديكِ زهرتـين اصطناعيتـين، و من فمـكِ تفاحـة هزيلة، تزعمين أنهـا منهوبة من الجنة، كـما إن أناقتك الباذخة، إذ تجمعين اللعابَ الذي سـتفرزه بَشَرة أثوابكِ، لا تعكس إلا اختلالـكِ الباطنـي، أما حبُّكِ المتأرجحُ بـين احبكَ واحبكَ، لا

يعادلُه في الإقامة بين طيّات ذاكرتي إلا ظلُّ المشنقة في ساحة إعدام، إذ يترنح الحبلُ، وهو يمسكُ بعنق الغبار في يوم عاصف.

لا أكتبكِ الآن، إلا من أجل أن أفسر كيف بصقتكِ،

.. و لماذا؟

كيف تطهّرتُ عندما بكيتكِ، كيف هشّـمتُ وجهكِ، وجهَكِ الجميـلَ النـادرَ تكرارُه، وكيـف تقيأتُ نبرات صوتـكِ، صفاتِك الألف، ثم كيف تحررتُ، فحوّرتكِ عائداً بكِ إلى الأصل؟!

هكـذا صـارت خسـارتي شِـعراً، وهزيمتـي أغنيـةً، لأننـي لم أجدني إلا طافياً على السـطح، بعدما غصتُ في عمقكِ، بحثاً عن الـسر الـذي ينبجسُ منـه دوارُكِ، وهو يطيح بـرؤوس الآخرين، فيسيرون في نومهم، كإطلاقات طائشة، لا تعرف أهدافها، لكنها تصيبُ وترتدُ عائدةً إلى مشاجبكِ المكتظة بالزحار.

هـا إني في قـارب مثقـوب - البحرُ غاضبٌ من فـرط حنانه - هـاربٌ بحصتي من الهزيمة، بحصتي مـن أخطائي الجميلة، فرحٌ بفرصتـي في معانقة الإعصـار، و بانقلاب القـارب صوب عمق آخر، كمن عثر على الوجه الهارب للزمن، وهو يعبركِ، تاركاً لكِ المـسرح المكتظ بأوهامكِ، وأنتِ تبحثين عمّن يُشـبهني في العالم، على أن لا يكون شاعرا مختَلاً، ينظرُ إلى العالم كحبل غسيل، وأنتِ منشورةٌ عليه كقناع زائف:

أنتِ السـوطُ الذي يجلدُ نفسـه عندما لا يجـد في حوزته أحداً، كحبـل الإعـدام الـذي يخنـقُ حفنـة من الغبـار في يـوم عاصف، يتأرجـحُ فرحا، عندمـا الفراغ وحده في السـاحة، فيـما أنا الآهة، الآهـة التـي تبحثُ عن قلبٍ ممـزقٍ بصدقٍ: قلب خـاض الهزيمة ولاكتْهُ بأسنانها. هذا القلبُ، وحدَه، يُـتـقّن معنى الآهة، ويعرفُ كيف،

متى، وأين يعزفها..

التي

التي أعطتكَ كلَّ هذا الشَعر، التي وسّعتْ الخيالَ، التي جعلت العيشَ مع المستحيل ممكناً، التي لعبتْ معكَ لعبة الحب فاكتشفتَ قلبكَ، التي ابتكرتكَ قبلةً بعد قبلةً، التي شـذّبتْ حديقة الجسـد، التي تبرعمتْ على السرير، والتي تفتحتْ بكل عطر.

التـي، فجأةً، هـزّتْ كتفيها، وانصرفتْ بحصتهـا الضئيلة من النسيان.

التي تركتْ لك نصيبكَ الهائل من الألم..

الجيش الباسل

لا أعـرف لمـاذا، بعـد أنْ خسرتـكِ، صرتِ امـرأةً كلِّ وقـتٍ، وتحولـتُ إلى رجلٍ خسرَ آلافَ المراتِ لكنه، هذه المرةَ، خسر تلك الآلافَ من المرات دفعةً واحدةً.

لا أعـرف لمـاذا، بعد أنْ خسرتكِ، صرتُ كثـيرا، كأني جميعهم أولئك الذين خسروا..

كأني أقودُ جيشاً باسلاً من الخاسرين،

بعد أنْ خسرتكِ..

أقمار

كنتُ رجلاً يكتبُ أشعارا عن امرأة متخيّلة، ولمّا دخلتِ مدار جاذبيتي لم انتبه إلى أنكِ كنتِ تجلياً لامرأةِ الخيالِ تلك، إلا بعد أن جذبكِ مدار آخر فرحلتِ..

أنا الآن رجلٌ يكتبُ أشعاراً عن امرأة ذهبت إلى رجل آخر وتركتني افتقدها، لكن هذا هو منطق الجمال:

الشِعر أبداً في تلك الأقمارِ المتأهبةِ للفقدان!

إنشاد

لا تحوّلْ هزيمتكَ في الحبّ إلى مناحة، بل إلى إنشاد:

إن لم تفلحْ وخذلتك الحنجرةُ، تمسّكْ بثروتكَ، بمفتاحكَ الشخصي الذي له ينفتحُ بابُ الكنزِ، وتقدّمْ بهدوء إلى النافذة، ثم انحنِ للموسيقى يعزفها عنكَ، بحنجرتِه الذهبيةِ.. المطرُ.

قصيدة السمكة

تكتبـين " أحبـكَ " بسـهولة، كأنكِ تملكـين أعنّـة العواطف. تخبرينـي بحزن أخضر أنـكَ ثملة بي، أنكِ موشـكة على الطيران، وأنكِ مجنونة من فرط اللوعة. يحدثُ هذا عندما السمكة طرية في المطبخ، عندما يخرج زوجكِ المظلِم إلى الوظيفة، وعندما تتنفسين الصُعـداء، فأنتِ الآن حـرة، وأنا متأهب، متوثب وجاهز ـ هكذا تتخيلينني ـ لأن أطرد سُحب الدخان، فقد احترقتْ السمكةُ، ولا شيء يمكن أن تقدميه سوى أن تضعي قلبكِ في الفرن.

ـ كل هذا بسببكَ، بسبب أشعارك المخيفة، أيها الوغد!

تصرخـين بي، فأرتبـكُ مـن المـأزق الـذي وجدنا أنفسـنا فيه، ولا أعـرفُ ـ سـاعتها ـ هل أضحك من نصيبـي في الحب، أم من قسـمتكِ في الزواج، فكلانا في المكان غير المناسـب. كلانا يبحثُ عـن مكان أفضل خارج الـزواج وخارج الوقـت، لكن هيهات، فقد أحكم القدرُ قبضته على مصيرينا: حياتكِ تشـتعل في المقلاة، وحيـاتي في غيابـة الجب، حيـث لاشيء يمكن أن افعله سـوى أن اجمع دموع الخائبات بصحن راحتي، وأمشي مزهوا بهزائمي..

الوسام

انتصرتُ أخيرا: هزمتُ جيشا كاملا من القوة، وأبدتُ مقاومة كانت تعترض طرقي، مذ أن عرفتكِ.

لم استعن بأحد، حتى بهشاشتي: استغنيتُ عن ضعفي أيضا.

أعلنـتُ أنني وحيـد، وخضتُ معركتي مجـردا حتى من الحب ومن المعرفة، وعندما وجدتُ أن جسـدي قد نزفَ آخر قطرة من أنهاركِ، نفضتُ يـديّ من الغبار، وخرجتُ إلى العراء بأناقة ناي، وهناك عزفتُ نفسي دموعا..

كيف تكتب قصيدة نثر؟

إلى ميثم العتابي

المسألة أنْ تكون طيباً بما يكفي لأنْ تبدو مغفَّلاً: أنْ لا تلاحظ المرأةَ التي تحبُّ وهي تخونكَ كلَّ ليلة، أنْ تعتبرَ أنّ ما حصل مجردُ مزحةٍ، وأنْ تعود إلى صدرها الحنون، غيرَ عابيء بلمسة الآخرين قبلكَ، فالدنيا تكاد أنْ تكون خاليةً، وليس ثمة امرأةٌ سواها.

قُلْ:

لعلها تلعبُ، هذه المرأةُ، التي التقيتُها مكسورةً في مدينة عنكبوتيةٍ.لعلها لم تكن غيرَ وهمٍ، رغم صوتها في الهاتف، رغم عواطفها في صندوق البريد، رغم دموعها في منامكَ .

اكتبْ:

لم أكن على بيّنةٍ من أنها امرأةٌ إلا حين لم تعد امرأتي، وتلك مسألةٌ ليست لها علاقة بالشعر بالرديء، حيث الجملةُ تضرب رأسَ أختها الجملة، بمعول الكلمات، فتطفرُ شرارةٌ باردةٌ، لا تجرّ وراءَها إلا خيطاً من السأم .

اصرخْ بصوت عال:

لا اعرف كيف أنَّ عينيها مازالتا مغروستين في عيوني، رغم أني

لم أصادفهما إلا في صورةٍ، اعتقدُ الآن أنها مزيفةٌ، وإلا كيف يخونُ مَـن يملك عينين جميلتين، كيف يجرؤ كائنٌ ما على الإسـاءة لعينيه الحقيقيتين، وسط هذا العمى؟!

مسـألةٌ معقدةٌ كهذي لن تضطلـع بها إلا قصيدةُ النثر، ولذلك ارفـعْ بهـا توصيـةً إلى مؤتمر لـن يحضره أحـدٌ من منظمّيـه، لأنهم عميـانُ قطعـاً، وإلا كيف تفسـّر الظلامَ الذي يسـيل أنهـاراً بين ضفاف أرواحهم؟!

ها أنتَ إذن:

المـرأة التي اتضح أنها امرأةٌ أصلا كنتَ تعاملُها على أنها امرأة، قبـل أنْ تصـل إلى هـذه النتيجـة، لأنـكَ بحاجـة إلى مَـن تعاملها كلؤلؤةٍ، كفيض من الدرّ، كإشراقة من ذهب، إذ العالمُ من حولك منجـمٌ من الفحـم: لا ضحكـةَ بلوريةٌ، لا ابتسـامةَ هـي مصباحٌ يضيء، من دون شعلة، ولا زيتَ.

آه، لـو تفهـم النبلةُ أنّ القلبَ المثقـوبَ لا يعبأ إلا بالثقب: لماذا هـذا المكان، وهل يصلح القلبُ أن يكون مأوىً: هذه الاسـفنجة كيف تكون بيتاً لحبيب؟!

وكـما تلاحظ: الأمرُ ليس معقداً تماما، لكنك بمواجهة أسـئلة محيـّرة، يمكن تلخيصُها كما يلي:

أولا: كيف يخون المرءُ عينيه الجميلتين؟!

ثانيا: كيف يكون القلبُ مكانا للسكن، وهو مليء بالدم؟!

ثالثا: كيف يكون الشِعرُ رديئا..؟!

إنْ أتقنـتَ نثرَ حيرتكَ عـلى الورقة، وكأنها اكتشـافاتٌ، فتأكدْ أنكَ كتبتَ، بطريقةٍ ما، قصيدةَ نثر.

نيزك الشعر

اعتنقتُكِ كديانةٍ لا نبيَّ لها، لا عقابَ فيها ولا ثوابَ، حتى أنني رضيتُ لمصيري أن يخطفَ كالنيزك، أن أتآكلَ في طريقي إلى الحج عند كوكبكِ، الذي لا مدارَ له، لا اسمَ، ولم تعرفه الخرائطُ..

احتفيتُ بحبكِ كجُرحٍ لا شفاءَ منه إلّا باعتناقه كمبدأٍ للسموّ، وكانت حيازتُكِ أمراً بسيطاً جداً، لكنني رضيتُ أن أفوزَ بجائزة فقدانكِ، لأن القصيدة ستفقد أناقتها لو تنازلتُ عن ألمي، لذلك قطعتُ الظلامَ، من دون نور فانوسكِ أو شعلتكِ، من دون أن تعرفي شيئاً عن ديانتي وكُفري، مكتفياً بما في القلب من خفقة البرق، وبما في عينيّ من لمعان..

النافورة

أحبُّـكِ بصمـتٍ، لئلا أخـرِّبَ تناغمَكِ مع الفرح المغشـوش، ولئلا أُفسدَ عليكِ طمأنينتكِ في أن كلَّ شيء على ما يرام.

هل تعرفين؟

لقـد أحببتُ جميـعَ ممثلاتِ السـينما، وكلَّ المطربـات، لكنني لم أرتوِ من النبع، ولم أُشبعْ فضولي في التعرّف على المرأة من داخلها، فالمرأةُ كنزٌ، وأنا أحبُّ الكنوزَ العصيةَ على التناول.

أُحبُّـنـي عاشـقاً خائبـاً عن بعـد، مهمَـلاً ومتألِـماً، ففي داخلي نافورةٌ من الدمع، مسـدودةٌ بأحجار الأسـى، وأنتِ معجزةُ المطر والطوفان.

كما قارب في إعصار

كان يحبـكِ لأنـكِ عاصفةٌ تخجـلُ أن توقظَ الشـجرةَ، ويحبكِ - كان - لأن الأرضَ مسـتطيلةٌ وأنـتِ أضلاعهـا، ولأنـكِ كنتِ تخيطين الشقَّ في ثياب العالم بضحكتكِ، كان يحبكِ.

كان يحبـكِ وكان يحبـكِ وكان.. يحبـكِ لأنـه يحبـكِ: وكان يعرفُ أن ليس بإمكانـكِ أن تحبيهِ، لأن أحزانَه عصيّةٌ على الفهم، مثـل لغز، ولأنه مـا كان يملكُ أكثـرَ من أن ينظـرَ إليكِ بصمتٍ، مكتفياً بمعجزة وجهكِ، الـذي تنفجرُ منه رغباتٌ مبهمةٌ، يملكُ أن يحققهـا لكِ، سـوى أنه يفضِّـلُ ألا يكونَ دخيـلاً على حياتكِ، فيقلبها عليكِ، كما قارب في إعصار..

الجرح

كان يجدّدُ، بإصرارٍ، الأخطاءَ القاتلةَ، ويسعى إليها، مثل قَدمٍ تعرف أين تقع عثراتُها..

كان لمعانُ الجوهر في إنسانكِ الداخلي يضيء له العالمَ، وهو ينتظركِ كمعجزة، يعرفُ أن حدوثها سيقرّبه أكثرَ من الهاوية، حيث يلّوّح له، من القعر، بهاءُ جمالكِ..

كان يحبكِ لكنّ جرحاً ما، في داخله، لم يتمكن من تجاوزِه، حتى حينَ لوّحتِ له. لم يقوَ على أن يقول شيئاً. لم يرفع يديه، لتلوِّحا لكِ، لأنهما كانتا تغطيّان الجرحَ..

أسطورتي الشخصية

أنـا الـذي سـلبتْ لبـي امـرأةٌ صادفتهـا في أحد الكتـب، ولما حاولتُ أن أجدَها في المكتبات، دخلتُ المتاهةَ التي أخذتني، شيئاً فشـيئاً، عن الكتبِ ورمتني خارجَها، عارياً من كل معرفة، مجرَّداً من القوة ومن الحَوْلِ، كما قلمُ الرصاصِ!

أنـا الذي بحثتُ عنكِ في الأديان، في السـينما، وفي الأسـاطير، ولّما حصل وأن مسّـني طيفُ جمالكِ، وأنتِ تمرين على الرصيف، صعقنـي اليأسُ، حتى أيقنـتُ أنكِ الأكبرُ من الحـب، وأنني أقلُّ كثيراً من أن أحبكِ.

أنا الذي أشعل قشَّ عمرِه بنارِ الأفكار.

أنا انكسارُ العود

أو النحيبُ الذي يعصف الإعصارَ في روحِ الوتر.

أنا ريحٌ حزينة تهزُّ الغصنَ، وتراكِ تسقطين في سلال الآخرين..

المفترق

كان ممكنـا أن أكتبكِ بطريقةٍ أخرى، لو لا أنّ حاجةَ الشّـعر إلى الغليـان أخذتنـي إلى الأعمق، فالتقيتكِ في المفـترق، حيث لم يَعُدْ ممكنـا إلا أنْ أرنـوَ إلى وجهكِ بصمتٍ، مكتفيـا أنكِ كنتِ لي مرةً، ولسـتِ لهـذا أو لذاك أبـدا، رغم أنكِ تعيشـين إلى جـواري وإلى جوارهم، رغبةً منكِ بالعيش عن قربٍ أو عن بُعد.

قصائـدي، كلُّ قصائـدي، هـي عن ذلـك المُفـترق، عن ذلك القربِ العصيّ على الفهم، الذي لا يُكتب أو يُقال..

امرأة

مـن مرآة إلى مرآة واصلـتْ امرأةٌ نقلَ بهائها في المرايا، تاركةً في كل مرآة أثراً واحداً، يختلفُ من مرآة إلى مرآة.

في قلب كلّ مرآة امرأةٌ تسـيرُ على ضوء شـمعة، حتى تنطفيءَ الشـمعةُ، فيظهـرُ إثرَهـا رجـلٌ يجمعُ آثارهـا، من مـرآة إلى مرآة، ودائما، في لا نهائيات رحلته، يصلُ إلى امرأة أخرى..

القنديل

مازلتُ أتسرّبُ من ثقوب الناي، مثلَ لحن يجرح الغناء، يضعُ المصيرَ على المِحك، ويطوف حول جمالكِ، الذي أعرفُ أنه سيذوي في خرائب هذا العالم السافل، ولن يكون لي أبداً.

يا مسابَقةَ الجداول مع الفرح، يا نشوةَ الكتابة، وبهجةَ المشي تحت المطر. يا رعشةً تعبرُ بالجسد من وجوده إلى كينونته، ويا قطرةً تسيلُ، في مجراها، جميعُ الأنهار:

قلبي الذي أَحبَّكِ بصمتٍ يتعذّرُ وصفُه، مثل قنديلٍ مكسور، يوشكُ أن ينطق بالضوء، رغم أنه ما من زيتٍ فيه، وما من نار.

الأحلام المُهلكة

أسـكنكِ، لأنكِ مفتوحة الذراعين كالمصير، أهجركِ لأنكِ في المقدمة، أين ما ولّيتُ وجهي، وأترنمُ بكِ لجميع الأسـباب، التي تجعلني عليلاً بالعافية، أو مريضاً يواسي الصحةَ الرديئة للشفاء.

أحيانـا أتواصل معكِ بالحدس، وعـبرَ أنفاق من النوم مكتظة بضباب الخيال. أتبعكِ بسـبب جميع الحاجـات الغامضة، التي لا أعرف منها شـيئاً، سوى إنني، عندما أكون معكِ، أستعيدُ شِعريةً مفقـودةً، وأكتبُ بإخلاصِ مَن يعتقد أن العالم يجلسُ خفيفاً، مثلَ طفل، على كتفيه!

أحبكِ بسبب الأحلام المُهـلِكة، وبسبب الطفولة!

أتخذُ شكلَكِ، وأشعّكِ..

أشـعرُ أن الهـواءَ بيننـا ينفتـحُ على هواء آخـر، له مـذاقُ النبع، عندمـا يفـور العطـشُ، في تنـور جسـدكِ، ويتـوق إلى العنـاق، فأضمكِ بحنانٍ، بثقةِ مَن يعرف أنه امتلكَ، أخيراً، سرَّ البقاء على قيـد الطيران، رغـم أنّ أجنحته قد انتُزعتْ منـه، عنوةً، منذ لحظة الولادة، فلا تحسبيني يائساً عندما ألعنُ هذا العالمَ، الذي يأخذكِ، بعيداً عن الطيران، إلى قفص التقاليد، لأنني أكثرُ قوةً من شجرة، في العراء، تلعبُ بخواطر العواصف.

حبـي، ليـس حباً، بل هو ما لا اسـمَ لـه، وهو ليـس غراماً أو عشـقا، بالمعنى الدقيق، فقد يكون ولهاً، جنونا، أو قد يكون حنانا ممطرا، سـاخنا ودافئا، لم يمرّ به بشرٌ قط، غايتُه أن يحتلكِ، يعصفَ بجسدكِ، ويمزقني في داخلكِ، فأتخذ شكلكِ، وأشعّكِ..

أغنية حب عن الطيران والرغبة

جعلني حبُّكِ أعتقد أن نوافذ البيت تغيّر مكانها، طلباً للضوء، ضوئِك، كما تفعل زهرة عبّاد الشمس، وعندما يحلُّ الليلُ هناك الشمسُ الباطنيةُ الأخرى، التي تندلع من النهر المضيء بين نهديكِ، حيث تبدأ النوافذ بالعودة إلى أماكنها، لأراكِ من كل نافذة بطورٍ خاصٍّ، لم أقرأ عنه في الكتب، التي صارت تفتح صفحاتِها، لاستقبال هبوبكِ من كل مكان، حتى تحولتْ مكتبتي إلى قواميس للعطر، للرغبة وللطيران..

ساوميني بالعراء لأكون بيتا

عـاشرتُ المـاء، حتـى صرتُ قطـرةً، مـن أجل أن أسـتوعبَ بساطتكِ.

تأملتُ الترابَ، لأتعرّفَ أكثرَ على خالقكِ، أيتها المعجزةُ.

راقبتُ النارَ، لأُتقنَ كتابةَ شكلكِ..

وتنفستُ أنفاسك لأتعلمَ أبجدية ضرورتكِ للهواء.

ساوميني بقبلة لأمنحكِ نهراً غافيا في القبلة.

ساوميني بالسهاد لأصيرَ سريراً.

ساوميني بالعراء لأكون بيتاً.

أهدّدك بالأمان، وتهدديني بالحب.

أتوعدكِ بالترنح على أرصفة قلبكِ، وتتوعدينني بمطر ناعم.

قولي: لا أحبكَ، لأقول: يا كاذبة.

قولي: مللتُكَ،لأفركَ قلبي.

كـوني العالمَ لأكون قديسـاً، كوني قديسـةً لأنحنـي راكعاً مثلَ قـوس، كـوني نُبلة لأقهر المـوتَ، كوني هدفاً لأطعـنَ قلبي، كوني امرأة لأخرجَ من ضلعكِ..

مَن مزّق مَن؟!

احـترق العالمُ، ومن الحريـق رأيتكِ تخرجـين، بكامل جمالكِ: أنيقةً مثل شرارة.

بكامل جمالكِ خرجتِ، وأخذتِني بيديكِ من العالم، فاشتعلتُ.

مَن أشعلَ مَن؟!

جرّبـتُ أن أرسـمكِ عـلى ورقة، وحـين مزّقـتُ الورقة تمزق العـالم، ورأيتكِ تخرجين من بين الأنقـاض، وأخذتني بيديكِ من الزلزال، فتهدمتُ مثل سياج: مثل سياج تهدمتُ.

مَن مزّق مَن؟!

لا مفرَّ لكَ..

صعدتُ، وخرّبتُ وجهَها الفاتنَ: كسرتُ هامتها، وانحنيتُ لألملمَني.

قبل ذلك ذهبتُ إلى الشرق ، وعدتُ من الغربِ. ذهبتُ لآتي بغيرها، لكنَّ غيرَها، عندما وصَلتْ، خلعتْ ثيابها، ومشتْ عارية نحو المعبد، كما فعلتْ سابقتُها.

جمعتُ الترابَ من كل أرض.

جمعتُ الترابَ والمطرَ والعشبَ: عجنتُ الترابَ والمطرَ والعشبَ بأنفاسي و بخواطري، وصنعتُ من العجين امرأة، لا على مثال، وانتظرتُ أن تنضج تحت حرارة الشمس، أن ينمو جسدُها مع العشب، حتى اكتملتْ، وتسللَ إلى عروقها الملحُ، فنطقتْ، أول ما نطقت: " لا مفرَّ لكَ "، ورأيتها تمشي، تخلعُ ثيابها مع كل خطوة، ثم تدخلُ المعبد، فتضاجعُ الكهنة والمغنين والحرّاس والصبية، ثم تتركُ الجميعُ منشورين، عراة، على حبل رغبتها، لتنام عارية بين النساء.

صعدتُ غاضبا، وطعنتُ قلبها، فأنّتْ بعمق، حتى شعرتُ بأن أحشائي قد اشتعلتْ بنار أحشائها، فركعتُ وعفّرتُ وجهي وجروحي بترابها، منتظرا أن تشنقني بحبل غفرانها.

لم تغفر بعد، لكنها قالت:" لا مفرَّ لكَ ".

كان عليّ أن أهربَ منكِ

كان عـليَّ أن أهـربَ منـكِ، ولمّا حصـل ووصلـتُ إلى مناطق ليسـت مأهولـة بضواحيـك ، لم أجـد ما أفعلـه، فابتكـرتُ امرأة أخرى، لكن ذلك كان عبثا، فما ابتكرته كان أنتِ..

كان أنتِ كلُّ ما ابتكرتُ، وكلُّ ما حطمتُ كان أنتِ.

قلقٌ يمزّقني أنتِ.

ألمٌ لا أعـرفُ مصدرَه،وجَمـالٌ يهطلُ بأمطـار حزنه، في حوض راحتيّ، أنتِ.

أبتكركِ يومياً وأنتِ واحدة.

واحـدة أنـتِ، وعندما أجرّبُ أن أطلقَ عليكِ اسـما تتعددين، فأتيه في تعددكِ، ثم يضيع اسمكِ.

أهربُ من هربي منكِ،

لكن هربي يأخذني إلى متاهة أطواركِ..

أدخلُ مدينة غريبة، فأجدُ عشّاقها يعرفون اسمكِ

الذي تمكنتُ من ابتكاره في مدينة أخرى.

أعثـرُ على نومكِ في نعاس القناديل، وأقرأ أحلامَكِ في كتبٍ لم تُكتب بعد.

أقابلك، كلما أقفلتُ عليّ بابَ الحواس.

كلما شطبتُ على طولكِ يأتي ظلكِ، محروسا بطولكِ..

إذا طردتُ وجهكِ من مخيلتي يهجرني الخيالُ.

إذا كتبتكِ في اليأس، تشرقين في الفرح.

إذا مزّقتُ ما كتبتُ أتمزقُ، كأن روحي هي الورقة.

أصيحُ: لا احبكِ،

فيعتري الهواءَ الشللُ: تتوقف الغيومُ، وتجمد الفصولُ.

أهربُ من رحابة جمالكِ، من تجليكِ، إلى رعب الكتابة، فأجدكِ تنتظريـن أن أكتبـكِ كما تشـتهين: امرأةً لا حدود لهـا، فأعرفُ أن هلاكي يوشـكُ أن ينحـدر من تلال جنونـكِ المترامية الأطراف، وأن جحيما من الشِعر ينتظر أن أصوغكِ، مرة بعد مرة.

في الصباح أجدني نائما عند أقدامكِ

ابتكرتُـكِ على أمـل أن أضعَ كلّ خـبرتي في مشروع تحطيمكِ لكننـي أخفقـتُ، لأن هذا الأسـى، هـذا الجمال، وهـذا الغامض الـذي يرتسـمُ على وجهكِ، لا يعبّر إلا عـن انفعال عصرٍ بأكمله، كما إن تناقضاتكِ لا تعكسُ إلا نمطا مدهشا من التوافق.

صبيةٌ أنتِ وأمٌّ:

في اسمكِ هلاكي، وما ينقصني إلا البرهان على أنكِ فكرةُ عن امـرأة، لا امرأة بعينها، فما يفيضُ عنكِ هو النبعُ، رغم أنكِ قطرة في مجـراه: تملكينني وأنا ليلٌ هجـره خلانُه، ولا أملككِ إلا عندما تكونين حجرا أرميه، فلا يصنع دوائرَ على الماء .

أفقدكِ في اقترابي، وفي اقترابكِ تفقديني:

قـادني حبُـكِ إلى الحب، وقـادكِ حبي إلى الحـرب، وأنا احبكِ لأنـكِ هكـذا: السـنبلةُ بيـدٍ والمنجـلُ بيدٍ، لأنـكِ أحزانٌ ليسـت متداولةً، وأفراحُ طفولة لا يشعر بمذاقها إلا الكبارُ.

حنانُكِ يؤلمني، ويأسُكِ يصنعُ مني باسلاً في الإطاحة بالأمل.

أخونُكِ، أنا الوفي، وأخلصُ لكِ أنا الخائنُ:

أعيشُـكِ متذمرا وراضيا، ساخطا وهادئا: أعزمُ على تحطيمكِ في الليل، وفي الصباح أجدني نائما عند أقدامكِ.

ماذا أفعلُ بكل هذه المصابيح؟

تتسرّبُ مع الظلام، في الليل: تصلُ خفيفة مثل نسمة، رغم أنها محملةٌ بجميع العناصر، وهيولى عُريها لا تتخلق إلا على سرير الرغبة.

فمُها، الأعجوبةُ، لا ينطق، و تصرُّ على لغة الإشارات، لأنها سومريةٌ - كما تزعم - ينحدرُ أصلُها من غِرْينِ دجلةَ، مع ذلك لم أجد صعوبة في فهم قلبها:

كانت كلها قلباً، أما جسدُها فقد كان ينطقُ بلغةٍ إنسانية مبهمة، تفهمها أعضائي، دون الحاجة إلى خبرتي كقاريء، أبدا.

آه، في الساعة المعيّنة تظهرُ، مثل نقطة في آخر الشارع: تخترقُ الحرّاس والجدران والتقاليد، وشيئا فشيئا، تتحولُ إلى مصباح يضيء العتمة، حتى إذا ما وصلتْ أختفي داخل المصباح، الذي سنلعبُ فيه دور الشعلة معا، وقبلة بعد قبلة يتكوّن الفجرُ، فتنحدرُ عائدة إلى المجهول الذي جاءت منه، و على سريري، منها، مصباحُ الليلة السابقة.

بعد أن غادرتْ، آخرَ مرة، ولم أرَها ثانية، وجدتُني حائراً أدور حول نفسي:

ماذا أفعلُ بكل هذه المصابيح؟

ولماذا أصبحتْ غرفتي، رغم ذلك، مظلمةً؟!

مهددا بالحنان ومحروسا بالمهالك

لبثـتُ متحصّنـاً خلـفَ قلعـة أسراري، متوحداً، وجالسـاً في مغارة نفسي، حتى إن أحداً لم يرني، بمثل هذه الهيئة المحطَّمة، قبل أن تمري في حياتي، لأنني صرت أتوهج، كلما اشتقتُ إلى مرورِكِ، ثانيةً، ولو بشكل عابر.

كنـتُ أطوفُ حول غيابكِ كطائـر، في ذروة العاصفة، يبحث عن جناحيـه، لأن الحبَّ، حبي، كان مـن العنف، بحيث لطّخني بالفزع، انتزع سريرتي من أجراسـها، وتركني أبتكرُ مصيراً غامضاً كالشِـعر، أو كقطرات مطر لا تؤكّدُ وجودَها، إلا بالسقوط على كتفيكِ..

كيـف وقعـتُ في كمائـن وجهـكِ المبتسـم، أنـتِ التـي أعرفُ اللاشيءَ عنكِ فقط؟!

وهـل كان ذلـك هـو الحافـزَ الـذي أخـذَ بي إلى القعـر، بحثـاً عـن القشـة التي، وحدها، تأخـذني إلى غموضـكِ، حيث الأمانُ والخوفُ يجلسان إلى مائدة واحدة؟!

كنتُ قد اتخذت طُرُقاً وعِرةً إلى القصيدة التي تُشبهكِ، وعندما ـ أخـيراً ـ وجـدتُ نفسي أتجـول في خوابي روحـكِ، أدركتُ لماذا أُعطيـتْ لي الشـعلةُ، وفهمَـتُ تمامـاً لمـاذا صرتُ أكتبـكِ مهـدَّداً بالحنان، و محروساً بالمهالك.

ضوء

كان حلمـي يتلخّص بالوصول إلى حـدودكِ، لأعرف مَن أنا. عندما أعرفكِ سـأخرج من عزلتي. سـأكون قـارة لأنكِ المحيط، سـأكون قارباً لأنكِ الرحلة، وسـأكون الغـرق لأنكِ البحر الذي ينسجُ ثوبَ زرقته من الرحلة.

لم أعلـن أنني اكتشـفتكِ، لكـن معرفتي أضـاءتْ وفضحتني، لأنني اقتبستكِ كلكِ، فرأوني حين نظروا إليكِ، ومارأوكِ..

اللا أحد

ألمحُكِ في قصيدةٍ لم أكتبها بعد، لكنها توقظني من النوم، أحيانا، لتأخذني إلى غموضكِ، الذي يرتدي جلباب ليل أعرفُ مصابيحه، عندما كنتِ شعلة في فانوس قلبي، الذي أنفق زيتَ خفقانه، ليضيء جسد غيابك الممتد، حتى تخوم آخر جملة يكتبها شاعرٌ على الأرض:

لا أعرفُ مَن أنتِ لشدة ما أعرفكِ، ولا أعرفُ لماذا أجدني منقادا، رغم ذلك، إلى المشي نحوكِ، حيث أجد " اللا أحد " شخصيا، واقفا، منذ قرون، بانتظاري..

الشعلة

عندما كفرتُ بحبكِ أصبحتُ أكثرَ تديّنا به:

صرتُ معصيَــةً مــن العطـر، تركـعُ خاشـعةً لـكل وردة، ولم أتوقع أن أكونَ مؤمناً يبشّرُ برسالةٍ لا يعرفُ كُنهها: يتلعثمُ حائرا، فيطـارده الناسُ بالحجارة، أو يسـقط مغشـيا عليه، كلما شـاهدكِ خلف نافذة ترتلين آية من اليأس، أو تغسلين الصباح بموجة من الرحمة.

لم أحلـم بكرامة أن أمشي في الهواء، أو أن أكتبَ شِـعرا يجعلني جميلا، ويبعثكِ امرأة خارجة من النار بوجهٍ تنحني لجماله الشعلةُ.

كفرتُ لأكفرَ في ساعة كفر، ولم أتوقع أن تكوني القربان، لأنجو من خطيئة أن لا أحبكِ بالطاعة، وأن لا أعبدكِ إلا بالمعصية.

قتلتُ مَن أحبُ ومن لا أحبُ

قتلـتُ مَـن أحبُ ومَن لا أحبُ، لاستخلصَ لـكِ حبا لم يحبه أحـدٌ من قبل، حتـى أنني غزلـتُ خيطا من الجنـون لأُخيطَ بدلة تعزلني عن الناس، وعن العزلة.

صحـتُ: " مـا في الجبّة إلا هي، إلا هي .. " وبكيتُ، فلسـتُ أعرفُ مَن " هي " وأعرفكِ أنتِ.

آه،

كلُّ " هي " تعزلني عنكِ.

كلُّ إشارة تأخذني منكِ.

هكذا عبدتكِ في العلن، في السرّ، وفي السُكر في الحانات.

قلتُ: محبوبتي لم تلد.

صحتُ: ولم تولد.

وكـدتُ أن أبـشّر بولادة لا تطيقها لغةُ النـاس، لكنني أومأتُ إلى القلب، ولم أعرف أنني فعلتُ الشِعرَ حين أومأتُ، فقد قابلتُ نفسي في قلبكِ، وقابلتُ قلبي في نفسـكِ، حتى اختلط عليَّ الأمرُ، فصرتُ شاعرا.

الكأس

أحبكِ وأنا منشقٌّ عن عشاقكِ، رغم أنني في المقدمة دائما:
لا أريدُ فرحا سهلَ الكسر كالزجاج، ولا أعتني بتربية الغفران
الذي يلجمُ التمرّدَ. أحبُّ الحبَ العاثر الحظ، الذي يمنحُ الكائنَ
حرّية وعرة، يجرفها القلبُ البديع، مع سيوله، إلى حيث المخبوء
من الدرّ في الباطن. هكذا أحبكِ: أسلكُ إلى قلبك طرقا وعرة،
رغم معرفتي أن طرقا أخرى توصلني إليكِ، بدون مشقة. كأسي
الفارغة على طاولة الحياة لن أتنازل عنها: إنها مأهولةٌ بعطشٍ
جوهره أنتِ.

السرّ

هــل قلتُ لــكِ: إن أصدقائي خونة، وقد شـاهدوكِ تطفرين، مـع دموعي، فلاحقوا سـيرتكِ في كل مـكان، وتركوني معكِ، في الفندق، ندفعُ ثمنَ نومهم الباهظ، على أسرّة حياتي؟

هــل أخبرتــكِ أن كل واحــد منهــم عــاد بابتســامةٍ منــكِ، ثم أجــبروني على أن أقول: إنــكِ خائنة، فيما أنتِ، داخل قنينة الخمر، تقضمين قلبي، كالتفاحة؟

هل تفهمين لماذا سـكرتُ تحت القناديـل في الأزقة، وترنّحتُ كالريشة في كل ريح؟

هل تعرفين أني أحبكِ على لا هدى، ولو كنتِ لي لما كتبتُ هذه القصائد؟

هل تعرفين أن قتلى الحب، من جميع الشعوب، تنتهي خطواتهم في البحث عنكِ، عند بابي؟

هل أطلعتكِ على السرّ؟!

سـكرتُ كثيرا مع أعدائي، وبكيتُكِ بين أحضانهم، فوجدتهم طيبين!

الملائكة تعود إلى العمل

مساءُ الخير، أيتها المرسومُ حول خصرها مدارُ الأرض، وهطولُ النيازك.

مساءُ الخير، أيتها الطالعةُ من الحريق، أيتها الناجية من المجزرة.

مساءُ الخير، أيتها المشتعلة بحبٍ لا شفاء منه.

مساءُ الخير، أيتها البريئة، كقبلةٍ ترتّب أناقةَ النوافذ من وراء زجاج النسيم..

هناك تقدّمٌ ملحوظٌ للأسى،

هناك صحوٌ كثير في ضباب عواطفكِ،

هناك عاصفة من العطر تنهضُ من سريركِ، كلما ارتفعتْ درجةُ حرارة الهيام في قلب وردة.

وهناك خيط من أنفاسكِ، يقودُ الفراشة إلى الوردة، و يَجْبلُكِ، من مسارها إلى النار، سلالاً من الرحيق.

صباحُ الخير، أيتها اللامعة في موكب الشمس

صباحُ الخير، أيتها القادمة من شعاع الأساطير، وبطون الكتب

صباحُ الخير، أيتها المسافرة في طرق الخيال.

صبـاحُ الخير، أيتها المنحوتة من رموش السـعف، أيتها العالية كقامات النخيل.

أحبكِ

لأنَّ الآخـرَ النقيَّ، الذي لم يظهر من قبل، يشبُ جميلاً كالغزال، من داخلي.

لأنني أقبض عـلى الخيـط اللانهائـي لطائـرتي الورقيـة، التي فقدتُّها، دفعةً واحدة، في الطفولة،

ولأنَّ الرعـبَ يتوقف عن التناسـل، يتبخرُ اليـأسُ، والملائكةُ تعود إلى العمل، عندما أحبكِ..

بطاقة الطرد من القطيع

يا دافئتي في العراء، منطقتي في الحب، وجريمتي في الكتابة: يا كثيرةَ الكمائن، ويا حريتي: يؤلمني أن أقفَ عاجزاً عن الفعل الذي يناسبكِ، فأنتِ الأنقى، مهما كنتُ نظيفاً.

يجرحني أن أكون قليلاً، أن يتضاءلَ نوري بحضوركِ، مهما زدتُ، فأنتِ المضاءةُ بنور الحب، مهما كنتُ جميلاً: يا نبوغَ دمعة، وابتسامة جرح.

يا عشتاري، يا إطلاقتي الطائشة، ويا أهدافي: يخرجني عن طوري أن لا يمكنُ أن أكون ملاكاً مثلَكِ، شاسعاً مثلكِ، وكثيرا مثلكِ.

يجرحني حقا أن أكتبكِ بهذه الطريقة: يا سياجَ بيتي، يا بيتي المفقود في العواصف. يا خرافتي يا يأسي، يا بطاقةَ الطرد من القطيع.

يداخلني الشعورُ بالخيانة: أن أجعلكِ مُشاعةً وأنتِ العزلةُ، جوهرَها ولمعانَها، أن أفضحكِ وأنتِ السرُّ، وأن أخلطكِ بي، أنا الناصعُ الحزن، وأنتِ البهجة بكامل أناقتها!

قوارب الاستعارات

عندمـا رأيتـكِ، أوّلَ مرة، طـافَ حول رأسي العطرُ، شـملني جمالُـكِ بالرعـب وبالأمان، فسـقطتُ من هول الحمـى، ولم أركِ حين مشى خلفي موكبٌ من اليأس، ومن الشموس..

عندمـا أحببتـكِ عرفـتُ كم هو محصـولي من الـبرق، كم هي رغبتكِ بالخطر، وكم علينا أن نطويَ الأرضَ إلى ما خلف الملاك، أو إلى ما قبل الشيطان.

عندمـا امتزجتُ بكِ مسَّ قلبي شـعاعٌ غامض، و حط قلبُكِ، مثلَ فراشة، فوق كتفي:

صرتُ وردة.

صرتُ ناراً.

وبين الوردة والنار وُلدتْ قصائدُ لا تُكتب، لأنها من جنسكِ، الـذي لا تطولـه المجـازاتُ، وتغـرقُ، في الطريـق إليـه، قـواربُ الاستعارات..

الجريمة العادلة

لا أعرف أعجوبة كالحب: يكسرُني وأحبكِ.

لا أعرف أحدا يحبكِ، مثلَ حبي، لأضيفه إلى حبي وأحبكِ.

يـا متفرقـةً، يـا واحـدة، يا يتيمـة، يا معبـودة، يا مكسـورةً، يا سـاحرة. يـا سـفيرةَ الينابيـعِ إلى الوديان، أيتهـا القطرةُ، يـا كثافةَ الرمل، واكتنازَ جسدي بالواحات وبالعطش.

أنتِ مَن انتظرتك في الموعد، قبل الموعد، وبعده.

أنتِ مَن وصل بعد فوات الأوان، في الأوان، وقبله.

أنتِ مَن خرّبَ الزمنَ، وهطل غزيراً بالطفولة.

أنتِ من وعدتكِ أن أخونكِ مع كل امرأة،

وأنتِ جميعُ مَن خنتُ ومَن أحببتُ.

أنتِ الشاردةُ من جمالكِ، إلى جمالكِ، كماءٍ يصعد عائداً إلى نبعه.

وأنا اللغةُ التي ترسمكِ نقيةً كالندى،

معزولة كالندى، وعطشانةً إلى نفسها كالندى.

لا أعرف معجزةً كالحب: يمزقني فأُلمُّكِ.

يجرحني فأُشفِيكِ.

لا أعرف أحداً يحبكِ مثلَ حبي، لأُضيفه إلى حبي وأحبكِ.

لا أعرف سحراً كالصمت، صمتكِ، وسكوتي وأنا أنحدر من حبي لكِ إلى حبي لكِ.

لا أعرف هاوية أعمق من هذا.

لا أعرف جريمةً عادلةً كموتي من الغناء، ومن الحب.

عندما تلعثم البرق على شفتيك

ارتبكتُ حينَ رأيتكِ، في تلك اللحظة، التي خسرتُ فيها الألمَ والحب معاً، مثلَ وتر مقطوع، فجأة، مسّه الطربُ.

لم أنكسر، لكنني تهدمتُ، ومع ذلك أكملتُ مَهمَّتي، وسألتكِ إن كان ممكناً ذرفُ دمعة من حنانكِ، لأجل هذا الحطام؟!

لم أنطق إلا بهذا، لأنكِ تعثّرتِ، وفتح الزحامُ ذراعيه الواسعتين فأبتلعَكِ: غرقتِ فيه، ولحقتُك، كما لو جاءني الوحيُ بالرسالة: إن أصدقَ تعبيرٍ عن الحب، هو ذلك المخبوءُ، في الكلام المتعثر، الذي رأيتُه جلياً، عندما أشرقَ شحوبُ وجهكِ، وتلعثم البرقُ على شفتيكِ.

روح القمح

عندما جرّب أجدادي رسمَ وجهكِ على الطين، شعّتْ المعرفةُ في باطنهم، رفرفتْ الحريةُ بأجنحتها الألف، فابتكروا الكتابة.

عندما كتبتُ اسمكِ هبطَ عصفورٌ.

وعندما مزّقتُ الورقة طار، حاملاً بمنقاره حزمةَ سنابل، هي اسمُكِ، يا روحَ القمح، يا بدن الرغبة، يا حاملة الريح والمشاعل..

أسطورتكِ

كنتُ الصبيّ في المقهى، الصبي الأشقر الروح، الذي يلتقطُ أخبارَ النساء عبر الرجال القادمين من المدن البعيدة، ولا أجد فيها أخبارا عن صبيتي التي رأيتها عاريةً، كالنور في منامي، فاخترعتكِ: اخترعتُ أخبارا تجعلُ منكِ إلهة الأزقة، مصباحَ كلّ بيت، وصرخةَ الجمال في الأفلام والروايات، ثم صرتُ أرويها، أخبارَكِ، على الصِبية في الليل، وفي النهار كنتُ أستقبلُ صدى ضحكتكِ، لأنكِ صرتِ حقيقية جدا، لفرط ما آمن بكِ الرجالُ، رجالُ المقهى، الذين تسرّبتْ إليهم حكاياتي، حتى استبدّ بهم الشوقُ، فسافروا إليكِ في مدن الخيال، ثم عادوا بحكاياتٍ أخرى.

هكذا تكوّنتْ أسطورتُكِ، وهكذا أقاموا في المقهى، ولم يعودوا إلى نسائهم في المدن البعيدة، بل صاروا يَقصّونَ أخباركِ.

رأيتكِ في البلدة التي لا اسم لها

رأيتُكِ في البلدة التي لا اسمَ لها، وليس لها في الخرائط من مكان. كنتُ يقظاً حين رأيتكِ، لكنّ دخانا من نعاس مروركِ أحاطني، ثم جاء النومُ بثوبه الأبيض، فنمتُ ورأيتكِ أيضا.

هكذا واصلتِ الخفاءَ والتجليَ.

هكذا لبثتُ أبحثُ عن خيطٍ ما قد يقودني إلى حلّ اللغز: لغزِ حنيني إلى ما هو غامضٌ في الحنين، الذي يشوبُ قسماتِ وجهكِ: لغز شغفي في أن أتيه في مجاهل مروركِ الخاطف، أين ما ولّيتُ وجهي، لأن وجهكِ يشرقُ، دائما، من جهة غير متوقعة: يطوفُ بي في أماكن غريبة، في مدائن لم تخلق، وفي أزقةٍ تتلوى حياتي في منعطفاتها، فلا أخرج منها إلا قد أضحيتُ غريبا: لا أعرفُني، رغمَ أن أبطال الروايات، العشاقَ المرسومينَ على أقمشة اللوحات، وقتلى الحب على شاشات السينما، يعرفونني تماما..

أحيانا،

تحت المطر، وفي البرد، أعثرُ على يديكِ في جيوب معطفي.

يحدثُ، أحيانا، أن أجد وردة قرب وسادتي، فأتذكرُ أنكِ رميتِ بها نحوي، وأنا في المنام، كأنكِ اخترقتِ الزمن، عبرتِ العصور، وكسرتِ حاجز النواميس، من أجل أن تحرثي أرض قلبي: من

أجل أن ترسمي بَصمتكِ الخاصةَ على جدران وجودي، أو من أجل أن أتجاوزَني، لأصلَ إلى النقطة التي يصبحُ فيها اللاشيءُ كنزاً لا يفنى.

هل أنتِ المرأة التي أحبُ؟

المرأة المستحيلة:

ساحرتي المتخيّلةُ، طفلتي، ومأزقي الذي أجدني من خلاله شاعرا، كلما أعطتْ شجرةُ اليأسِ ثمارَ القنوط، وعاكستني الظروفُ؟

هل أنتِ بهجتي التي، رغماً عن الطوفان، تؤدي رقصتَها على يابسة، لم تصل إليها الحمامةُ بعد؟!

آه، في البلدة التي لا اسم لها رأيتكِ، ورأيتُك رغم أنني لم أكن هناك: تبعتكِ رغم أنكِ مثلُ طيف، يمرُّ من خلالي، وأتشعبُ من خلاله: أصيرُ شعوبا تسيرُ خلفكِ، وأنتِ إلى اللامكان تذهبين، فتنقلين معكِ الأمكنةَ، الطرقَ والبشرَ، ومن الرحيق، الذي ينشره مرورُكِ، تولد قصائدُ عاثرةُ الحظ مثلَ قصائدي: تولدُ مصاطبٌ لعشاق ينتظرون شيئا لا يفهمونه، وتنبجسُ، من بين أقدامهم الضائعة، في الغبار، ينابيعُ من الدهشة، سرعانَ ما تزول بزوال رحيقكِ..

امرأة الفراشات

أنا امرأةٌ من خيالِ الخيال، استعارني العشّاقُ من أجل الأغاني، وكتبني الرواةُ في حكاياتهم. كلُّ واحد من هؤلاء شَعر أن شيئاً ما ينقصني، فشحذ خياله وابتكره، استجابةً لحاجتِه الداخلية.

هناك ممثلاتٌ كثيراتٌ اتخذنَ مني بطلةً، فظهرتُ على شاشة أحلامهن بأطوار مختلفة، حسب خضّة الجمال في أرواحهن، كما أن الرسّامين رسموني على أقمشة لوحاتهم، كلَّ مرة بشكلٍ، فكنتُ أتجول عاريةً طوراً، أو محتشمةً في طور آخر، بين ألوانهم.

المؤرخون ذكروني أيضا، مرةً ملكة، مرةً صعلوكة ضائعة، ومراتٍ إلهة في المعابد، أثناء ذلك تناوب على خلقي عددٌ لا يحصى من الشعراء، أرسلوني قبلة في الهواء، فأنقذوني من المجازر، ثم بكوا ـ من شدة غيابي ـ على الأطلال، لأنهم كانوا يعتقدون أنني معجزةٌ تُنقذ الغرقى في البحر، الجنودَ الجرحى في خنادق الحروب، أو الخائبين في الحب والمجانين من شحّة الغرام.

وها إني أمامكَ، الآن: مُلكُكَ وبين يديكَ. لقد ألقى الخيالُ بقاربي على ساحل شِعركَ، فاكتبني كما أنا. حاول أن تكشطَ عن سحنتي، جلدي وروحي، جميعَ الصفات التي لا أملكها، إذ أنهم مسخوني إلى امرأة أخرى، فلم أعد تلك الطفلةَ الحافيةَ، التي

تلعبُ مع العشب، وتتشاجر مع العصافير، لأنني صرتُ مسؤولةً عن معجزاتٍ لم تحصل، عن معارك لم أخضها، وعن شعوب تقتل نفسَها نتيجةَ اليأس، أو الفرح، وتزعم أن ذلك بسببي.

افعـلْ ذلـك، فقد اشـتقتُ لفطـرتي الأولى، إلى بـراءتي البكر، كامـرأةٍ عاديـة جدا، سـوى أننـي عندما أحـزن، عندمـا يهجرني الحـبُّ، أو عندمـا اختنـق بالاشـتياق، أنضو عني ثيـاب آدميتي، وأمـشي على الماء أو فوق الجمر، غـير آبهةٍ بشيء، فيما العالمُ بقضه وقضيضه، يقذفني بالحجارة، فأشـعر بالحنوِّ وبالشفقة عليه، لأنه لا يرى حجارتَه وهي تتحول، قبل أن تلامسني، إلى فراشات..

القلب اليقظ

أعنـي البـلادَ التـي أردتُ أنْ أسـكنَ، حين اتخذتُ مـن قلبكِ مأوىً: أنا الذي هربتُ من أمان البيت إلى اضطراب وقلق الكتابة، ولّمـا التقيتكِ أيقنتُ، تماما، أنني التقيـتُ بالمصير الذي لم يكتبْهُ إلا الحـبُّ على جبيني، فلم أتـرددْ في قبولكِ كمعجزةٍ، لا جدوى من حدوثهـا، لأنني ـ أثناء ذلك الطوافِ حـولَ مركز الخفّة ـ تدرّبتُ على الألم، و تسـمّمتُ بفكرة أنْ يكونَ الحبُّ قاتلا باطلاقةٍ طائشةٍ تُطلقينها، فلا تصيب أحدا من قاتليكِ، وتذبحني.

لن أتوقفَ عن هذا الحب اليائس، المُخضّب باخضرار الربيع، ولا عن هذا الشِعر، ذلك أنّ أقصى ما يقولُهُ القلب اليقظ لتفسير العـالم هـو هـذا التأرجـح بين الرفـض من داخـل القبـول، وبين الإذعان الذي جوهرُهُ الرفض..

المرة الأخيرة للبحر

وهو يبتكرُ، من الشِعر، كهيئة إنسان، ثم ينفخُ فيه، فيصير امرأة.
وهو يغني: يا خالدتي، يا نجمتي، يا مأزقي الفاتن، ويا عصفورتي.

كانت، عندما يجوعُ، تخبزُ له يديها،
وإذا ما حشرجَ البرقُ بين أضلاعه، وهطلَ المساءُ، رتّبتْ، بأنفاسِها، أناقة النفير.

وهو يضرِبُ عن الموج، يخاصمُ الخلجان،
ويتسرّب من شقوق أشواقه،
ذاهبا إلى الليل،
عائدا لشَعرها بسلّة النجوم.

كانت تقول: إنكَ تفعلُ ما يُقلق الشيطان،
وكانت تقول، وتقول..

وهو ينبشُ مجرّة الشك، ويطرحُ السؤالَ تلو السؤال.
وهو يتنقلُ بين الأطوار.
وهو يصرخُ: أريني أنظرُ إليك،
تذكّرَ
أنها مرَّته الأخيرة، كبحر.

فكرتي عنكِ

الفراشـةُ، التي طارتْ من السّـطر، كانت قُبلةً خائفةً، سقطتْ مـن شـفتينِ مُرتبكتين، أتأملُها بحـزن، لأنها تشـعرُ بالرّعبِ، من البرد القارس، في عصرنا الشـائِك: لن أفزعَها بحركةٍ إعرابيّة، لنْ أرفعَها أو أنصبَها، ولن أسجنَها في حقلِ قصيدة؛ سيَغمرُها الغُبار أو سَـيقضمُها جرادُ النسـيان: سـأتركها تحومُ عـلى هواها، حولَ رأسي، حيثُ تشعُّ نيرانُ فكرتي عنكِ..

النبع

أفتقدُ صوتكِ الذي يأخذني إلى النبع، الذي بحثَ عنه الشعراءُ في الشِعر، ومنقبّو الآثار في الخرائط: ذلك النبعُ المسحور، الذي قطرةٌ منه تجعلُ الأبدَ في متناول اليد، والحياة طويلة، كشَعركِ الذي يسيلُ في النبعِ، ويسيلُ معه صوتكِ والشعراء والرحالة والأبد.

أفتقدُ صوتكِ المخضّب بالأبد.

حسرات وبلور

أنـتِ حمامةُ الطوفـان التي، من هديلها، وُلِدتْ اليابسـةُ، ومن رفيف أجنحتها تَكوّن النسيمُ، وعثر الهواءُ على رئتيه، كما إنكِ اليدُ التي أشـاعت النورَ في داخلي: أنا الحجرُ الملقى في طريقكِ، الذي رفعتـه يدُ القـدرة، قدرتكِ، إلى الأعلى، فصار فريسـةَ صعودِه إلى صدركِ، حتى فتّـته الطموحُ، فتحوّل إلى حسرات وبلور..

جاء في أخبارِكِ

جاء في أخبارِكِ أن شاعرا كتبَ أغنية عن صَبيةٍ رآها في منامه، وأن الأغنية عندما وصلتْ إليكِ رأيتِ الشاعرَ في المنام، فخرجتِ باحثةً عنه بين المدن، حتى تشعّبتِ في البلدان، وتفرقتْ روحُكِ بين القصائد والأغاني.

كنتِ تسألين عنه الحيارى والمجانين والغرباء والسكارى والأنبياء والصعاليك والفلاسفة، وما كنتِ تعرفين أنكِ كنتِ تسألينه، هو الذي تفرّق في هؤلاء، وتشعّبتْ روحُه بين أجسادهم، بحثا عنكِ في البلدان والقصائد والأغاني..

غادرني الجميعُ

غـادرني الجميعُ: الجميعُ غادروا، غـادروا جميعاً، باحثين عنكِ في الكتب، في السينما، في الأزقة، وفي خوابي العالم.

شعراء يطيرون في الهواء.

متصوفة يتخللون مَسَام الخطر صوب المطلق.

أنبياءٌ في الآبار، في البراري، على الصلبان، وفي عزلة الكهوف.

رسّامون في العراء، ومنقبو آثار في الخرائب:

كلهم توزعوا بحثاً عنك في الجهات، وفي الزمن،

و وحدَكِ، وحدَكِ أنتِ، وحدَكِ بكامل جمالكِ الصّاعق، بكامل رغبتك الطائشـة، بكامـل نحولـكِ وقوتكِ، بكامل هشاشـتكِ، واتساع حدودكِ، وحدكِ

آه

وحدكِ، وحدكِ.. بقيتِ معي..

أسطورة المرأة الهاربة في الزمن

كانـوا يحبونكِ كـما لو أنهم لم يحبـوا من قبل، هـم الذين أحبوا قبلكِ قبائلَ من النسـاء، إضافة إلى طوائف من الصبايا، اجترحوا أوصافهـنّ مـن الكتبِ، ومن أزقـة الخيالِ، لكنهـم أحبوكِ لأنهم أحبوكِ في كلّ امرأة، قال الشعر: إنها امرأة..

كانـوا يحبونـكِ، رغم أنهم يعرفـونَ تماما أنـكِ لا تحبين أحدا، لأنهـم كانوا يعثـرون على خطـوات بعضهم البعـض فوق أرض روحـكِ، وكانوا يحبونكِ رغم ذلك، لأنهـم يفهمونَ أنكِ مخلوقةٌ هشـّة مثلهم..

كانوا يحبونكِ، وكانوا ـ فوق ذلك ـ يعلمونَ أنكِ ستهجرينهم دفعة واحدة، لذلك كانوا يتهيئون، ويعزمون على أن يتيهوا وراءك في الأرض، حتـى يعثروا على آثاركِ في المـرافيء، وفي الحانات: في الأزقة والسـفن والفنادق، لأنكِ امرأةٌ حقيقيةٌ جدا، كحقيقةِ أنكِ خرجـتِ من هذه القصيـدة، وتوزعتِ على القراء، في جميع العالم، رقةً وحنانا: روحا وجسدا، وقبلة.

كانوا واثقين أنهم سـيجدونكِ، وأنهم سـينتحبونَ على أكتاف بعضهم البعض، لأنكِ سـتلعبين اللعبة ذاتهـا في مكان آخر، وأن

عشـاقكِ هنـاك يحبونكِ كـما لو أنهم لم يحبـوا من قبل، هـم الذين أحبـوا قبلكِ قبائلَ من النسـاء، إضافـة إلى طوائف من الحوريات والصبايـا، اجترحـوا أوصافهـن من الكتـبِ، ومن أزقـة الخيالِ، لكنهم أحبوكِ لأنهم أحبوكِ في كل امرأة قال الشِعر: إنها امرأةٌ..

سيلبثون هكذا، يتوالدونَ من خلالكِ: يتكاثرونَ في الفصول، في الثـورات، وفي العواصـف، وسـيؤلفون عنـكِ كتبا وأسـاطير وأغاني، وسـتلبثين خالدة: تنبعثين مع كل مطر يسـقط فوق هامة الغريب، مع كلّ بحة ناي، ومع كلّ نافذة تفتحها العاصفةُ، فتطيرُ العصافيرُ من ثيابهم المنشورة على حبال غسيل العالم ..

سـيتوارونَ، في النسـيان، غـيرَ عابئـين، لأنهم كانـوا يحبونكِ، كـما لم يحبـوا من قبلكِ، هم الذيـن أحبوا قبلكِ قبائلَ من النسـاء، إضافـة إلى طوائف من الحوريات والصبايـا، اجترحوا أوصافهنَّ من الكتبِ، ومن أزقة الخيالِ، لكنهم أحبوك لأنهم أحبوكِ في كل امرأة قال الشعر: إنها امرأة..

أحشاء قصائدي

ليس من الشِعر أن أحبكِ دون أن أشعر بالخوف، لأنكِ باسلةٌ، كريشة تطيرُ آمنةً بين العواصف.

ليس من الحب أن أشعر بالأمان، لأنكِ مفقودتي سلفاً، قبل أن أحبكِ، قبل أن تذوبي في الحضارات، فيضيعُ اسمُكِ بين المشاعل والحرائق.

ليس من الحب أن لا أعرفك، وأن تعتقد الصبايا، كلُّ الصبايا، انكِ تفرشين نهاري طُرُقاً من الورد، وتشعلين ليلي بعطر حضورك الساحر، لكنّه من الحب أن لا تعرفيني، وأنا أتلوى بين أحشاء قصائدي بحثاً عنكِ، و لا أجد امرأة تشبهكِ هناك..

عشتار

ضمنتُ أنكِ سعيدة بي، كشاعر يلعبُ باللغة، من أجل أن يخصّب، في أرض نومكِ، حلمَه العصيَّ على التحقق.

ضمنتُ أنكِ مخلوقة من أجل أن أرفسَ المدرسةَ، البيتَ، وأن أهدم تماثيلَ سجدتُ لها كثيراً، منها: أنتِ، معبودتي التي تتمرّدُ على الطين الذي صنعتها منه.

ضمنتُ أنكِ، كلَّ ليلة تنامين، مع الجنود في الثكنات، وترافقين الشعراء في الحانات والمقاهي.

ضمنتُ أن كلَّ امرأة هي أنتِ، وأنكِ لستِ امرأة واحدة، ولا متعددة..

ضمنتُ أنني سأطوف العالم، متعقباً آثاركِ، وأنكِ لستِ لي، أبداً.

سلكتُ نفسَ الطريق الذي أتيتِ منه

كنتُ مجروحاً ومعافى، ومريضاً كنتُ، وكنتُ سكرانَ وصاحياً:

كنتُ أريدُ أن أعرفَ كيف كان يفكرُ الترابُ، وأنت تزرعين خطواتكِ عليه؟ بماذا تشعرُ الأرضُ، عندما تخفقُ روحُكِ فوق أطراف ثوبها، وماذا تقول الشمسُ، بماذا تلتقي مراتها عندما تخترقُ أشعة رأسكِ؟

كنتُ حريصاً على أن ألملمَ حسراتكِ التي زرعتْ بصماتها على الغبار.

كنتُ حريصاً على أن أشمَّ لهفتكِ في الهواء، في المطر، في العاصفة، وفي البرد.

كنتُ حريصاً على أن أنهبَ وجهكِ، مثل ثمرة، من شجرة العالم.

كنتُ خائفاً، ومضطرباً، وكنتُ أفركُ شجاعتي ببريق ضحكتك..

سلكتُ نفسَ الطريق الذي أتيتِ منه، ومشيتُ:

كان اليأسُ يصلُ مبكرا، وكنتُ أتعمّد التأخير، متنعما بالأمل مرة، وبالوهم مرات.

ومشـيتُ: مشـيتُ طويـلاً، مشـيتُ في كلِّ مـشيٍ، مشـيتُ في الوقوف وفي كل هلاك، في كلّ فريسة، وفي كل يأسٍ.

تسلقتُ همّاً من الجبال، هبطتُ ظلاماً من الوديان، سبحتُ في دمعةٍ كالنهر، وعالياً طار بي الدخانُ: قطعتني كلَّ مسافة، رغم أني أعرف تماما أنكِ لم تتركي إشارة تدلّ عليكِ.

آه،

لا إشـارة منـك أو عنكِ أو عليكِ، حتـى توّزعتُ هنا وهناك، وصرتُ كثيرا..

أغنية إلى سيدوري[1] معاصرة

لـن تغيـّر هذه الأغنيةُ من الحاضر شـيئا، فليس ثمة مَن أمسـكَ بالغيمـة من أمطارِها، كما أنَّ الصحراءَ، منذ أول ذرة رمل، مصمّمةٌ على البقاء كما هي، مع ذلك فالشِعرُ يبدو مصمِّماً على أن ينتزعَ المصيرَ من مصيره: هذا الجدلُ ينفعكِ، ربما، لحدِّ الفراغ عند حدِّهِ.

لقـد حصل ما حصل قبـل أن تلتحقي بمتاهة حيـاتي العاثرة، التـي لا أذكرُ أين، بأقدام أيّـةِ عاصفة ربطتُ رأس خيطها، فليس ثمةَ حانةٌ ولا سيدوري، لكنكِ مصمِّمةٌ على أن تلعبي دورَها.

لكلّ منا خطيئتُه، فعلامَ الترفـّعُ؟!

ما الرِفعةُ،

إن لم تكن هذا الاعترافَ؟!

لسـتُ أحبكِ لأنـكِ الأقوى من الحـبِ، ولن أكرهـكِ لأنكِ الأرقُّ مـن ذلـك، وكلُّ هـذا، كـما كلِّ ذاك، لـن يغيّر شـيئا، رغم أني تمزقـتُ بينـكِ وبينكِ، سـقطتُ وقمتُ بينـكِ وبينكِ، ربحتُ وخـسرتُ بينكِ وبينكِ، ثم توارايتُ مـن بينكِ وبينكِ، حتى أنني لم أعـد أذكرُ مـا كان بينكِ وبينكِ، أما الحـب فليس الحكمة، و لا خفقة القلب: هو كلُ ما ليس بينكِ وبينكِ.

(١) سيدوري: صاحبة الحانة في ملحمة جلجامش، التي تنصحه بعبث رحلة الخلود

الحبُ يتيمٌ يعطي الآباءَ صفاتٍ أعلى من هاماتهم.

هو

رسّامٌ في قفر، يرسمُ وردة.

هو شاعرٌ

في محنةٍ، يقترحُ خصوماً أليَــقَ.

كان يمكنـكِ، بقليـلٍ من القـوارب، أن توقظي السـاحلَ من قيلولته المهورة بقلبكِ، الذي مزقته ريحٌ تركضُ خلف أقدامها، منذ بداية الهواء.

كان يمكنـكِ، بقليل من النعاس، أن تمنحي النوم إجازة، وأن ترفعي عن السهاد عناءَ أن يكون شاهدي على فصامكِ بين الحب واللاحب، فلسـتُ جلجامـشَ أصلاً، وإذا كان ذلـك مما يجعلكِ فاتنةَ العالم فلا سفينةَ، في الأفق، إلا نسيانُ وجهكِ.

لا خلـودَ إلا في الفرار منكِ: أنتِ الأفعـى التي تبتلعُ كل قادم نحو قلبها، حتى لو كان هو الطوفانَ نفسه.

أصرخُ بـكِ، وأنـا أشربُ الـكأسَ، في كل حانـةٍ تنتظرني فيها نصيحتُـكِ الماكرةُ.

أنا هبوبٌ غامضٌ داخل نفسي: لا أقوى على رفع ريشة، رغم أنكِ تطيرين فيّ، وفي كل مرة تسقطين لأنكِ، دائما، في غير مكانكِ المناسب.

البلور الذي يخون لمعانه

كان فمُــكِ الفتيـلَ الـذي يـسرجُ النـورَ في بدن الثمـرة، وهو يعـلنُ اندلاع الربيع.

كانـت كلمتُكِ شـافيةً: نومُكِ ناصعُ السريـر، يزخ الفجرَ على هضبة الغيـوم، لكنكِ تراجعتِ عن دور الوردة لصالح الخريف، تاركةً إياي وجها لوجه أمام مرايا الصحراء، التي تعكسكِ سرابا.

أنـا عاشـقكِ، الذي تلطـمُ الفصـولُ على صدرها مـن أجلي: أتـّهمـكِ بالملح الذي يبني سـياجا من الألم، ليصـدَّ، عن الجرحِ، نسـمة الشـفاء: حصل ذلك مذ خسرتْ يدكِ وظيفتهـا، فلم تعدَ تهـش الظلام.

أنا جريمتُـكِ: طيشُكِ، وتقلباتُ مزاج خصبكِ.

لي الجحيمُ، النارُ ولسعةُ اللهب، ولكِ نَهَمُ أن تبطشي بالأغاني.

لن أحبك مهما كانت عودتُـكِ مسـبوكةً بخطـى القبل، فأنتِ الموجـةُ التي، بقليل من البلل، انفصلتْ عن زرقتها، ولن أكرهكِ أيضا، لأن ذلـك يستحقُ عـناءً لا تستحقينه: أنتِ البـلـورُ، الذي يخـونُ حـتى لمعانه..

موسيقى

لم أركِ كما أشعرُ، أو كما توهمتُكِ، أو كما تتناسبين مع قدرتي على العيش في كنفِ امرأةٍ بسيطة، أكثرَ من بساطتي، فأنا ممتلئٌ ببهجة المشي في ضباب نفسي، ومحشوٌ بحزن يُشعلني شموعاً على طاولات السهر.

لقد وصلتكِ مبتلاً بشِجارِ العصافير على حبة قمح، فوجدتُكِ آهلةً بالحقول وبشمس السنابل. شعرتُ حينها بموجة من الرعب، فلم أتقدم أكثرَ: لبثتُ أنظرُ إلى خطوط الحظ المرسومة في صحن راحتيّ، بحثاً عن نسمةٍ ترفعني إلى مقام أجنحتكِ كالريشة، وعندما لم أجدْها لم أفعل شيئاً، سوى أن أعود إلى المشي في ضباب نفسي، أو أن أعيش عابراً في كهوف الكتابة، لكن.. لأنّكِ أكثرُ من أن يحتويكِ كتابٌ، صرتُ أفيضُكِ حتى في حماقاتي، فبسببك صارت أغلاطي قصائد، وعجزي عن الغناء، تحت نافذتك، موسيقى..

قسمة عادلة

افترقنا، مثلَ قاربين ضربهما إعصارٌ غاضب، فتهشمتْ الأغنيةُ، تهرأ اللحنُ، وسقطتْ الكلماتُ، من على شفاهنا، وتحوّلتْ، في الماء، إلى أسماك.

لكِ الأمانُ، الذي يجعل منكِ امرأةً يشعُّ من وجهها الفرحُ. لكِ الحريةُ بأجراسها، ولكِ الطيرانُ، الذي يمنحك شغفَ التخريبِ، ويجعلُ منكِ طفلةً شاقةً تقلبُ القوانينَ، تجذبُ البرقَ ليضربَ التقاليدَ، وينسفَ سقف العائلة.

لي المرارةُ، سرُّ الشعر وجوهرُه.

وهذه قسمةٌ عادلة!

دموع

الملاكُ على كتفكِ الأيمن يسألُ الملاكَ على كتفكِ الأيسر:
ماذا يكتبُ، عندما تكتبين قبلاتك على فمي، فينصحه بأن يمزق أوراقه:

- " الله لا يؤاخذنا إن لم نستطع كتابةَ المطر، كما يكتبه هذان العاشقان"

ها أني، بعد أن افترقنا، أجمعُ دموعَ الملاكَين، لتسيل في وديان هذه القصيدة.

الليل الغاطس بالوحل حتى ركبتيه

أتشمّسُ في باحة ذكرى ضحكتكِ النقيـة، أو أترنّم بعزلتي:
عزلةُ الشعلة عن النار، واثقاً من أنَّ لا موسمَ لقطافكِ، لأنكِ مثلُ
حلم، لا يمكن نسيانُه أو تفاديه، إلا بتغذيتِه بالوهم، وكنتُ أفعلُ
أكثرَ مما يتطلبه أمرٌ ميؤوسٌ منه، كأن أتدرّبَ على تسلق خيوط
اليأس، ثم أسقطُ مضرَّجاً بالهاوية.

لا أحدَ يجذبني إلى لمعانه، بعد أن لعبتُ دورَ الخيط في جسد
شمعتكِ، حتى نفد الخيط. وها إني أرغبُ أن أبقى في الظل، بعيداً
عن ضجة العالم، مكتفياً بأن أعيشَ في أمانٍ مع غيابكِ، تحت سقف
واحد، ولا نفعلُ شيئا، سوى أن نتعانقَ، بحرارة ودفء، ونحن
ننظر، من النافذة، إلى الليل الغاطس بالوحل، حتى ركبتيه..

يفكرون مثل شجرة

كانـوا قليلينَ جـدّا أولئكَ الذيـن أحبوكِ عن صـدق، لدرجةِ أنـكِ لم تُعـيري ذلكَ أهمّيةً ما عندما خرجـوا من حياتكِ بحثا عن امرأةٍ تُشـبهكِ، ولم يكنْ مُفاجئاً لهم حين عادوا خائبين، فوجدوكِ وحيـدةً، وقد تفرّق عنكِ عشّـاقُكِ الألفُ: مهجـورةً كنتِ، مثل شجرةٍ ذابلةٍ.

اكتفوا بأنْ يَسـتريحوا عند ظلالـكِ، فقد كانـوا يُحبّونكِ ذابلة، أصلاً.

موسيقى كونية

العصفورُ الذي طافَ العالمَ، كي ينقلَ الرسالةَ، سقطَ ميّتاً في الطريق. من القصب الذي نبتَ حول جثته صنعَ الرّعاةُ ناياتِهم، التي كلمّا نفخوا فيها من أشواقَهم انطلقتْ، من ثقوبها، عصافيرُ لا تُحصى، تطوفُ العالمَ، ثم تسقطُ ميتة، قبلَ أنْ تصل، ليأتي الرّعاةُ، جميعُ رُعاةِ العالم، ليصنعوا من القصب النابتِ حول الأجساد ناياتٍ، كلمّا عزفوا اسمكِ انطلقتْ من ثقوبها عصافيرُ تطوفُ العالمَ، كي تنقلَ إليكِ الرسالةَ..

مركز الثقل

هـذه الأشـياءُ التي أحتفظ بها، أنقلها معـي أين ما حللتُ، أو أضعها تحت وسـادتي حين أنامُ. لم تجذب أصحـابي لمعرفة سرِّها، ولم يفكروا في كونها تمثِّـلُ مركزَ الثقل في حياتي: خصلةُ شعر، قلمُ رصـاص، صورةُ امـرأة مبللةٍ بالمطر، ضاعت تفاصيلُ جسـدها، زرُ مـن أزرار قميص، ملابـس داخلية، وردة ذابلـة، لكنها مبللة بقبلات لا تزال دافئة، مع ندبة أو خدش على جهة القلب..

كنـتُ الغريـبَ دائـما، الغريـبَ الوحيـدَ بين همسـاتهم، عندما أخيرا، وفي لحظة ضعف، أخبرتُهم عن السرّ.

لا أعرف كيف سـمحتُ لنفسي أن أكون مُشـاعا بهذا الشكل المؤسـف، فهـذه الأشـياءُ الصغـيرةُ، العابـرةُ، والتـي لا قيمـةَ لها في نظـر الآخريـن، كانت لـكِ، للكِ وحـدكِ، وهنا تكمـن قيمتُها الكبرى، فهي أدلّةٌ دامغةٌ على أننا كنا عاشـقَـين من طراز نادر، فما حـدث من انصهار وذوبان في الآخر، لم يكن قد جرى في الواقع، بل في منام، لا يريد أن يصدقّه أحدٌ..

أعجوبة العجائب

إلى رشيد وحتي

عندما شاع الخبرُ: أنكِ عصيةٌ على التناول، غامضةٌ، ولا يمكن الإمساكُ بلمحة، لمحة واحدة، من جمالكِ، وأنَّ الرسامين، النحّاتين وروّادَ الخيال، عجزوا عن تصوركِ، وأنَّ كلَّ مَن جسّدكِ في صورة، في أغنية، أو في تمثال، خرَّ صعقاً من الدهشة، إذ سرعانَ ما تتحرك فيه الحياةُ، فتخرجين من الحجر، دون أن يشعرَ، ودون أن يتمكن من الإمساك بكِ.

عندما وصل خبرُ إعجازك فكّرَ الناسُ في اصطيادكِ، بأن نصبوا مرايا كثيرة في كلّ مكان، في الشرق والشمال والغرب والجنوب، وعند النوافذ والأبواب والمداخل والممرات والشوارع، ثم انتظروا ظهورَكِ، ولم يخطر لهم أنكِ كنتِ بينهم، تنظرين بإشفاق إلى التوتر الذي شلّ المدينةَ بأكملها، وهذا ما حفّزكِ على أن تكسري التوقعات، وأن تكوني أعجوبةَ العجائب، فظهرتِ ورأوكِ: كلّ واحد رآكِ في مرآته بشكل، وكانت المفاجأة أنكِ لستِ غريبةً عنهم، فكلُّهم يعرفونكِ، وكلُّهم شاهدوك في أحلامهم، كتبوكِ في أشعارهم، وترنموا بجمالك في أغانيهم، لأنهم كانوا بحاجة إلى أسطورةٍ تناغمُ حاجتَهم الداخليةَ، فخرجتِ من كل مرآة، مشيتِ عاريةً أمامهم، ولم يتحرّكوا قيد أنملة، فقد صعقهم النورُ، نورُكِ الذي صنعته مخيلتُهم، ولم يعودوا إلى حياتهم، إلا بعد أن اختفيتِ، إلا بعد أن صاروا يطيرون في الهواء، كالمجانين..

أغنيةُ فقدانكِ

خرّبتـُكِ قـَدرَ عنايتي، وأعطيتـُكِ دورَ الكتفين، لكن رأسي كان مخبولا فلم يستقرَّ بينهما.

الآن أكتبُ أغنية فقدانكِ، موزعا صرختي بين سطورها، من مقطعٍ إلى آخر، مثل ماء لا يؤكد وجوده إلا بالانتقال من يدٍ إلى يدٍ، حتى يُصبح قطرة.

سأذهبُ خاليا، كما يذهبُ الزمنُ.

سأبتعدُ، كما يبتعدُ البُعدُ عن نفسه،

وسأنسحبُ، كما ينسحبُ الفراغُ، عندما يصطدمُ بأصوات العابرين صوبَ بشاشة عزلته، لكنني سأذكرُ اسمكِ، هناك، حين تدقُ الساعاتُ في الأبدِ.

كنتُ خيطا يبحثُ عن نور، وكنتِ نوراً يبحثُ عن خيط، فاتحدنا لنؤلف شمعة.

في الشمعةِ عرّيتـُكِ، ولم أتعرَّ، لأنني كنتُ وعِراً بما يكفي لأن أكون شبحاً، لكنني دخلتُ.

يا جميلتي، يا عاريتي، يا طفلتي:

أسمعُ آلهة سومر تهدهدكِ في المهد، وأتنهدُ.

أنتِ ثروتي الأكيدة.

أنتِ كلُّ ما نهبتُ من حياةٍ يرفسها الزلزالُ، بين مرةٍ ومرةٍ، غير أن الحروب، غير أن الإفلاس، غير أن..

آه، لأنكِ شاسعةٌ لن يجدكِ أحدٌ، إلا كما يجد الفارسُ، ساعةَ سقوطه، ساحةَ المعركة

كيف يفكر اللمعان في عقل اللؤلؤة؟!

ينتظرونكِ في مفترقات الطرق، على نور الفوانيس والشموع، وأحيانا ـ عندما يشتدُّ الظلامُ، عندما يستولي الخوفُ على نوافذ أحلامهم ـ يمشون إليكِ على ضوء خواطرهم.

قديما جدا خلعوا عليكِ ملامحَ الرسولة: أنصتوا إلى صوتكِ في المطر، ركعوا لجمالكِ في البرق. قالوا: هي التي بإمكانها أن تغلق البابَ على الموت، وأن تعيد العاصفةَ إلى وكرها، فانتخبوا لكِ الأسماءَ والصفات، وقدموا لكِ الأضحيةَ والنذورَ في كلّ موسم.

هياكلُهم العظميةُ على المصاطب، في محطات القطار، في الأنفاق، بين الفراغات التي تتركها الطيورُ المسافرةُ في السماء، وأرواحُهم تلوّح إلى طيفكِ البعيد،

إذ يخترعون لكِ أخباراً، يتناقلونها في المزارات وفي المعابد، في الشِعر والأغنية، في الحانات، في المدن وفي الفنادق ..

ينتظرونكِ، ينتظرون أن تفاوضي القدرَ، أن تنجزي ما لم ينجزه الأنبياءُ، الشعراءُ والفلاسفةُ:

لماذا نمشي حاملين الموتَ على ظهورنا؟!

وإلى أين؟!

لماذا الغبارُ، كلُ غبار العالم، على النوافذ؟!

لماذا هذه اللامبالاة من الملاك، وماذا ذهب ليعمل الشيطانُ؟ لَمن تركَ وظيفته؟!

ربما راودهم الشعورُ أنكِ محضُ أسطورة: كائنٌ من كلمات، غيرَ أنَّ الوهمَ بأنكَ امرأةٌ حقيقيةٌ: صبيةُ الأحلام والشِعر وبطلة الروايات، وشاشات السينما، يجعلُ منكِ أملاً من أجملِ ما يكون، وهو ممّا يجعلهم يقرؤون كتباً غيرَ مكتوبة، يعاقرون عاداتٍ مريبةً: يستضيفون الأشباحَ، يعانقون المحنَ، ويطيرون في الهواء..

ربما توقعوا أنكَ قد سُجنتِ.

ربما وقعتِ في شرك ساحر، بنظرة منه تحوّلتِ إلى جماد.

ربما أُغتصبتِ في نينوى، أو صُلبتِ في أور، أو دُفنتِ حيّة تحت التراب.

ربما نجوتِ من مجزرةٍ، فوقعتِ في مجزرةٍ أخرى: فالتاريخُ نساءٌ ومجازرٌ.

ربما سلبكَ قطاعُ الطرق كلَّ شيء، فمشيتِ مجرَّدةً نحو المطلق.

ربما..

لكنهم يأملون أن تقدّري معنى أن تكوني في قلب التوقعات، بطلةَ التكهنات وقراءةِ الطالع و النجوم، ولذلك يتخيّلونكِ متأهبةً لأداء المَهمَّةِ، فليس إلا أنتِ، وسيّانَ إن كنتِ حقيقيةً أو امرأة من كلمات، مادمتِ قادرةً على تجسيد أحلامهم: أن تباغتي

الآلهة، أن تُلفتي الأنظارَ إلى محنة الجوهر:

لماذا يتفلّتُ البلورُ،

مَن يقف وراء احتضار الشكل،

وكيف يفكـرُّ اللمعانُ في عقل اللؤلؤة؟

لا..

ليس ضروريا أن تحصلي على جواب، أو أن تبرمي اتفاقا يعفينا من ضريبة العيش تحت سـقف الاضطراب، فأنتَ تعرفين أن هذا الانتظـار هو محضُ هـراء، كما أن رحلتكِ الخرافيـة هذه، رحلتكِ التي ابتكرتِها، وأنا حزينٌ وخائبٌ، وأنا سكرانٌ ومفلسٌ، هي من أجـل أن تُقلقي القـدرَ في عزلته الباردة، أن تهـدّدَي بقبضتكِ، أن تصرخي عاليا، أن تفاوضي، أن تناقشي، أن تجادلي اللا أحدَ الذي هناك، وأن تجري دموعُ البشر الحارةُ من عيونكِ، حتى آخرِ دمعةٍ.

القلم المبارك

لم أنهـزم. مازلـتُ متـقــدَ الحـواس: أهيـمُ في حبـكِ الناصع اللهفـة، الذي وُلِـدَ مقتولاً، وأنبهـرُ طويلاً في ظهـوركِ الغريب، ظهـورُك المباغـتُ في حيـاتي، كنيـزكٍ يكتفي بأن يتوهـجَ، ليطلق العارَ ضدَّ القسـوة، وهو يشـق طريقَه بـين الكواكب، فلا تصلني منه إلا ذرةٌ من الغبار، لأضيفها إلى ذخيرتي من الأوسمة، التي لا يرى لمعانَها إلا من عاش في نسـغ الشرارة، ولم يلسـعْهُ من الدفء إلا الشجنُ، الذي ظلّ يبعثه أغنيةً بعد أغنية.

كـم أود أن أخـبرك أن العـراقَ قـد ذبـل، كـما ذبلـت الزهورُ المرسومةُ على قميصي، الذي أهديتِه لي، قبل أن تطيرَ بكِ العاصفةُ بأجنحتها اللامتناهية، مثلَ ريشة.

لم أرتـدِ ذلـك القميصَ، إلا وأنـا أزورُ مثـوى العصفور الذي دفناه معاً، في الشارع الخلفي، من الجامعة.

لم أعـرفْ لِمَ بكيـتُ بغزارة، أَعلى العصفـورِ، أم عليكِ، أم على نجاتي من الموت في خنادق الحرب والأصدقاء؟!

أتعلثـم الآن، حين أخبركِ أنني لم استبدلْ عـاداتي، فمازلت أسـكرُ، أدخن بشراهـةٍ، وأقرأ الكتبَ الضالـة، لكنَّ الأهمَّ هو أننـي مـا زلت أكتـب بقلم البصمـة، نفسُ القلم الـذي سرقتُه

مـن حقيبتـكِ، وتركتـكِ حائـرةً، في الامتحان، وأنا غـارِقٌ في الضحك!

بنفـس ذلـك القلـم المبـارك أكتـبُ لأخـبركِ أن العاصفـةَ قد دخلـتْ من البـاب، وأن الأولادَ، أولادَكِ وأولادي، قد فرّوا من الشـبّاك، لأنهم شاخوا من الكراهية، بعد أن تشبّعوا بالهروب من الأمل، فيما أنتِ وأنا نكتب أشعاراً عن حب يضحكون منه: نرى إليهم، دون أن نحرّك سـاكناً، يُشعلون أوراقَ قصائدنا، فهي أكثرُ دفئاً من شِعرِ هذا الزمان..

مازلت أحمل القلـمَ، قلمَكِ، كـتَمِيمةٍ، وأتمنى حقا أن أضمّكِ بحنـانٍ، بلهفة الغريق الذي وجد كمشـةً من الهواء في رئة الموت، أن أمحوَ شـمس المنفى المرسومةَ على قميص قصائدكِ، وأن أقول: لا تعبئي، فنحن الأَوْلى بالخسارة.

مَن سـوانا يسـتعذبُ هذه المشـقّةَ، ويشـتعلُ من شدة الأسى، وسط هذا الكوكب الظالم والمظلم؟!

صالة المعنى

كان ذلـك عندما داهمني الفرحُ، فوقعتُ في حب صبيةٍ خارقةِ التقيتُهـا، صدفة، على إحدى صفحاتِ كتـاب، وقبلتُها كالمصير، لكنهـا اختفتْ حالما قلبتُ الصفحة. لم يَـدُمْ ذلك إلا بُرهةً قصيرةً جدا، لكنه استغرقَ عمراً بكامله.

لم أعـرفْ أنّ مَن يعومُ عارياً تماما، مـع امرأةٍ، في بحيرة الحب، يلتقطُ السرَّ الذي بواسطته، كلّما غاصَ عميقا فيه، يعودُ طفلا.

الحبّ عُشـبتُنا الخالدة: جُـرحُنا الذي يُدركُ أنّ الشفاء ينطوي عـلى الخضوع، لكننـي لم أصلْ إلى هذهِ القناعـة، إلا بعدَ أنْ قتلتُ كلّ القناعات:

أكلـتُ المرّ مع الشـيطان، شـاركتُ المـلاكَ نحيبَهُ مـع الناي، وذقتُ العسـلَ مع اللا أحد: سـكرتُ مع جلجامشَ في حانات أوروكَ، وبكيـتُ مصـيري الدامـي، عـلى أكتـاف البغـي التـي أغوتْ أنكيدو، نزلتُ مع عشـتارَ إلى العالم الأسـفل، هربتُ مع ديمـوزي في الـبراري: همـتُ على وجهـي في خرائـب بابل، ثـم سرقتُ حصانَ الاسـكندر المقدوني، فعـبرتُ الحدودَ وتجاوزتُ الزمـن، حتى وصلتُ إلى المغول، ورأيتُ إلى الجنود، جميعَ جنود

الغـزاة، يغتصبـونَ صبيةَ أحلامي على شـاطيء دجلة، فاكتفيتُ بأنْ رسـمتُ على السـماء قلباً تخترقه نبلةٌ، ثم جلسـتُ على قارعةِ الطـرق أجمـعُ الدم، الـذي كان يتسـاقطُ مـن الغيـوم في صحن راحتي، ولم ألتقِ بكينونتي إلا بعدما ألقيتُ نظرةً أخيرة، مودّعة، إلى الوراء، حيث تجلّى لي، في لحظةٍ خارقة، الشيطانُ والملاك معا، وقـالا لي، بصوتٍ واحد، حكمة العصور، فهززتُ كتفي، لأنني كنـتُ على وشـك أنْ أكونَ واحدا منهما، سـوى أنني فضلتُ أنْ أكوِّننـي فطردتهـما، مع كلّ تجـاربي، من صالةِ معنـاي، ومضيتُ بعيـدا، بعيـدا جدا، غيرَ عابئ بـشيء، غيرَ أنني لمْ أصـلْ إلى هذهِ القناعة إلا بعدَ أنْ قتلتُ كلّ القناعات.

أسطورة الملكة

أتذكَّرُ أنها تركتني أهبطُ نحو الهوَّة، وأقبض ـ بين حسراتها ـ على حياتي الضائعة.

كنا نائمَين. لا أعرف كيف حدث ذلك، لأنني كنتُ ثملاً جداً.

" وجدتها.. " كدتُ أن أصرخَ، لو لا أنها أغلقتْ فمي، لئلا أوقظَ الخوفَ، وقادتني إلى أكثر أحلامي قوّةً، فسقطتُ في الهاوية، وفي المعجزة.

لم أخرج، لأن الحريةَ أغلقتْ أبوابها، ولم أدخل، لأنها فتحتْ ذراعيها، وأخذتْ بالرقص، حتى طارت بي زوبعةُ جسدِها بعيدا، فرأيتُ أبعدَ شمس، وآخرَ نجمة.

أخيرا، عندما هبطنا معا إلى نبع اليأس، أو بحيرة الرغبة والسعادة، خلعتْ ثيابَها قطعة بعد قطعة، ثم مشتْ، أمامي، متبخترةً كالملكة في عزّ عزلتها.

ـ "سأهدمُكَ بموسيقى جسدي"

قالت، وهي تهتز، من الوجد، مثلَ سعفة، ثم تبخّرتْ، صارت دخاناً أبيض، وتسللتْ، عائدةً، من مسام الحائط الذي خرجتْ منه!

الطبل

كان يحـبُّ أنْ يحبَّـكِ، لأنّ في داخلـه مَـلاكاً وأرادَ أنْ يُعـرفَ، فداهمكِ بالحب، بالضعف وبالهشاشة، لكنه أحاطكِ بالحنان.

كان يغطّيـكِ بالسر، ويخلطـكِ بالعلانيـة لأنه يحبكِ إنسـانا، ويجردكِ من كونكِ امرأة، تماما كما فعل مع نفسه، عائدا إلى الطين، حتى أنه لم يعدْ يعتقد في كونكِ امرأة أو في كونه كان رجلا.

كان يجمعكِ بعادات الندى، يسـاويكِ بالوطن، ويعبد ترابكِ في كل أرض.

كان يحب أنْ يحبكِ: أنتِ، التي بلغتْ معكِ حنجرته أقصى الغناء.

كان يحبـكِ عندما اكتشـفوكِ في قلبه، ولم يـتردد، لأن في داخله ملاكاً وأراد أن يُعرفَ.

كان حريصـاً على الطيران، عندمـا تقدم ليفتح القفصَ، لكنكِ ضربتِ الطبلَ، فجأة، فانطفأ الملاكُ، وأيقظتِ الحرّاس، الشيطانَ والقفصَ.

قصيدة نثر عن حمامةٍ ميتة

أتيتِ من المكان الصحيح، إلى المكان الخطأ، لكن..

كيف يسهو القلبُ الحقيقيُّ عن الطريق إلى النُبلة التي ستمزقه؟

كيف لا يفتح لها البابَ؟!

لستُ الرجلَ المطلوبَ، لستُ المناسبَ.

ربما كنتُه قبل أن تطرقي النافذةَ، قبل أن أرفعَ رأسي من وديان غيابكِ العميقة، وأنظرَ إلى ما خلف طرُقاتكِ من متاهات.

ربما كنتُ ذلك الرجلَ، عندما كان الليلُ ينقلُ، عبرَ أسلاكه، ذبذباتِ شوقكِ الحار، تأوهاتِ جسدكِ، وحنانَكِ العاصف.

ربما كنتُه قبل أن أقوم، متردداً، لأفتح البابَ.

ربما كنته بعد أن خرجتُ، ولم أجد أحداً.

ربما استعدتُ ذلك الرجلَ، ذلك الرجلَ الذي أحبَّكِ بكل ما يملكُ من يأس.

ربما صرتُه، عندما وقفتُ حائراً، في العراء، أنظرُ إلى شظايا زجاج النافذة، وبين أقدامي حمامةٌ، مضرجةٌ بالدم، وميتة.

أطلاقة الرحمة

بعد أن فشلتُ في إقناعك أنكِ حصتي من هذا العناء، الذي تكبدتُه، وأني حصتُكِ من الفرح، لأنك تستحقين رجلاً غاصَ إلى قاع العالم، من أجل أن يجلبَ لك الجوهرةَ الضائعةَ.

بعد أن يئستُ من جذبك إلى مدارِ الحب، حبي النقي كما قطرة الندى، اضطررتُ إلى فتح أزرار قميصي لترَي أنني لم أعدْ أحداً، لكثرةِ ما تبخّرتُ، تحتَ الشموس، في انتظارك، وأنَّ ما بقي مني هو هذا، وأشرتُ إلى مكان قلبي، الذي صار عبارةً عن ضباب، من خلاله، يشرق غيابُكِ المشمس.

لم تحرّكي ساكناً أمام بقية البراهين، التي تثبتُ أن الأرض كرويةٌ، لأنها تريد أن تُشبه تكويرةَ نهديكِ، أن السماءَ صارت زرقاءَ، لكثرةِ ما نظرتْ إليكِ، أن قصائدي مكتظةٌ بالفراشات، لأنها تحلم أن تعيشَ بين أوراق دفاترك، وأن..

لكنكِ لبثتِ جالسةً على عرش جحودِكِ، حتى عندما هممتُ أن أذهبَ، ولم أنلْ منكِ ساعتَها إلا ابتسامةً ماكرةً، تقبلتُها لأنها منكِ، رغم أنه كانت تمثِّلُ أطلاقة الرحمة.

وهو يتركك لبشاشة النسيان

الـذي لـو كـان عصفـورا لصنـعَ، من خطـوط راحتيـكِ، أعوادَ سريره البسيط، كـوجهكِ ، مغرداً اسمَكِ حرفاً بعد حرف، كما الآن.

الـذي لو كان شـاعراً لكفّ أن يكون، واكتفـى بأن يخرّ صعقا أمام جمالكِ، الذي كتبه البرقُ في عروق الينابيع، حين المطر لا يجد مكانا يسقط حنونا عليه إلا وجنتيكِ، كما الآن.

الذي لو كان عاشقاً لهامَ طوالَ شَعـركِ، الذي يفيض كالأنهار في وديان الشِعـر، ولغرقَ عميقا فيه، كما الآن.

الذي لو كان ساحرا لحوّلكِ إلى امرأة بلمسةٍ،من نظرتها، تتنقل الكتابةُ بين السطور، بأناقة البلور، ويرتدي العالمُ قميصا مغسولا بأصيل يقظتها، كما الآن.

الـذي لـو كان فراغـا لارتدى بدلة جسـدكِ، وصـار حضورا لبهاء غيابكِ، كما الآن.

الذي لو كان بدلة لخلع نفسـه عن كامل نفسـه، وانتهى إلى لا شيء يمكـن أن يكـونه سواكِ، كما الآن.

الـذي لـو كان يملك ريشـةً لرسـمَ تحت سـقف غبطتكِ على

السرير، كيف ينحدر السيلُ من جانبي قاربين، يتجهان نحو بعضيهما، كما الآن.

الذي لو أراد

لكان جزيرة تتسع لكل الزمان: كلما اتسعتْ قصيدةُ حزنكِ الصباحي، عندما يجرفكِ الشِعرُ بتياره إلى كآبة غرامية مرحة، مرسومةٍ في أعماق كلِّ شاعر، في قيعان كل غرام محرّم، يشتقُّ مراسمَ هيجانه من كتابٍ ما جاء به وحيٌ، إلا الهيامُ بما هو ساحرٌ، كما تفعل أجفانُكِ، عندما تكون طريقاً إلى تلاوة مقاطع حلم، لم يره سواه: هو موجةٌ قريبةٌ بعيدةٌ، كما الآن.

يا مكانَ الأمكنة.

يا نهراً، هو الزمنُ، يعرفُ اللحظةَ التي ينتقي من عمره الطويل، عندما يريد أن يتوقف الكونُ عن مواصلة رحلته، نحو اللانهاية، الغامضة حتى عن نفسها.

أيتها المرأة التي لا أحبُ إلا إنسانها الداخلي المستحيل تكرارُه، رغم اتساع مجرّة الخيال، تاركا قلبها يستقيل من وظيفة حراستي، طليقا كالريح في سياحة حبها للمطلق، صاعدةً إلى الذروة من النزوات:

نزوةً بعد أخرى منذ بداية الهيام، شيّدنا عمارةَ غرامنا الخارق، من تبادل القبلات بين الرسائل، تحت الجسور التي في الأغاني، وفي المواعيد التي لم يحضرها أحدٌ منا، سوى الغياب.

قبلـة فوق قبلـة، حتى اكتملـتْ رغبةُ الـروح إلى الطيران، فيما الفـراقُ يلملمُ ما كتبناه على دفاتـر أعمارنا، من ترانيم، في حقائبَ أكثـرَ حقيقيـةً مـن حياتيـَنـا: نحـنُ معزوفةٌ منسـوجةٌ من شـهقة الغـرق، وإضاعـةِ المفاتيح بين أبـواب، لم يلجها أحـدٌ، ولم يخرج أبدا، إما عاشقا أو غارقا في الجنون.

أيتها المسـتحيلةُ الحـدوث، كالمشي بلا قدمين على حبل اسـمه الزلزال:

أنا مستحيلكِ

الذي لو كان يريد أن يكون لكانكِ قبل أن يكون، كما الآن.

أنا الذي لو كان يحبكِ لأحبكِ قبل أن يحبكِ، كما الآن،

والذي، هو الآن، يحبكِ، حتى بعد أن أحبكِ:

يكتبـكِ، الآن، من أجل أن يتحطم، أو يتحطم، الآن، من أجل أن يكتبك ، ولن يتوقف عن نسـف نفسه بما كتبتْ يداه، كقصيدة اكتملَ بناؤهـاَ، فلم تعد صالحة لشيء، إلا لتمزيقها جملة جملة، كما تمزقتْ من قبل أوراق حياته، وهاهو يكتبها ثانية لتشبهكِ أكثر منه، كما الآن.

ربما

سيختفي في أزقةٍ غير محتملة الوجود، كما وجودكِ، ما مرّ أحدٌ فيهـا إلا وتاه، باحثا عـن ضياعه الخاص، تاركا وجهَكِ الشـاهقَ الجميـلَ، وراء ظهره، عِرضةً لبشاشـة النسـيان، وعزلتـه الفاتنة، تماما كما يفعل الآن.

سلالة الأسى

هجرتكِ لأنني، حين انحدرتُ من الأزقة، اصطحبتُ معي أنّةَ الناي، ولمّا وصلتُ، لم أُلقِ بأسلحتي، ولم أتبرأ من البساطة، فأنا من ذلك النوع النادر من البشر: أفرحُ بالقليل، وأرتابُ من كثرةِ السعادة، كما إنني لم أنسَ بحّةَ الحزن، في أغاني الحانات الفقيرة، التي، وأنا أعجزُ عن الدخول إليها، كنتُ أسمعها..

كثيراً ما رفعتُ رأسي مستغرباً من رفّة الرايات، ومن من رؤيتها، فارغةً من أيِّ معنى، فوق سطوح المباني.

وكنتُ أحسبكِ مثلي، مضطربةً من فرط الحقول في عيونِ النساء، وحائرةً بجمال العصافير، وهي تنقل الصباحَ، من جهة إلى أخرى، بعيداً عن رائحة الموت، ودوي الانفجارات.

اعتقدتكِ مهمومةً بإيواءِ العطرِ الهاربِ من سياج الحديقة، أو بهمِّ النملةِ، التي أضاعت ثقبَ بيتها بين العواصف، لكنني كنتُ واهماً، فأنتِ أخرى، امرأةٌ أخرى ليست من سلالة الأسى.

رأيتكِ، مفجوعاً، فقيرةَ القلب، وكسيحةَ الخيال، لا تملكين أجنحةً من اليأس، كافيةً، لإرباك التحليق والطيران، وهذا مما جعلكِ ثابتةً في مكانكِ، رغم طوافِكِ في البلدان وعلى الشواطئ..

الطائر

التقيتـكِ في الغابـة، عندمـا كنـتِ في ذروةِ النضـج، في طَـورِ الثمرة، وعلى وشـك أن تنفجرَ حلاوتُـكِ فتمـوّه نواقص الحياة، ولم يكـن مـن خُططي أن يسـقطَ جَمالُـكِ في يد الريح، أن تدوسـه أقدامُ العواصف، وأن لا يشمله الشِعرُ بحنان التداول.

لكنني كنتُ طائراً عابراً..

اللحن

كانت أخفّ من أن تحملها نسمةٌ، غير أن ثقل الحب اضطرّها للهبوط، من شاهق عزلتها، على أحد كتفيكَ، ولمّا كنتَ أقلَّ من أن تشعرَ بحاجتِها إلى يقظة القلب، وإلى الحنان، نفضتَ قلبَها القادمَ إليكَ، بحركة سريعة، طائشة، من يديكَ، ومضيتَ، غافلاً عن رنّة اللحن، في جهات العالم الأربع ..

اللغز

المـرأةُ التـي كانـت تتخـذ منـكَ ذريعةً للبقـاء في الحيـاة، بكل أوجاعها: تؤمن بك كنبيٍّ، وتحبكَ كفارس من قديم الزمان.

لماذا كفرتْ، فجأة، بالشِعر، بكَ وبالكتبِ، ثم مزّقتْ حياتَها، متخذةً من الصمت ذريعةً، لصدِّ السؤال تِلوَ السؤال؟ّ

لـماذا تشرق بكامـل وجههـا الآن، لتضيءَ الصبـاحَ، صباحَك الموحِـشَ البـاردَ، فتبتسـمُ بغمـوضٍ، كمـن عثـر عـلى المفتـاح السـحري، الـذي يفتح جميـعَ الأبواب، ويعطي الجـواب عن سرٍّ أو لغـزِ هذا الكونِ المترامي الأطـراف، كضحكتها التي هبّت من خوابي الذاكرة، ومن مفترقات طرق النسيان.؟

حياتي النحيفة كما الناي

كان مـن الممكـن أن أعيشَ معـكِ على حافة الهاويـة، لو لا أنها تغيّرُ مكانَها، كلما تقدمتُ نحوكِ خطوةً. كان ممكناً أيضا أن نتبادلَ الرسائلَ والقُبلَ، أن نخصّب الأرض والعشبَ والمطر، وأن نتلوا أنهارا من الفراشات والرحيق، في جذور الشجرة التي يلعبُ، بين أوراقهـا، هواءُ الربيع، لو لا أنكِ سـمحتِ للدود أن يزحفَ نحو تفاحة قلبكِ، فجفّ الغصنُ، وسقطتْ اللؤلؤةُ..

لكن..

لعل ذلك من حُسنِ حظ الشِّعر:

أنْ أخسركِ، أن تشـطِّفي ثيابَ قلبكِ، التي كانت منشورةً على حبـل غسـيل اليأس، في نهر آخـرَ، أن تسـكني بيتاً أكثـرَ أماناً من عاصفتي المتقلبة المزاج، وأن تُخيطي الشّـقَ الكبيرَ في ثوب حياتكِ بموسـيقى، لا تعزفها حياتي النحيفةُ كما الناي، فأنتِ الملاكُ، وأنا الملك الضلّيل الذي لا ينتظر، من السماء، أيّةَ معجزة!

لننظـرْ إلى الجانـب غير المرئي مـن الغيمة، فلـو لا أنكِ رحلتِ دون كلمة، ولو لا أني تألمتُ، لما كان هذا الجمُّ الغفيرُ من الأسـى، ولما كانت هذه القصيدة!

نوافذ

كنتِ تفتحين نافذة قميصكِ، لتستطلع حمامتان مرسومتان على صـدركِ، ظهورَ اليابسـةِ، لكنهما في كل مرة كانتـا تعودان بدموع طافية فوق ميـاه الطوفان، هي زوارقُ رغبتكِ، التي عبثاً حاولت عواصفُ آلهة العالم القديم أن تقلبها، لئلا تتقطرَ من حنفية الماء في صحن راحتي، فأرتعشُ من فرط الماء في تنور عطشكِ.

تكثيف

الهاوية، هاويتي، تغيّر شكلها في كل مرة، وهو مما يعطي للمغامرة منطقاً عصيّاً على الفهم، كأنَّ العيشَ مع الأمان عاهةٌ، كأن الخطر هو الوسيلة التي تبعث القوة في الروح، وتجوهر القلب..

أحدسكِ خارج المعرفة، أقبض على بصيص روحكِ في عناصر لا اسم لها، أتأولكِ بمنطق لا منطق له، أبحثُ عنكِ، و أكتبكِ بحاسة مَن أضربَ عن كل الحواس.

الحمامة

مـن حقّكِ أن تضطربي عندما أقول: إنكِ شـاحبة، وأنا أحبكِ أكثرَ شـحوباً، لكن بنُبل قرأته مذ رأيتكِ أول مرة في طوفان نوح، وكانت الحمامة تتخذُ من رأسكِ المزدحم بالأحلام مأوى.

مـن حقك أن تضطربي، لأن الحبّ اضطراب في جوهره، لكن إياك والإفصاح عنه، لئلّا تطيرَ الحمامة..

الحب الذي يحيي الموتى

تذكرتـكِ اليومَ، وتذكرتُ العصفـورَ الذي وجدناه، مطروحاً بإهمالٍ، على العشب، تحت الشجرة التي كنا نحتمي بكثافة عريها، كلـما أشرق برقٌ يوعزُ بهبوب العاصفة، أو كلما ضغطتْ حاجتُكِ إلى التدخين، وإلى الغناء.

اعتـدتُ، كلَّ يـوم، على الاسـتيقاظ بشـعور مَن عـاد من كل المعـارك خـاسراً، ولم يبـق صـدعٌ إلا ورسـمَ وشـمَه عـلى الهيكل العظمي لحياتي، لكنني تذكرتكِ حالمًا استيقظتُ، لأنني شـعرتُ بالزائـر، عصفـورُك الـوفي، وهـو يخفق بجناحيـه قـربَ النافذة، فأيقنـتُ أنـكِ - بعـد سـنوات طويلـة من ذلـك الفراق الشـاق - تفكرين فيَّ هذا الصباحَ.

قديـما، ذات يـوم، كنا قـد خرجنا من اللعب في غابة جسـدينا مضمَّخَـين بالعـرق، بالتبـغ، وبالفـرح الغامض، الـذي يلي هذه التسليةَ المحفوفةَ، دائما، بالمخاطر، وكان الانتشاءُ على أشدِّهِ عندما انحنيتِ، في ذلك النهار المشمس، بضحكتكِ الطفولية:

- "سأريكَ كيف أن الحبَّ يُحيي الموتى"

وحملتِ العصفورَ بكفيكِ الواثقتين إلى صدركِ، ثم همسـتِ له بشيء ما، وقذفتِه، بقوة، إلى السماء، فطار.

حارس الأسى

لم يتبخر من رأسي المنامُ، الذي رأيتُكِ ترقصين فيه، من حولكِ شعراءُ حزانى، وفرقةٌ من العازفين على سطح سفينة الطوفان.

كانت هناك موسيقى تتسرب بهيئة حسرات من أمواج البحر، وأنتِ ترقصين، حتى نفدتْ المتعةُ، بدأتْ الحقيقةُ بتقديمِ عروضِ عواصفِها، وحلّ الليلُ بأمتعته الثقيلة، فسقطتِ بين ذراعي: رأيتُ في وجهكِ كلَّ النساء التي رأيتهن في السينما، وتخيلتُهنَّ في الكتب وفي الأساطير، فيما جسدُكِ يتلوي كمطعونٍ، فجأة، داهمه الألمُ..

كانت هناك أسماكٌ وفيرةٌ تتسلق قدميكِ، فساقيك فبطنَكِ، تصعد نحوَ الذروة، ثم تسيلُ على خد العالم، مثلَ دمعة كبيرة، وتسقط حارّةً في صحن راحتيّ.

نظرتِ في وجهي، وأنتِ تغمضين عينيكِ.

- " آه، يا حارس الأسى "

تنهدتِ، وأنا أشطفُ حياتي بدفء الدمعة..

أغنية الرحلة

كنتِ أقلَّ من أن يحبكِ، لكن قلبه كان مصرّا على الاحتفاظ بوسامته، فقاوم كلَّ جفاف العالم، وهو ينقلُ إليكِ قطرة الماء: قطرة الماء الوحيدة، التي تحوّل صحراءَ روحكِ إلى ترنيمة ينبوع، يهزُّ بها المبتلّون بالقحطِ المهدَ، فتتسربَ خارجَ جسدكِ عدوى الرمل، التي نقلوها معهم، في الطريق إليكِ.

لم تنفع معكِ الأغاني التي كتبها بلغة القمر، لأن ظلامهم كان مشعا، ولم تكنس الترانيمُ غبارَ الجحود من على حبال صوتكِ، لأنهم زرعوا نعيبَ غربانهم هناك.

كل عواصف الخريف كانت رهن إشارتكِ، لكنكِ اكتفيتِ بأن تراقبي كيف يتم تجريده من خضرة الربيع، فهو الشجرة التي يجب نهبها، بَيدَ أن قلبه لبثَ محتفظا بفروسيته، وهو ينقل إليكِ قطرة الماء: قطرة الماء الوحيدة التي تجعل منكِ مشروع كوكبٍ صالحٍ للحياة، حتى إذا ما وصلَ أخيرا، ووضع القطرة في صحن راحتيكِ، لم ترينه، ليس لأنكِ خسرتِ نظرتكِ الباطنية فقط، وإنما لأنه كان قد تبخرَ تماما، من شدة العطش، خلال الرحلة.

افكّرُ مثل شجرة

كانت تنمـو، في أعماقي، غاباتٌ مذهـلـة. كنتُ أحرصُ عـلى أن أزوّدهـا بما في الخيال مـن ينابيع، ظِلال وأثمار، لكن خططـي تبدّلتْ حين وُلدتُ كإنسان.

في الأصـلِ كنـتُ مـشروعَ شـجرة، و لا أعـرف لِـمَ نبتُ إلى جوارِكِ بهذه الهيئة المحطّمـَة، حيث كل لمسةٍ منكِ هي الفأسُ.

سـألبثُ مفكّـرا في بؤس مخيالكِ، حتى وأنا أتساقطُ ورقة بعد ورقـة، لأن سـارية ضمـيركِ لـن تتخذ الأخضر رايـة، فالخريف أبـدا هـو مَن يرفرفُ فوقهـا، كما أنني لن أكف عـن معانقة ربيعي الخاص، وإن كنتُ شجرة تعيشُ في غابة إنسانكِ الشاحب.

بين طرق النسيان

ظـلَّ يحتفـظ بنظره معلَّقاً بوجـهِ امرأةٍ تقفُ أمامَه. لا شـك أنه رآها في مكان ما، لا يذكر أين. هذا ما يحدث له كثيراً، عندما يلتقي وجوهاً يعرفها، غيرَ أنَّ أصحابَها تسّربوا، من ثقبٍ ما في الذاكرة، فأطاح النسـيانُ بأسـمائهم، لكنَّ هذا الوجـهَ، وجهَها، كان عصياً على أن يكون عابراً، وعندما حاولَ جاهداً أن يستعيده انبثقتْ، في ذاكرته، طُرقٌ، كلماتٌ وأغانٍ، أوشـكتْ أن تنيرَ الطريقَ فيعرفُها، كما في تلك السـنوات الصافية، إلا أن ما لم يكن في الحسـبان لابد أن يحصـلَ، كما هـي العادةُ، إذ ترجلـتْ المرأةُ مـن الحافلة، فجأةً، وتركتـه، مرة أخـرى، يترنح ثملاً في الطرق الهائلـة، التي عبّدها، من أجله، النسيانُ..

الرجل البديع

كان يحبكِ، طافياً بمركبه الهشّ، فوق مياه الزمن، غيرَ عابئ بالعوائق أمامه، لكنكِ واضبتِ على الشكِّ،، قلقةً، وقد أقفلتْ الريبةُ بابَ قلبكِ، بسبب ذلك الانحراف الجميل: الحَوَلُ الطفيفُ في سوادِ عينك اليسرى، مما أفقدكِ حافزَ الطيران معه، حتى آخرِ تخومِ الحب، وهو مما جعلكِ تقفزين من سياج محنةٍ لا وجودَ له، إلى سياج محنة حقيقية، بحثاً عمّن يُخرجكِ من هلع أنكِ لستِ امرأةً جميلةً، أو لستِ من طراز هذا الرجل الواثق من صلابته، دون أن يخطرَ لكِ أنه هشّ مثلُكِ، بل هو أكثرُ هشاشةً مما تتوقعين.

كنتِ تبحثين عن الإشفاق، بابتكارِ قصص عن حصار عائليٍّ لم يحصلْ، وتطلبين منه خياطةَ جروحٍ لا وجودَ لها، وكان يحبُّكِ كما لو أنكِ العشبةُ الخالدةُ، أو المعجزةُ التي ستُخرجه من عبث الوجود، ولم تدركي أنكِ تمشين، على ضوء هلاكِكِ، إلى متاهة الطيران بين العواصف.

لم تعرفي أبدا أن ذلك الرجلَ، الذي خذلتِه فجأةً، دون أسبابٍ مقنعةٍ، آه.. ذلك الرجلُ البديعُ، كان ينظر إلى حَوَلِكِ كمأثرةٍ للجمالِ، وأنه يرى في عينيكِ، في سوادِهما، سماءً أخرى، لهذا الكون..

غبار التساؤل

عندمـا وقعتَ في حـب امرأة، رأيتَهـا في منـام، ومنحتَها مَهراً نادراً، لا يساويه إلا الهلاكُ.

عندما أخذتْـكَ إليكَ، ولم تفرّ منكَ، إلى أن منحتكَ آخرَ نبضة في ارتعاش نهديها.

عندمـا قابلتَها مع الجوهر، وغادرتها مـع عبثِ الحياة، فعدتَ خالياً، إلا من غبار التساؤل.

عندما تمزقتَ من اليأس، طويلاً، بانتظار ولادةٍ ثانية.

عندما عشتَ مع الخيال، مثلَ نطفة، في رحم الكتابة.

هكـذا تعافيتَ مـن العافية، وتَجوهرتَ بالحـب وبالألم، كأنكَ جُبلـتَ على هـذا الذي لا اسـمَ له، لكنكَ أسـميتَه العيشَ سـليماً مـن الوهـم، من الفرحِ المغشـوشِ، ثم عانقتَ مصـيرَكَ كنبيٍّ، أو كشيطان، لا وصايةَ له على أحد.

أن تكون عاشقا

هـل فتحـتَ صفحةً مـن كتـاب، فابتسـمتْ بوجهـكَ امرأةٌ، ولاحقتـكَ ابتسـامتُها المشـعةُ، من صفحة إلى صفحـة، ثم ـ حين أغلقـتَ الكتـابَ، مرتبِـكاً من هـذه المعجزة ـ خرجـتْ منه، مثلَ موكـب خرافي طويل من النسـاء، لتجلسَ مكانـكَ: تفتحُ ـ هي ـ الكتابَ، فتبتسـم أنتَ بوجهها، من صفحة إلى صفحة، مذهولاً، ومتعدِّداً مثلَ أطوارِها؟

هـل هاجرتَ وراءَها إلى هناك، ثم عدتَ، خالياً منها، إلى هنا، وعلى كتفيكِ حفنةٌ من غبار اللؤلؤ، و تنهداتِ النجوم؟

هل شاركتَ الملاكَ نحيبَه الطويلَ، أو سكرتَ مع الشيطان؟

هل رأيتَ المطلقَ في قلب امرأة؟!

هل سـجدتَ للحب، الذي يُعلِنُه الهديـرُ الذي يجرف اللؤلؤَ، وهو ينحدر مع موسيقى نهديها؟

هل جُننتَ من هذا؟!

هل داهمكَ اليأسُ، ولاكتكَ الحيرةُ بأسنانها اللامعة؟

هل رميتَ رأسكَ من أعلى الجبل، ووقفتَ قروناً، في الأسفل، بانتظارِه؟

المهمّة

عندما تشعرُ أنكَ قد هُجِرتَ، فتعيشُ منزوياً في الركن الأقصى من العالم، معتقداً أنكَ لم تعد صالحاً للحب، أن قلبكَ قد فقد توهجَه، وخسرتَ نورَكَ.

عندما ينبجسُ، فجأة، وجهُ ملاكٍ، وأنتَ في عزلتكَ، حاملاً إليكَ أمراً بإكمال المهمة، مع قلبٍ آخر، في روحٍ أخرى..

عندما تكتشف أن القلبَ الإنسانيَّ ضيقٌ جداً أمامَ الوجود، وأن الحريةَ رايةٌ لا تسقط بسقوط قلب حاملِها في لجة القنوط..

عندما لا تعرف كيف تكتب بكلمات بسيطة عن أعجوبة الحب، وهو يأتي، محمولاً على ريشة الهواء..

أسطورة الغريب

ذاتَ ليلة، سأكون وحيداً، في غرفةٍ شِبهَ مهجورةٍ، إلا من الكتب واسطوانات الأفلام والموسيقى، سأشُعل سيجارتي وأنا أنظر إلى الفيلم الأخير، الفيلمُ الذي استغرق انجازُه عمراً بأكمله، والذي يحفلُ بأماكنَ عشتُ فيها زمناً ليس بالقصير، بمُدنٍ دخلتُها وخرجتُ منها كالغريب، بحاناتٍ سكرتُ فيها حتى الصباح كعاشق مخذول، وبتظاهراتٍ كنتُ فيها في المقدّمة كفارس من طراز قديم.

يستمر الفيلمُ، وأنا أنظرُ، أنظرُ فقط، غيرَ مبالٍ بالصراخ، بالضحك، بالسخرية، بالمديح وبالثناء. لن أحرّكَ ساكناً حين تمر مشاهدُ الفوز، ولا حين تتوهج مشاهدُ الخسارة.

يندلق الماضي وتسيلُ مياهُه طوالَ الشريط، فلا أُعير اهتماماً لزوارق الإنقاذ الورقية، التي كنتُ أصعدها ونغرق معاً، في ذلك التاريخ العاصف. سأصمّ أذني عن سماع أبواق الثكنات، ولن أهتم لأخوَةِ يوسفَ وهم يحفرون الآبار في براري حياتي، وسأُجالِدُ وأمضغُ حنظلَ الصبر منتظراً لَقْطتي الخاصةَ، اللقطةُ الذهبيةُ المتقنةُ التصوير، التي لن تستغرقَ من الفيلم سوى ثانية، ثانية واحدة أو أقل، حين يظهر، يشعُّ وجهُكِ على الشاشة، ملتهباً

كالشُعلة، غامضاً كالحياة، وعاصفاً كصرخة طائشة في طرق الليل. عندئذ فقط، سأتنهد وأقول: " آه ".

" آه " الكُبرى، الحقيقيةُ والصافيةُ، التي لم يقلْها من قبلي بشرٌ قط، تلك الـ " آه " الداميةُ، والمغسولةُ بعمر طويل من الحسرات، ثم أُغمض عيني بهدوء، وأموت.

الرسالة

أحملُ معي، أين ما حللتُ، رسالتكِ التي لم تكتبيها، متحصّناً خلفَ هذا الوهم ضدَّ الصدأ، الذي سرعانَ ما يكتسح عواطفَ المخذول..

أحيانا أعثرُ على ابتسامة مهمَلةٍ منكِ، لم يمسّني شعاعُ برقها الخاطف، بين أوراق الذكريات، التي لا جدوى من تقليبها، كما لو كنتُ شجرةً تتفقد الزقزقات المنسيةَ لعصفورها المختار، الذي غادرها، فجأة، ولم يعدْ أبدا.

امرأة الخيال

كان جمالُها منيرا، متفوقا على القبح واليأس، و كان لديها الأملُ الكافي لأن تبقى عاشـقةً أبديةً، دون منازعٍ، وهو مما أكسـبها طاقةَ الوقـوف أمام التقهقر بثقة صبية، لا تريد من الحياة إلا الغراميات المتأججـةَ، وأن تبقـى مضيئةً بنـور الحب، متلألئـةً في الليل أو في وضح النهار، مهما كان ثمن ذلك..

هـذا مما جعلها أكثـر من أن تُحب، أقدسَ مـن أن تُعبد، وأرفعَ من أن تُخان، لكنها كانت شـاقةً، شاقة وشقيّةً، وفوق ذلك كانت عنيـدةً كقلـب الطفل. لم تقبـل أبـدا أن أرشـدَها إلى الحب، لأنها فضّلـتْ أن تفعله غريزياً، أن تؤديه بعفويةٍ كما تتنفس، وتضحك، سـاخرةً، عندمـا أقول لها:" أحبكِ "، لأنهـا ـ كما تزعم ـ ترى أنني أملـك أكثـرَ من أن أحبها، وعندما أسـألها عن ذلك تكشـف عن صدرِها، وتشـير إلى تلك المنطقةِ المشـعةِ، حيث قلبُها الذي يضخ رعشاتِه، فأسمع الطبولَ، مشاعل الغابات والرقص.

كانـت تريدني أن أهربَ معها من العالم، إلى عالم آخر لا وجود له إلا في السينما، وفي القصص والروايات، التي أتلفتْ نظرتَها إلى الواقع، وكانت تلك طريقتَهـا الوحيدةَ، المختارةَ، التي تعتقد أنها ستجعلنا نعيش في أمانٍ، تحت سقف الخيال، على الشاشة، أو بين دفتي كتاب.

قصيدة المرأة الملاك

كانت، كلما أحبّتْ رجلاً، ترتقي إلى مرتبة من مراتب الملاك. لاحظ الجميعُ أن هناك ريشاً ناعماً وأبيضَ ينمو، أن هناك أجنّةَ أجنحةٍ قد نمتْ على كتفيها، وأنها أصبحتْ شبهَ مرئية، عندما منحتْ قلبَها كلَّه إلى رجل، ما أن غادرها حتى اشتعلتْ، فجأةً، ثم اختفتْ الأجنحةُ، تساقط الريشُ، وموكبٌ هائلٌ من الأسى طار في الهواء، غيرَ أنها لم تكفَّ، أبدا، عن الطيران في سماء الخيال!

لا أحدَ يعرف كم مرة أحبّتْ، وهل وصلتْ في تجربتها الأخيرة إلى مرتبة الملاك، غير أنها عندما ماتت، بعد خمسين عاما، أصبحت غيرَ مرئية تماما، لفرط الصفاء، فحمل الناسُ إلى التابوت، بدلاً عن جسدها، كمشةً صغيرةً من الريش، تركتْها تحت وسادتها، كتذكار.

سارق الكتب

كان يجـول المكتباتِ. يتشـمّم الكتبَ، من كتـاب إلى كتاب، ثم يشـتري منها ما يعتقد أنه متوافِقٌ مع حاسته الباطنية. أحياناً يسرقُ كتابـاً لا يملكُ ثمنـه، أو يعجز أن يقاضيه بما يملك، وقد شُـوهِدَ، أكثرَ من مرة، يمشي عارياً، دون ثياب، منتشياً بما يحمل من الكتب.

كانـوا يعتقدون أنه يأكلها، يـأكل الكتبَ، لكنه لا يفعل ذلك، بل كان يتلفها بطريقته الخاصة: يصفّها بطرق مبتكرة، يصنع منها بيوتا، وينتظرُ أن يخرج أحدُ أبطالها، كي يشاركه سرَّه الصغير، ولمّا لم تحصـل مثلُ هذه المعجزة صار يدفنهـا في العراء، كلَّ كتاب على حـدة، ثم يواصل زيارتها، ليتأكد من أن أبطالها، واحداً منهم على الأقـل، قد عادت إليه الحياة، بعد أن دفنه المؤلفُ، دون رحمة، بين السطور، فالترابُ أكثرُ حناناً من عديمي المواهب.

كان يبكي، بحرقةٍ، عند الغروب، إذا كانت هناك امرأةٌ جميلةٌ، قـد تركهـا المؤلفُ تخـسرُ في الحـب في كتابه. وذات مرة أقسـمَ أنَّ مراهقةً فاتنةً قد نادته:

" أنقـذني مـن الاختنـاق "، وأخرجهـا مـن الـتراب، لكنها لم تحتمـل حنـانَ عينيـه، ولا رقةَ قلبـه، فهجرتـه، لأنَّ روحَـه أجملُ مـن أن تطـاقَ، ولم يأبه بذلك، فينبوعُ خياله أوسـعُ مـن أن تغلقه حصىً صغيرةٌ، كما أنه كان أسـيرَ فكرته عن امرأة بعينها، لم يجدها

في الواقـع، فلجأ إلى الخيال، بحثا عنها، حتى داهمه اليأسُ، فصار يـضرم النارَ في الكتب، حـين لا يجدها هنـاك، وكان يجلس هادئاً أمـام حرائقـه، وهو يشـاهد الأبطـالَ، الـوزراءَ وقـادةَ الجيوش، يتحولون إلى دخان.

لم يكـن سرُّه الصغـيرُ معروفا عندمـا اختفى، فجـأةً، فافتقدته المكتباتُ العامرةُ، خرجَ أصحابُها يبحثون عنه، والتقوا في الطريق بأصحابِ مكتباتٍ فقيرةٍ، وبآخرين كان يشـتري أو يستعيرُ منهم الكتـبَ، ثـم انضم إليهـم قـرّاءٌ كان يحدثهُم عن كتـب تؤدي إلى التهلكـة، عن كتب تخصّب الحياةَ والخيـالَ، وعن كتب أخرى، لم تُكتـب بعد، من الممكـن أن تعيد إلى الإنسـان ذاكرتَه الأولى، يومَ كان يعيش مع الحيوان والنبات بوئامٍ، ويومَ كانت المرأةُ هي سيدةَ العالم.

كان الموكـبُ، الـذي يتألـف مـن هؤلاء، يسـيرُ محفوفـا بهواء الكتـب، وهـو يـدور في الأزقـة، في الحانـات، في المقاهـي، وفي العراء، بحثاً عنه، ولعدة أسابيع، شهور وسنوات، حتى أعجزهم البحـثُ، فتفرقـوا في المـدن والبلـدان وفي الزمن، وهـم يبشرون بالكتـاب الأفضـل الـذي لم يُكتـب بعـد: كتابُه الـذي بحث عنه طويلا، والذي يحتوي على قصة امرأة تبحثُ عن عاشـق الكتب، الذي مات شهيدَها، فيما هو يقرأ عنها في مخطوط، في قبو مهجور، لم يعرف أحدٌ أين يقع.

الملاك في سوق الكتب

سؤالُكِ الخجولُ، الذي لا أعرفُ كيف اخترقَ ضجّةَ السوق، و وصلني حاملاً معه اليتمَ أو اللهفةَ، عما إذا كنتُ عبد العظيم فنجان.. حقاً، حفّزَ ـ بعدَ ذهابِكِ ـ شعوراً غامضاً، كان غافياً في داخلي، ثم استيقظ، فجأة، على رنّة الضوء في صوتكِ، إذ لم أكن واثقاً ـ قبلَ ظهوركِ ـ أنني كتبتُ كلَّ هذا الشعر المجنون من أجلكِ، أنتِ التي رأيتُ وجهَكِ في مَنامٍ قديمٍ، أقدمَ من أن تولدي، وهاهو يتجلى أمامي، بكل بهاء الأحلام، كملاكٍ تكبَّدَ عناءَ نقل الرسالة، إلى شاعرٍ مهمِلٍ، ثم اختفى مثلما جاء، تاركاً إياي وحيداً، حائراً، في سوق الكتب..

الطيران بخيط من عصافير

بقلبٍ عانق ويلاته ينظرُ الشاعرُ إلى قفصكِ المنسوج من ريش النسر ويبتسمُ، لأن قضبانكِ ستغني الجوع، بعد فراره، ولأنه عاد معافى، مغسولا بما في سريرته من فرحٍ غامضٍ، فلم تعد مدينتكِ تجرحه بنفس القسوة، كأن رقته كعاشقٍ قد ألحقتْ بكِ الهزيمة عندما وجدتِ أنه لبثَ أنيقا كالشعلة، لا يسكنه إلا الضوء: هكذا انكفأتِ على نفسكِ، مثل مصباح عاطل صار توأمه الظلام.

ستلبثين في عهدة الغياب، الذي مثل بئر عميق يستقبل الحجرَ، ولا يصل صوتُ ارتطامه بالقعر، إلا بعد أن يتآكل، أو بعد أن تصير الحاجة إليه حقيقية. هكذا كانت حاجته إليكِ، كشاهد لن ينطق أبدا، مع أنكِ تفتحين أبوابك لكل قادم، كما مقبرة، من أجل أن يتيه المستكشفُ بين شواهد سكوتكِ.

كثيرا تهجى وجودكِ، بمختلف لغات الحب، ولم يفهم لماذا تجعلين حتى بسمتكِ مثل طعنة في الظَهر، وكيف كان بمقدوركِ أن تجعّدي قوس قزح بهجته كالورقة، فلم يجد، من كل هذا الدوار، إلا أنكِ الزلّةُ التي تجرجر غفرانها زلة أخرى تسحبه إلى قعر البئر، كلما حاول الصعود إلى سطحه...

لم يعد اختفاؤكِ يسبب فراغا كما قبل، بقدر ما يتيح له أن يطير، كما ريشة، تجر وراءها الشمس بخيط من عصافير.

أخاف أن تقولي: "أحبكَ"

أخـافُ أن تقـولي: " أحبـكَ "، دون أن تدعينـي أسـهر، قلِقاً، تحت ضوء القنديل المكسور: قلبي، إذ لستُ معتاداً على السهولة، ولا أطمئن للمطر الذي يهطل، فجأةً، قبل أن يضربَ البرقُ طبلَ السـماء، كما إن الحـبَّ، حبي، لا يأخـذ زينته الخارقـةَ، إلا بعد أن يتمرغَ في القيعان المالحة للألم، إلا بعد أن يخنقني الحنينُ إلى أشـياء غامضة، واعتقد أنكِ تملكين مفاتيحها.

لا تكـوني ليّنـةً، فلسـتُ عاشـقاً متاحـاً كالهـواء.، ولا تفتحي بساتينَـكِ أو ثكناتكِ، عندما أقول: أحبكِ.

دعيني أتلوى وأسـقطُ، كشُـعلةِ عودِ ثقـابٍ في يوم عاصف، لأن هـذا مـا يُجوهِرُني، ما يكشِـطُ أطيـانَ آدميتي، هـذا ما يجعلني ناصعاً كحصاةٍ تغسلها الأمواجُ، مرة بعد أخرى.

أنا شـعلةُ نار تلعبُ بمـزاج الجهات، بحثاً عن شـكلها في كل ريح..

أحبكِ شاسـعةً كالليـل، عصيةً على الفهـم، وبعيدةً عن أيدي التداول، كشفرةِ الكون!

امرأة المنام

كان الإغـراءُ الذي تمارســه قويـاً، إلى حدٍ لا يمكــن تفاديه إلا بقبولـه، وبتفريغ شـحنته، وهي تُشـعلني، بالكتابة، بالسُـكر، أو بالبحـث عـن وجههـا الملائكي، الشـيطاني والمُربـك، في مطاردة الممثلات، متنقلاً من شاشـة إلى شاشـة، أو في وجوه النسـاء، من مجلة إلى أخرى، وعندمـا أعود متعباً بحصتي من الخذلان، كانت تظهـر في منامـي، تهمـس:" أحبكَ "، وتهـربُ من النافـذة، ما أن أهبُّ لإمسـاكها، وشـعرها الطويل يغطي ظهرها العاري، تاركةً وردةً، أجدْهـا تحت وسـادتي، وطعنةٌ في القلب، أشـعر بها، تحت قميصي، الذي لا أجدُ خدشـاً عليـه، دون أن أفهم ما هي القصةُ، حتى خطر لي أن أكتبَ رسـالةً لها، لابد أنها قرأتها، إذ لم أجدها في الصباح على المنضدة، لم أجد الوردةَ أيضا، ولم تظهر في منامي مرة أخرى، لكن قلبي لبث مطعوناً، وإلى الأبد.

لم ينته الأمرُ، لأنني صرتُ أشعر أنها حاضرةٌ معي، دائما، حتى وأنـا أجلس حائراً، مثلَ عاشـق مخذول، في الغرفـة، فأراها بعيني الباطنيـةِ جالسـةً في زاويـة نفسي، تنظـرُ إلى تلك المنطقـة المكتظة بالشجن، التي أجلس فيها، وتبتسم..

بحّة العبقرية

شُوهدتِ في أماكنٍ عدة، في آنٍ واحد، كما لو أردتِ أن يكونَ عطرُكِ مشاعاً، غير أنَّ الإمساكَ به لن يتم بيدِ وردةٍ، حتى لو صار المرءُ حديقةً.

يقول الذين سافروا إثرَكِ في الصحاري: ليس ثمة حدٌّ لتعريف بهائكِ الذي يكسر الدهشةَ، لأن مراياهم تلعثمتْ، ولم تنبسْ ببنتْ شفة، فما عكستْ، إذ عكستْ، إلا راحةَ يد تنكفئ، فتسيل من بين خطوطها الينابيعُ، وتتشكل ذاكرةُ البحيرات.

كم كان ذلك أصعبَ بالنسبة لآخرين، شاهدوكِ في البحر، وكلٌّ بطريقته صار يرسمُكِ، في آن واحد، موجةً تنافس في زرقتها الموجةَ، حتى صار العالم ماءً، وأنتِ التي على سطحه تبتكرين اليابسة.

لم يفسّر أحدٌ ما كيف تتشعبين في مخيلة الكون، وتتركين وراءكِ صوَراً، تجد طريقها إلى سطور الورق، أقمشة اللوحات، خشبات المسارح، وأحيانا إلى مقاطع منسية في العراء، حيث يتعذّر على المتوحّدين لمسَ وحدتِهم من دون صحبتكِ.

أسألكِ: مَن أنتِ؟

لأنَّ الأغنيةَ تومئ بها لا يمكن تدوينُه إلا بالإشارة، لذلك أكتبكِ كل مرة بشكل، كأنني جميعهم أولئك الذين شاهدوكِ

في الأضرحـة، عـلى زجـاج النوافذ، وفي شـفـرة البـرق. كأنكِ الـمنحوتـةُ في أعـماق كل نفـس، والغـوصُ، من أجـل صيدكِ، يحتـاج إلى الجنون كصنـّارة، فالموهبةُ التي تحـدّكِ لم تـُخـلق، كمـا لـم تنبجسْ بعد، مـن أية حـنجرة، نافورةُ الصوت التي تغسـل هـواجسَ عشاقـكِ ببحـّة العبقرية.

لـم أُشـاهدك قط، مـن دون العـالم، لأنني أعمـى، لـكـنـني أعـزفُ خواطرَ عصـاي، التي نـقـرتْ حـافـةَ رصيف جمالكِ مرة، فصارتْ خضراء، كما غصن.

أسمعُ يدي تزقزقُ

أسـمعُ يـدي تزقزقُ، لأن مَن نحتَ تمثالَـكِ جعل نهديك مثلَ عصفورين صغيرين يرتجفان من البرد..

أسمعُ يدي تزقزقُ، وأنا أمسحُ غبارَ القرون، الذي تراكم على صدركِ.

السيدةُ ذاتُ القلب الأعظم

أشـتاقكِ حتى وأنا أشتاقكِ، وبعد أن أشتاقكِ يحصل أن يحاصرني الشـوقُ ثانية، كأنني لم أفِ اشـتياقكِ حقَّ أن يكون شـوقا يعكسُ نورَ صعقتي بجمال اشتياقكِ، فأنتِ فكرةٌ في مخيال الشِعر، يكتبها الشعراءُ جيلا بعد جيل، وحين تتحقـّقُ الكتابةُ تنفتحُ الفكرةُ على فكرةٍ أخرى تنسفُ الكتابة، فلا يكتبكِ أحدٌ إلا بالمحو، ولا يمحوكِ إلا من رآكِ، وكلُّ مَن رآكِ رأى ذاته، فخرّ صعقا ثم صاح من الوجد:

أبحثُ لكِ عن وجه..

أبحـثُ لكِ عن وجه.. أنـتِ الموصوفةُ بالعطـر، وروحُكِ لا تشرقُ إلا على الغصن، مثل وردة.

لن أقطفكِ كما يفعلُ العشـاقُ، إذ لسـتُ أحداً من هؤلاء، لستُ مـن أولئـك: إنني عاشـقٌ يجدلُ سـلةَ أحلامه من دخـان النوم على المصاطـب، من النجوم التي تومضُ في سـماء اسـمكِ، من الرحيق الذي يعطُّ من مسامكِ، فيكوّن سحاباً أزرقَ إليه يصعد المطرُ، ومنه يسقط الكلمُ الطيبُ، والرمانُ، والتينُ، والزيتونُ، وطورُ سينين..

أقيـمُ بينـكِ وبينـكِ، فـلا بيـتَ إلا الشِّـعرُ، ولا سـقفَ إلا القصيدةُ.

لا أذكرُ أين رأيتكِ أولَ مرة، ربما خلف النسـيان والذاكرة: لا

أذكرُ من وجهكِ إلا وجهَكِ كلَّه، ولم أتحرَّ عن اسمكِ في الأسماء، رغم أن اسمكِ في الينابيع، يختلفُ مع مذاق كل نبع.

لكِ الماءُ في كل قطرة، في كل بذرة لكِ بستان، ولكِ خلف كل نافذة مسافرٌ: هناك قطاراتٌ تقلكِ إلى كل مكان، في آن واحد: محطاتٌ كثيرةٌ تنتظركِ. تمشين مع المطر تحت المظلات، تشربين في الحانات كؤوس عشاق لم يأتوا إلى الموعد، وتنامين مع شعراء على مصاطب من الهواء.

سريرُكِ غابةً، وهم بعضُ أشجاركِ.

لكنني قدتُ أيامي بعصا طولكِ: تبعتُ آثارَكِ في الأسفار، فعثرتُ على مدنٍ لم تخلق، لكنها مأهولةٌ بضواحيك وأنحائك: مأهولةٌ بخطواتكِ، بطيرانكِ، وبشَعركِ الذي يغطّيكِ عاريةً في الماء، في النار، في الهواء، وفي التراب..

عثرتُ عليكِ تحت ثيابي، فارتديتُكِ، ومشيتُ عارياً، يكسوني الندى بعادات براعمكِ، شاهدتكِ على شاشات السينما، وأنتِ جالسةٌ جواري، وصافحتكِ في منامات كنتُ فيها يقظاً.

قرأتكِ في الأديان، وتنفستُكِ في قرى التهمتها الحرائقُ: سمعتُ أجراسَكِ في الكنائس فخشعتُ وصليتُ، شملني غناؤك

بالحنان في الأزقة، فترنحتُ وبكيتُ، وتعتعني حنينُـكِ في المنافي، فانشطرتُ في الجهات.

هدهدني صوتُـكِ، وأنا نائمٌ في مهدِ صوتِكِ.

وكثـيرا مـا خفـتُ مـن جـبروت ضعفـكِ، كثـيرا مـا آويـتُ شـجاعتي إلى سـلامكِ، و قدّمـتُ عنقـي إلى حروبـكِ: كثـيرا ما شربتُ دموعَكِ، وسكرتُ في حانات نومكِ.

إنني متورطٌ بما لا أعرفُ كنهه: لا أعرفُ ما هو الحبُّ بالضبط، إلا إذا كان هذا الذي يوّترني مثلَ قوسٍ ، هو الحبُ.

إلا هـذا الـترددُ، إلا هـذا اليقـينُ، إلا هـذا الخـوفُ، إلا هـذا الذهابُ، إلا هذا الإيابُ..

إلا إذا كان هذا الطيّرانُ، كالريشةِ، من يدكِ هذه إلى يدكِ تلك، هو الحبَّ.

إلا إذا كان هذا الحبلُ الذي يتدلى من سقف العالم، وأنا أتأرجحُ معه، هو الحبَّ.

إلا إذا كان هذا الشغف بأن أتيه في أقاصي وجهكِ، هو الحبَّ.

إلا إذا كان هذا الخطر المحفوف بهديل الحمامة، هو الحبَّ.

إلا إذا كان هذا النعاس المقيم في مهد السهاد، هو الحبُ.

إلا إذا كان هذا السرير المحروس بقبائل من القلق، هو الحبَّ.

إلا إذا كان ازدهار الرقة في الشوك وتفاقم الخشونة في الحرير، هو الحبَّ.

إلا إذا كانت هذا السهم الذي ينطلق نحوكِ فيمزق قلبي، هو الحبَّ، لكنني أعرفُ مساراتٍ كثيرةٍ، وكلُّ مسار نهايته أنتِ.

إذا صرتِ خمراً، فأنا سكرانكِ الأبدي.

اجرفيني إذا صرتِ ريحاً، فأنا ريشةٌ بملامح حصاة.

اجرفيني إذا صرتِ إعصارا، فأنا حصاةٌ بملامح ريشة.

اكسريني، فأنا إنسانٌ..

استعاراتُ غيابِكِ تجري، تسيلُ في ساقية الحضور، ومجازاتُ حضوركِ تشغلُ الغيابَ عن نقل أقدامه.

لا أقول: " احبكِ " لأنني قلتُ ذلك لأُخرياتٍ قبلكِ.

لأنني خِطتُ على قمصانهن أزرارَ صعلكتي وعُريي.

لأنني نمتُ في المزق من صفحاتهن، واغتسلتُ بالحار من مياههن العميقة.

لأنني كتبتُ بأصابعهنَّ أغلاطي الجميلةَ.

لأنني شطفتُ يأسي بدموعهن، وآخيتُ بين خيباتهن ودموعي.

كان نصيبـي من الحب أن أقع في غرام جميلة، تحرِّضُني على أن أكفرَ بجمال جميلتي السابقة:

لن أكفرَ لأن كلَّ جميلة أنتِ. كلَّ كفر أنتِ، وكلَّ طاعة.

كلَّ شِعر أنتِ، و كلَّ نثر.

احبـكِ لأنكِ كلّهنَّ، لأنكِ الفـيءُ، وأنا الجسرُ الذي لم ينم، في حياتـه، على وسـادة من فيءٍ، لأنكِ السـفينةُ، وأنـا الطوفانُ الذي يحدسُ أن مَن يوقفه عن الغرق في الطوفان، هو أنتِ.

كلَّ صباح يـُريني هيامي كيف أتدلى مـن عنقكِ، ككِسرة من ميـاه القمـر، لأنَّ جسـدَكِ النورُ: هكـذا خنقني حبرُكِ مـن بداية السـطر، أنـا الجاهـزُ العنق لـكل مشـنقة، لكنني رأيـتُ الخلاصَ يلمعُ، كالموسى، بين نهديكِ، فالتقطتُ حرّيتي بأسناني. من يومها وأنا ألفُّ عنقي حول منديلكِ، واغني:

أنـتِ عشـبةُ الخلـود، التـي من أجلهـا يكتـبُ العـالمُ خطواتِه اللامتناهيةَ في دفتر الخطر.

أنتِ المغامَرةُ، والوصولُ.

أنتِ العودةُ بقبضة التجربة.

أنتِ الزمنُ، قواربُ الخيال، والطيرانُ.

أنتِ الرغبةُ، الجسدُ، وأنتِ اللعنةُ والغفرانُ، وحلاوةُ الخطيئة.

أنتِ تنهداتُ النبع: جريانُ الدفء في نهرٍ من البشاشة.

أنتِ سدودٌ من الحنان: خيطٌ من الطفولة، لم يزل يرتفع من أجل طائرتي.

أنتِ أجملُ سرقاتي من الكتبِ: زادي أنتِ، ومتعتي عندما تسطعُ شمسُ الإفلاس، ويخرُّ التشرّدُ صعقا من جيوبي.

أنتِ هروبي من الثكنات: متاهتي أنتِ، وحدودي.

أنتِ منفاي: وطني الذي ولدتُ فيه مقذوفا إلى خارج العالم.

أنتِ فيروز عندما يغرقُ المطرُ في الصباح.

أنتِ صباحٌ يشرقُ من قصيدةٍ منتصف الليل.

أنتِ أغنية، منذ قرون، وأنا أبحثُ عن بداية لأكتبها:

أعرفكِ خائبةً، واعرفني لا أفوقكِ إلا في ذلك.

أعرفكِ تكتبين العثراتِ، واعرفني أقودُ خطواتي إليها.

أعرفك بمستوى المصابيح: تكنسين عن أكتافي ظلام الأزقة.

أعرفكِ خلفَ العالم، وألمحُكِ، خلف الشبابيك، تجلدين المارةَ بخواطر ينسجها صمتُكِ.

أعرفكِ مشطورة بينكِ وبينكِ.

أعرفكِ ذاهبةً وقادمةً.

أعرفكِ ممّا يسببُ الدوارَ للبحر.

أعرفـكِ ممّا يعـودُ الصيادون به لينتبذوا بحـرا بعيدا عن دموع زوجاتهم.

أعرفكِ ممّا يُفرّقون به بين الليل والظلام.

أعرفكِ ممّا يجعلُ القوارب سكرانة تنقلُ على ظهرها العواصفَ.

أعرفكِ مما يجعل الشواطئَ آهلةً بالقبلات واللؤلؤ.

وأعرفكِ ممّا يجعلُ الشيطانَ والملاكَ في حيرةٍ من أمر الله.

أشعرُكِ امرأةً.

أشـعرُكِ في اللانهاية، هناك.. في غرامياتٍ شائكة، وفي حبٍ لم يحصل بعد.

أشعركِ في القفص تمنحين القضبانَ أجنحةَ الحرية.

أشعركِ تحت السوط تباركين الحزانى.

أشعرُكِ المختارةَ من العشق، والعاشقةَ من الشاعرات.

أشعرُكِ هائمةً على وجهكِ، في العالم.

أشعركِ تحملين العالمَ.

أشعركِ تلدين العالمَ.

أشعرُكِ المسافاتِ، الخطواتِ، والبـُعدَ.

أشعرُكِ أفقاً من الغموض، وغموضاً يغسلُ الأفقَ بحزنه.

أشعرُكِ تبحرين في نهر الكون وقاربُـكِ الزمنُ.

أشعرُكِ في الساعات تجرجرين الزمنَ من ياقته.

أشعرُكِ الطمأنينة عندما تتعطل حواسُ الأمان.

أشعرُكِ الأمان يكسو الخوف جلباب نومه.

أشعرُكِ الخوفَ يجلس مع الأمان على مائدةٍ واحدة.

أشعرُكِ إنساناً، وأشعرني ذائباً فيكِ، لكن ذلك هو ما يـُقلقني:

يـُقلقني أنكِ امرأةٌ ويقلقني أنني رجلٌ.

يـُقلقنـي أن الحـبَّ لا يستطيع أن يصهرَنا أكثـرَ من أن تكوني الخيطَ وأن أكون الشمعَ، أو أن تكوني الشمعَ وأنا الخيطُ.

آه، الشـعرُ هـو الخـلاصُ عندمـا يذيبنـا كالشـعلة في النـار، فلنصرخْ إذنَ: إن لم تجمعنا الحياةُ معا، فليجمعنا الشـِّعرُ..

كلانا يعرفُ أن الآخرَ ليس هو الآخرَ، وأن المستحيلَ كلمةٌ فارغة.

كلانا يجهل أن الآخرَ هو الآخرُ، وأن الحب لغة مستحيلة.

كلانا يؤمن أن الشِعر هو الحبُّ، وأن الحبَّ هو الشعرُ.

كلانا يكتب الشـعر على صدر أيامه، فيموت شهيدا.

قلتِ مرة: أنتَ ملاكي، فصرتُ شيطانا.

قلتِ مرة: أنتَ حدودي، فصرتُ متاهة.

قلتِ مرة: أنتَ عنواني، فتلاشيتُ، ولم أعد أحدا..

يا زميلتي في الخوف، يا نهاية البـُعد ومبيت الخطوات في المسافة.

يا طالعةً بوجهكِ المبتسم، يا مبتسمةً بقلب الطفل.

يا ناضجةً كالطلع، يا جريمة عادلة.

يا شريكةَ الليل، وغريبة النهار.

يا مَن تلوذ باسمك البراري ساعةَ يريق مياهه الجفافُ.

يا من لا يطيق جمالَك الجمالُ.

يا من يبتكرون القبلَ من اجل شفاهكِ.

يا من أشركتِ بي وأشركتُ بكِ، فلم نعد نحب بعضينا كما أنتِ أو كما أنا:

نزعَنا رمحُ العشق في القلب فانقلبنا:

تحبينني كما هم أولئكِ السائرون في نومهم، واتعبدكِ كما يفعل البدائيون في الكهوف: كما يحب الحمقى والأغبياء والسكارى، كما يتعبد العميانُ نوراً منسيا، كما يتهجد الأميون حروفا من الصخر.

احبكِ، وأعرفُ أني لا أستطيع أن أحبكِ لأن العالمَ خسر قلبه في الحروب والمعارك.

لأنكِ الحبُ ذاته.

لأنكِ الشكُّ، وأنا القلقُ الذي يفور في صحنه الجمرُ.

لأننا جرحنا المهدَ، وخرّبنا سريرَ الطمأنينة.

لعبتُ معكِ لعبةَ الغرق، فولد الماءُ.

لعبتُ معكِ لعبةَ الماء، فولد المطرُ.

لعبتُ معكِ لعبةَ المطر، فولدتْ الغيومُ.

لعبتُ معكِ لعبةَ الغيوم، فولد البرقُ.

لعبتُ معكِ لعبةَ البرق، فولد المرمرُ.

لعبتُ معكِ لعبةَ المرمر، فوُلد صدرُكِ:

لعبتُ معكِ لعبةَ صدركِ، فوُلدتْ حلمتان.

ثم

نفد اللعبُ، فجأة، فقد وصلتْ التقاليدُ،

وُلدتْ العائلةُ، ثم نشبتْ الحربُ.

عندما نقبّوا، بحثا عنك في طبقات سومر، وجدوا حُلمةً واحدة: حلمتُكِ الثانية لا يعرف أحدٌ أين استقرتْ:

لعل الغزاةَ، في أحد أدوارهم، حملوا غبارها إلى بلادهم، فجُنّ الهواءُ وولدتْ العاصفةُ.

لعل الريحَ حملتْها، فنبتتْ أولُ شجرة رمان على الأرض.

الغيمة

أترنـمُ باسـمكِ الغريـب، بابتسـامتكِ الشـاحبة، وبكآبتـكِ الشـتائية المفاجئـة، عندمـا تمـرّ غيمةٌ من هنـاكَ، من بعيـد، وأنتِ خلف النافذة، هادئـةٌ ووحيدة، تنظرين إلى الأفق، ليس بحثاً عن شيء، وإنما هو الملل، الذي لا يكسره شيء، سـوى انتظارٍ لمجهولٍ لم يتبيّن شكلُه بعد، في خيالك.

أفكر في هذا كله، محاولاً أن أعثر على السر، الذي يجعلنا ننتظرُ مخلّصـاً لن يصلَ، إلا بعد أن تنتهـي حاجتُنا إليه، أو بعد أن نكون قد صرفناه عن ذهننا.

لا اعـرف لماذا يخامرني الشـعورُ بالحزن، فكل شيء سـيخطفه النسـيانُ: أنتِ، أنا، ابتسـامتكِ وكآبتكِ، ولن يبقى من المشهد إلا تلك الغيمةُ، الغيمة التي تمر وإليها، من خلف النافذة، ينظرُ رجلٌ ما، ويترنم باسمكِ الغريب..

ثانيا:

حفلة الحياة، الحرب والأساطير

«لا يهمني البشر، إنما الشُعلة التي تحركهم».

كازنتزاكي

إلى عزيز الشعباني، بحثا عن أسطورتنا الشخصية..

كتفي صارت سياجا

من فرط العزلة سمعتُ ضجيج أصابعي:
جاورتُ نوافذَ يحجبني العراءُ عن قضبانها.

من فرط العزلة:
العشبُ الأبيض نبتَ على لحية الحديقة،
وكتفي صارت سياجا..

قنديل يخاف انطفاء الريح

بانتظار أن ينقلَ الملاكُ والشيطانُ عراكهما إلى الخارج، فأعودُ نقيا، وقد طردتهما من داخلي، أقفُ مضطربا عند بوابة قلقي، مثل رجلٍ تحت إحدى قدميه كنزٌ، ولا ينحني له، فتحتَ القدم الأخرى لغمٌ، أتناثرُ قبل انفجاره، ولا يلملمني أحدٌ سوى العراك ذاته، لكنها معجزة لا تحصل إلا وقد صمّمتُ على ذبحها.

عبثا أكتبُ ذلك، لأنني سأمحوه، أشطبُه، أعبرُه، ولا أكفّ عن الالتفات نحوه، فأعودُ وأكتبُه.

آه،

لا أحد مثلي يرشّ القلقَ على ما يكتبُ.

أُمزقُه..

ثم أجثو على ركبتيَّ باكيا، وأجمعُه:

قلقي حجرٌ يلعقُ نفسه، وريبتي قنديلٌ يخافُ انطفاءَ الريح.

الخبر

وصل الخـبرُ، بعد عشرة آلاف عام، وقرأنـا تفاصيلَه في دموع مسافر قطع الطريقَ، طريقَ الأزمنة، ماشياً على قدميه.

أطفأنا الفوانيسَ والمشـاعلَ لأنه كان يتعرّقُ بغزارة، فشاهدنا كيف أنّ الرحلةَ قد كستْ وجهه باشراقة الرسول، ثم رأينا ومضة العارف تشـعُ شيئا فشـيئا، فتتضحُ ملامحُه، وهو يصافحنا واحدا واحدا، لأن أطيافا من الغبار أخذتْ تتبخرُ من بَشَرته أثناء ذلك، لكنه لمّا انتهى من مصافحـة آخر الموكب، وهمّ بالالتفات ليتكلم مع الجميع، انهارَ من التعب فجأة، وتفتّتَ جسـدُه الحجريُّ، وهو يسقطُ على الأرض.

هناك تأويـلات لا تحصى، قراءات لا تُعد، وهو ممّا أجبرنا على أنْ ننتظرَ مسافرا آخر، يأتي إلينا بالخبر..

رحلات

يسافرون كثيرا
أولئك الماكثون أماكنهم.

النـاي

بعد أنْ فرَّ الحزنُ، الحزنُ النبيلُ، بعد أنْ فرَّ، والتحقَ بنا صاعداً إلى السفينةِ، رأينا النايَ طافياً فوق مياه الطوفان:

رأيناه..

ودموعُ العالم تتدفقُ من ثقوبه.

المسافر

أتذكـرُ، عندما فتحتَ البابَ، عائداً من سفرك الطويل: دخلتَ بأحمالكَ، بما معكَ من أهوالٍ، من متاهاتٍ ومن عواصفٍ، وبما في جيوبـكَ مـن غبارٍ، وفوجئتَ أنكَ نفسـكَ مازلـتَ في غرفتكَ: لم تغادرْها قط، مستلقياً على خرائطِ البلدان، التي رأيتَ..؟!

العشبة الخالدة

كنـتَ الرجلَ الذي طافَ الأرضَ، مـن بلادٍ مقتولةٍ إلى بلاد منهوبةٍ، ولم تجـدْ عُشـبةَ الخلـود إلا في بيتـكَ الأول، في حقيبةِ السـفر التي تثاقلـتَ عن حَملهـا، فتركتَها تذبلُ بـين كتبكَ وأوراقـكَ، عرضةً للغبار، وللنسيان.

الشاعر

الشاعرُ عليلٌ مصابٌ بأمراض الهواء، و بالشمس الجميلة: في قصائده مزارٌ تؤمّه عذراءٌ نافرةٌ يلاحقها رجلٌ، كلما فكّرَ أنه أبوه، خرجَ من صلبه وقتله.

لم يهزّ شجرةَ الكتابة إلا تقرّباً من البُعد: تنصّلاً عن العلة، ونكايةً بالمعلول، و لم يرتكب جريمةَ الشِعر إلا لأنه توّاقٌ لمرارته الخاصة، حيث الحجرُ من سلالة النبع، والنبعُ جوهرُ العطش.

طالما شَعرَ أنَّ حنظلَ الخيال فائقُ الحلاوة: نفضَ عن أكتافه غبارَ النجوم، ورضي بشمعةٍ ضئيلةٍ في زاوية مقهى، أو بمنفضةِ سجائر في ركن حانة، حتى نال شرفَ الخيانة العظمى، منتظراً إعدامَه، شنقاً، بحبل اضطرابه.

في الطوفان لم يعتصم بجبلٍ: تآخى مع الغرق، وفي القعر لبث ينحتُ من طين المأزق كهيئةِ الملاك: نفخَ فيه من روحه، ثم صعدَ مع أنفاسه إلى السطح، وجيوبه ملأى بأراضٍ جديدةٍ، فيما الشيطانُ يلوّح بأوطانٍ ابتكرها، قبل أن يحترفَ الغواية.

ميتافيزيقيا

لبثتُ مختفيا داخل نفسي.

ولأنَّ الشاعرَ لم يقدّم خَلاصَه أخليتُ المكانَ:

نضوتُ عني جلبابَ بدني ثم دخلتُ،

ونحو شيء، ربما هو الحلّ أو المعجزة،

رميتُ صنارة وعيي.

أحيانا كنتُ أخرجُ

لأنفضَ الغبارَ عن حصير سريرتي،

أو لأكنسَ ما وجدتُ، في باحة أعماقي، من رمل.

في كل مرة، حين أعودُ، أرمي حجرا إلى الفراغ، فأسمعُ، داخل نفسي، صوتَ ارتطامه بالظلام.

هكذا، تحت حماية الخيال،

ابتكرتُ فِطرة أخرى وحفرتُ عميقا،

في رحلةٍ إلى الأمام والخلف،

خصّبني خلالها أملٌ، كان يفرُّ كلما واصلتُ حفرَ نفقي،

ولّما صرتُ في الطرف الآخر منه،

أصبحتُ رشحةً من خيال الدخان.

أكانَ أملا حقا، أم سرابا لا غير؟

ضربتُ على طبل تساؤلي بقوةٍ،

وأرسلتُ خواطري إلى جهاتٍ لم يطرقها قبلي قلبٌ،

فعادت جميعها بتساؤلاتٍ أعمق.

في واحدٍ منها التقيتُ ملاكا هابطا من سماء أبديته، وقد علُقتْ مظلّـتُه بأهداب نجمةٍ.

على ضوء فانوسٍ كشفتُ له خوابي العالم،

فتبخّر بكامله من النشوة،

ثم

تلاشى تماما،

تاركا لي هواجسه كتذكار.

قلـتُ: لعلَ هذا هو الحد، الـذي يفيضُ فيه المحدودُ عن الحدِ، والتفتُّ فرأيتُ قفصا ينحدر نحوه طيرٌ.

رفستُ القفصَ، ورميتُ إلى الطيرِ نظرةً، فاخترقتْه:

كان القفصُ بدني، ونفسي هي الطيرُ.

هتفتُ: قتلتُ الوحشَ، قتلتُ الوحشَ..

لكنني حين تجلّيتُ عدتُ إلى الأصل:

رجلا يتهدم، كما سياج مدينة، هي دائما، عرضة للنهب.

أنبتُ ورودا بين أقدام تماثيلكِ

كان أبي يلعنني، وهو يجمع الأخشابَ، من غابة الخيال، ليصنع السـفينةَ، وكنـتِ تمسـحين دموعي كلـما فكّـرتُ في التوبة، لأنني أكلـتُ كلَّ تفاحاتكِ، ولأنكِ كنتِ سـخيةً بما يكفي لأن ينصرف الشيطانُ إلى أعمال أخرى، كما أنـكِ كنتِ وقحةً، طفلةً وقحةً، بما يكفـي لأن يتوقـف الملاكُ عن ملاحقـة ما يفيضُ به جسـدُكِ من حرائق مباركة.

تّوقعتُ أن أسقطَ، لأن أبي كان غاضبا.

كان سـاخطا كأي صيـاد نبيـل، مزّقتْ شِـباكَ أفكارِه سـمكةٌ طائشـةٌ، وكلما فكـّرت في العـودة إلى أحضانه، كنتِ تفكين أزرارَ رغبتكِ، فيندلع القميصُ، وتفيضُ الأنهارُ، الترانيمُ، والمشاعلُ.

وعندما هبّ مصيري، كما إعصار، وجرفَ الطوفانُ كلَّ شيء: عندمـا ارتفعتْ درجةُ حرارة الظلام في العالم، كنتِ عاريةً، عاريةً جـدا، بما يكفـي لأن ينفجر الـبرقُ في داخلي، لكنني كنتُ هشـاً: كنتُ هشـاً بما يكفي لأن أكون إنسـانا، لان أموتَ غرقاً في الحب، ولأن أذوبَ شيئا فشيئا، ثم أترسبُ مع الغِريَن، هنا وهناك، حيث سأعودُ ثانية، لأنبتَ ورودا، لا شكلَ لها، بين أقدام تماثيلكِ..

مخطوطة الأعشاب الغامضة

أتونابشتم/ بورتريه شعري[1]

مثلَ نبي جُنَّ من مقالب شعبِه، أقطعُ الليلَ جيئةً وذهاباً، رغمَ أني كتبتُ ما قد رأيتُ: هي رؤيا تجلّتْ لي وحدي، في لحظة نادرة، فأخلصتُ لها.

الطوفانُ نثرٌ، وهو يقتربُ، والهروبُ شِعر، وما من مَهربٌ إلا الخيـالُ: لا غابةَ أو بسـتانَ في هذه البلدة، وأنا لم أجمع خشـباً لبناء السفينة.

- " إذهـبْ إلى الجحيـم أنـتَ والشِـعرُ والطوفـانُ، أمـا نحن فسنعتصم بالجبل ".

وما من جبلٍ، وهذا ما يجعلُ الأمرَ محيّراً:

لم أدّعِ الشِـعرَ، فأنا عادةً لا أخبرُ أحداً عمّا أكتبُ، مع ذلك فهم يخنقون الاشراقةَ، و يؤدون أدوارَهم بإتقانٍ يبعثُ على الجنون.

ـ " لماذا تفعل بي هذا، يا إلهي؟ "

(١) أتونا بشتم: نوح البابلي، بطل الطوفان، الذي رفعته الآلهة ليسكن دلمون، جنة السومريين، مع الخالدين.

صرخـتُ في معابـد "شروبـاك" لكـن لا يبـدو عليـه أنه كان يسـمعُ، وسـطَ سـيلِ الحجارة: ينبجسُ من مَسـام الجدران ومن النوافذ، وأنا راكعٌ أمام تمثالِه الضخم، فخرجتُ حزيناً ويائساً إلى البيت، ثم جلستُ القرفصاءَ في زاوية نفسي.

اسـتغرقتُ طويلاً في التحديـق إلى مخطوطةِ هذه القصيدة. ربما توغلـتُ عميقا في داخلها: حفرتُ الليلَ والنهارَ ومشـيتُ، محاطاً بقبائـل الأرق، حيث لا أرضَ هناك ولا سـماءَ، حتى خُيّلَ إليَّ أني قـد اخترقتُ العصـورَ، فرأيتُ ما رأيـتُ: جلجامشَ، في الأخير، منهوشَ القلب، يطرق بابي، بحثا عن سرّ الخلود.

مَن يفهمني؟!

إنّ الأمـرَ ليـس سـوى تلـك الأعشـاب الغامضـة في أقـاصي الباطن، تنمو فتأخذُ شـكلَ قصيدة. آه، مَـن يقنع هذا المجنونَ أنّ الشاعرَ رُبانٌ يتخلى عن معرفته بالبحر، طلباً لمتاهتِهِ الخاصة؟

مَن يُقنعُهُ أنّ الشِـعرَ يُلقي على أكتافِهِ الهزيلة، أمتعةً ثقيلة جدا، قبلَ أنْ يمنحَهُ موهبةَ العبور فوق مياه الأبديةِ، وحيداً؟!

أخبار المرأة التي هربت من الطوفان

المـرأةُ التي سـكنتْ الطابـقَ الأعلى من البيت، التـي لجأتْ إليّ هربـاً من الطوفان، والتي قالت موضحةً، بعد أن شـاركتني قنينةَ الفودكا، وأنهتها بجرعةٍ واحدةٍ:

" لا يهمّنـي النجـاةُ، ولا الغـرقُ: يهمّني هذا " وأشـارتْ إلى قلبها، الذي سـمعته يخفقُ بالمطر، ويضخُّ عاصفتَه، رياحَه، في كل الاتجاهات..

كانت مُسـافرةً على مركب أتونا بشـتم، لكنَّ سجائرَها نفدتْ هنـاك، إضافةً إلى أنهـا رأت الناي، الذي حفـرتْ ثقوبَهُ بدموعها الحارة، طافياً فوق المياه، فألقتْ بنفسـها، عاريةً، إلى لجّة الموسيقى التي لا يمكن أنْ يتجوهرَ فيها المتألمُ، إلا بعد أنْ يَنسـى أنه متألمٌ لا لـشيء بعينـه، لكنَّ ألَمَه لا يُمكنُ أن يُنسـى إلا بهـذا، إلا بالقفز إلى قعر الألم بقوة.

هكـذا وصلتْ إلى هـذه البلدةِ المحروسـةِ باليأس، وبأسـوارٍ مـن ذكريـاتٍ غـيرِ واضحةٍ، حتـى بالنسـبة لي: أنا الـذي عمّرتُ ضواحيها، غسـلتُ سواقيَها بأحلامي، وعانقتها بشدة، كعاهةٍ لا شفاءَ منها إلا باعتناقها كمذهبٍ أو كديانة.

كنـتُ أنتظرهـا لأنَّ أسـمَها كان مذكوراً في بطاقـةِ الدعوة إلى الحيـاة: عندمـا تجد الجميعَ في انتظارك إلا حياتكَ، كما أنّ اسـمَها كان مكتوبا على الأسوار، مثل نبؤة.

كان اسـمُها مكتوبا، ولا أحدَ يقرأ، لأنّ اسـمَها لم يكن مكتوبا لكـنّ الكلّ يقرأ، غيرَ أننـي لم أتوقّعْها جميلة وبسـيطة، كأول فجر عاشتْهُ الخليقة.

كنتُ بحاجةِ إليها وأنتظرُها لنتشـاركَ العومَ في بحيرةِ جسدينا حتى آخرِ رعشـة، قبل أنْ نصطدمَ بالجدار ونكتشـفَ أننا غارقان لا محالـةَ، لكنَها لم تكـفّ، هذه المرأةُ، عن الغنـاء، ولا عن ضربِ الأرض بقدميهـا، وهـي ترقصُ عاريةً، أو تبكـي من فرطِ الحنين على أشياءَ لم أفهمها.

هناك أحلامٌ لا تكتمل صيرورتُها إلا إذا ألغيتها تماما، أو إلا إذا تبنيتها كحماقةٍ ترتكبها، في لحظةِ سُكر، أو في لحظةٍ شعوريةٍ محضة، ثـم تندم عليهـا طوالَ حياتكَ التـي لن تعودَ، بعـد ذلك، حياتكَ مهما حاولتَ استعادتها، لكن هذهِ المرأةَ، هذه المجنونةَ، تُجبرني على أنْ أمشي على حبل الأمـل كالبهلوان، في نفس اللحظةِ التي اقتلعَ فيها الطوفانُ كلَّ شيءٍ من جذوره، حتى فكرتُ أنْ أطردها، لأنها تُخالـفُ إيقاعي في تفجير المأزق، أو تحجزنِي داخلَ سـجن فكرتي عنها، فلا أجرؤ على أنْ أرتكبَ حماقة، حماقةً صغيرة، تؤكدني غيرَ عـابيءٍ بما يَحصلُ على ظهر هذا الكوكب، الذي فقد مغزى دورانِه

حول نفسـهِ منذُ آلافِ السنوات. كما أنها كانت متأهبةً للطيران في متاهةِ أطوارها المتقلّبةِ، أو للقفز من النافذةِ، ومسـتعدةً، في نفس الوقت، لأنْ تحزمَ حقائبَها وترحلَ بإشارة مني.

لكننـي لم أفعل ذلك: لم أطردْهـا، إذ لا بيتَ لي، لا طابقَ أعلى، لا قبو، وأعيشُ وحيدا، مع مصيري، في العراء.

في طريق العودة من رحلة الخلود

إلى زعيم نصار

تستيقظ فتجد الليلَ ببدلته المرصّعة بالثكنات، وبالنجوم التي صدئتْ، لكثرةِ ما غسلتْها الأشباحُ بماء الأساطير: ذكرى انفجاراتٍ وقعتْ، ووجوهٌ كثيرةٌ خذلتكَ، كلها تدوّي معا، فجأة، في فراغ الغرفة، وأنتَ ترفعُ وسادتكَ، كمَن يفتشُ في الصحراء عن قاربٍ، بحثا عن علبة الدخان، فتعثر على الظلام جافّاً، راسماً على شفتيه علامةَ استفهام، كما راية ترفرف في ذاكرتها عاصفةٌ مرّتْ، ذاتَ يوم، لتكنسَ ما بقيَ من ريش الأمان في مدينةٍ منهوبة.

تفركُ عينيكَ لتتأكدَ من أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام: لم تمسْ شظيةٌ ما بَشَرةَ هذا الرحم الدافيء الذي تعيش فيه، بانتظار ولادةٍ مغسولةٍ بحنان أمك الغرفة، غيرَ أنّ علامةَ استفهام ثانيةً، تظهرُ أمامكَ في المرآة، وأنتَ تحلقُ لحيتكَ، التي خالطها الشَيبُ، فتحزن لأنَّ الأفعى مازالت تُجدّد ثيابَها يومياً هناك: في القتلى، الذين تختم المعاركُ، في كل مكان، جوازاتِهم، من أجل السفر إلى السماء.

كثيرا ما هِمتَ على وجهكَ في الكتب باحثا عن خَلاص، فأزعجكَ أنَّ جلجامشَ أضاعَ عشبة الخلود.

ـ "لو كنتُ مكانه، لو كنتُ مكانه.. لأمسكتُ الأفعى، لأجبرتها أنْ تتقيأ، لـَ.. "

تـصرخُ غاضبا من غبار الرعب، الذي صار يتراكم، يوما بعد آخر، على اسـطواناتِ الموسيقى، لكنَّ لفتةً منكَ إلى نافذةِ المطبخ، حيثُ السـاعةُ تدقُّ دقتها الكبرى، تجبركَ عــلى أنْ تفركَ عـينيكَ مـرةً بعدَ مـرة، لتتأكدَ مـن أنّ جلجامش لم يملك أنْ يفعلَ شـيئا، وأنكَ تكررُ محنتَهُ الآن، إذ تصرخُ وحيدا:

- ما الذي يحصل؟

مَن جاء بالليل في هذا الوقت،

حيثُ الساعةُ تدقّ دقّتها السابعة... صباحا

معنى أن تكون شاعرا..

عندما تجلسُ بين يدي نانشـه[1]، سـيباغتكَ النسيانُ فجأة، فلا تتذكـر وجـهَ الصبيـةِ التي رأيـتَ، ولا الذي حصلَ لـكَ معها في المنام: ستتبخرُ الوردةُ التي أعطتَها لكَ بيد، لكن طعنتها بالخنجر، بيدها الثانية، ستلبثُ أبدا، مزروعةً في أرض قلبكَ.

من الصعب أن تدركَ، سـاعتها، أنكَ أنفصلتَ عن الزمنِ، أنَّ سِـحراً آخر يُفلتكَ من أسر ضعفكَ البـشري، وأن الطريقَ الذي سلكتَ، أنَّ الأهوالَ والمهالكَ، التي خرجتَ منها هيكلاً عظمياً، قـد اختفتْ مـن ذاكرتكَ أيضا، فيما نانشـه تتصفحكَ مثل كتاب، تنظرُ إلى وجهكَ المغبّر بوقار، ولؤلؤةُ ما تشـعُّ في داخلها، سرعان ما تثبُ من مقاطع كلامها لتستقرَّ بين يديكَ.

لسـتَ مضطـرا لأن تـروي لهـا مـا رأيـتَ، لكن وجـودكَ في حضرتهـا لابدَّ أن يكون مـبرّرا، وليس أمامـكَ إلا أن تبتكرَ مناماً آخـرَ، حُلماً مُقنِعـاً، يجعلها مجذوبةً إلى جوهـركَ، الذي من عروقه تتشـعبُ الجواهـرُ، كـي تسـتخرجَ عدّتهـا الثمينـةَ مـن الألغـاز والتيجان والرموز، ولتخبركَ أنَّ ما رأيتَ لم يرَه أحدٌ من قبل، غير أنه يستحقُّ عناءَ أن تكون عليلاً يجهلُ ما علته، أو عارفاً يعرفُ أن معرفته مرضٌ لا شفاء منه.

---

(١) نانشه: إلهة سومرية، وظيفتها تفسير أحلام الآلهة..

عندما تخرجُ منها، ستجدُ نفسكَ أمام مهمّة أخرى، لا أعذبَ منها، ولا أشقّ: أن تبحثَ عن امرأة حلمكَ الذي ابتكرتهُ، امرأة منامكَ الغريب الذي لم تره، وأن تحقّقَ رؤياكَ، كما فسّرتها لكَ نانشه، ولا سبيل إلى ذلك، لا سبيل إلى القبض على مستحيلكَ الخاصِ إلا بالشِعر، إلا بهذا: إلا بأن تواصلَ انفصالكَ التامَّ عن الزمن..

كيف تصنع أسطورتك الشخصية؟!

كان الجـو لطيفا ومنعشـا، وكان أتونا بشـتم يجلـسُ بهدوء إلى جـواري في الحانـة، غير أنه، عندمـا دبّتْ فيه النشـوةُ وفتح الخمرُ نوافـذَ خياله، بدأ يـسردُ قصة الطوفان، فهطل المطـرُ فجأة: هبّتْ العاصفـةُ مـن جميع الجهـات، فجرفتْ كلَّ شيء، لكنـه ظلّ رابط الجـأش ممسـكا بقنينـة الخمـر، غير آبـه بالميـاه، التـي ارتفعتْ إلى السقف، وارتفعتْ معها أحلامُ العالم.

كنـتُ أبحثُ عـن مَخرج مـن الورطة، وكلما حاولـتُ الخروج إلى الشـارع كان يسـحبني من الخلف، وهو يواصل سرد القصة، وعندما، أخيرا، أوقعه السُكرُ بالضربة القاضية، رأيتُ نداءَ حزينا في عينيه، ولم أتردد، فعانقته وصعدنا إلى السـطح، فيما هو ما يزال مصرّا على السرد.

لا أتذكرُ ماذا حصل بعد ذلك، لأنني فقدتُ الوعي من شـدة الإنهاك، ولمّا اسـتيقظتُ وجدته ينظرُ إلى الأفـق الملبد بالغيوم من خلف إحـدى النوافذ، مثل مُمَـثلٍ يترقـبُ، بقلق، متى ينطلق إلى العلنِ من خلف السـتارة، حتى حانتْ اللحظة الذهبية، آه.. تلك اللحظة الخاصة جدا في حياة كل فنان:

حـلَّ أزرار قميصـه، وأخرجَ من تحته حمامة: نظـرَ إليها بحنو،

قبّل ما بين عينيها ثم أطلقها، والتفتَ إليّ، وهو يلوّحُ بقنينة الخمر الفارغة:

ـ لن أسمح لكَ بالخروج من الحانة، حتى أعرفَ أخبار الحمامة.

هذا هو دوري في مسرحية العالم:

هكذا تُصنع الأساطيرُ:

بالعَرق، بالطيران في الخيال وبالدموع..

يا صديقي!

الغريب

خرجتْ "دلمون"[1] عن بكرة أبيها.

قال الناسُ: " سنتبعُ آثارَ هذا الرجل، الذي يعرفُ طرقاً لم نسلكها، مدناً لم نتشرّد فيها، وغصّاتٍ مكثفةً لم نشربها: لقد أنهكتنا الطمأنينةُ، ونحتاجُ إلى متاهاتٍ مضاعفةٍ نستعيدُ، على ضوء أنوارها الضئيلة، طبيعتنا الغريَنية، بعد أن مُسِخنا إلى آلهةٍ، نعيشُ في هذا المكان النائي، بعيداً عن الخوف، وعن الخطر.. ".

وما من أحدٍ يمشي أمامهم، لكنهم غادروا، غادروا في كل اتجاه، ثم تواروا عن الأنظار، فصرتُ أتسقّطُ أخبارهم في مفارق طرق الخيال، حيث يتوفّر أدلّاءٌ لا يخطئون، إن أُحسنَ إليهم بزادٍ من السُهاد، أو ببعض كحول القلق، فعرفتُ أن الشرطة لا زالت تتعقّبُ آثارَ الغريب، الذي جاء من أوروك ماشياً على قدميه: الغريبُ الذي تفرّق بين الأزقة، وصار يمشي في كل مكان، وقد تضاعفتْ ملامحُه، ثم انعكستْ على جميع الأشياء: عينان تائهتان، هيكلٌ عظميٌ تكسوه بَشَرةٌ من الطين والملح، ويدان ذابلتان، كغصني شجرة ميتة، تمسكان بخرائط من دخان، وتشيران إلى هناك.

(١) دلمون: جنة السومريين، التي يسكن فيها الخالدون بعد موتهم.

قالوا: إن روحه تشـعبّتْ إلى أرواح، تسـللتْ إلى الجميع، وأن ريبته انتشرتْ، كالوباء في الهواء.

أضافوا: عمّا قريب ستلفظ هذه الجنةُ أنفاسها الأخيرة وتموتُ، بغيـة " دلمـون " ثانية، سـتولدُ من رحـم طرق أخـرى في الكتابة: تؤدي أو لا تؤدي إليها..

جلجامش ـ بورتريه شعري

هـذا هو قـدري الـذي أين مـا وليتُ وجهـي وجدته جالسـاً بانتظاري، فأجلسُ إلى جواره لأنه، هو الآخرُ، يحتاج إلى المواساة، فهـو قـدري الـذي كلما فـرّ من قـدره وجـدني بانتظـاره، وهو مما يعطينـي سـبباً هاماً للشـعور بالحزن النبيل، الكافي لأن أسـكر في الحانـات، لأن أطيرَ من قلق إلى قلـق، لأن أكتبَ قصائدَ وأهملَها، ولأن أقـعَ في حب الخائبات: خائبةٌ تقودني إلى خائبة، ومن خلفي موكبٌ من ألف سيدوري، يقرَأنَ عليَّ من كتب النصائح.

الآن،

بعـد أن قبضتُ على عشـبة الخلـود، عليَّ أن أهبـط النهر عارياً لتأتي الحيّةُ وتسرقَها: هذا هو الدورُ المأساويُّ والمُمِلُّ الذي عليّ أنْ ألعبَهُ في مسرحية الوجود.

طبعة لاحقة من ملحمة جلجامش

رغم أني صرتُ أعرفُ مآلي، في لعبة المصائر، إلا أنني شعرتُ، فجأة، أن عظام أمواجي قد نخرتها طحالبُ الخلود، التي تطفو على مياه الأبدية، فلم أعد ذلك الولدَ الذي يرتجفُ، على وقع أقدامه، هيكلُ العالم.

هكذا عبرتُ المحيطاتِ وجزرَ الظلام ثانيةً، لكن من دون الحاجة لأن أمرَّ بما مررتُ به سابقا، إذ لستُ أرغبُ بشيء سوى أن أسمع سيدوري: صوتُها الذي يبلبلُ السحنةَ الداخلية للعصور، وهي تردّدُ، كشاعرة انصهرتْ بأبجدية الحكمة، نصيحتها الرائعة.

لعلّه من الشعر أنها لم تفكر، لحد الآن، بطباعة مجموعتها الشعرية، عكسَ الكثير من الحمقى في هذه الأيام، ومنهم أنا الذي التهمتْ ملحمتي ملايينَ الألواح، حتى نفدَ الغرينُ، حتى فقدتْ أوروكُ خصوبتَها، حتى أنَّ آلافاً من الكَتبة طعنوا قلوبهم بالمسامير وانتحروا، قبل أن أنتهي من سرد أكاذيبي الرائعة عليهم.

بعد كل هذا الطواف بين الأزمنة، بين الوحوش والنساء والفنادق، لا أحد يصدّقُ أن عناء الوصول إلى سيدوري، والنومَ

معهـا في سريـر واحد، وحده، هـو الخالد، وإلا كيـف أفسّرُ المللَ الـذي يكتسـحني جالسـا إلى جـوار آتونـا بشـتم، ولا عمـلَ إلا التلصلـصُ عـلى الكون بمنظار مقـرّب: أرى إلى موكبٍ من ألف جلجامش، أو أكثر، يقفون عند باب الحانة، وفي ممرات أحلامهم ترفـرفُ مناجـلُ صدئـةٌ، لكثـرة مـا تسرَبـتْ رطوبةُ الخلـود إلى رؤوسهم.

ـ " لا بأس..

أريدُ أن أكون في آخر الصف، هذه المرّة "

أقـول ذلك لـ "جلجامش " مراهـقٍ، ينتظر دوره، من أجل أن يأخذ نصيبه من معسـول وجه سـيدوري النادر تكـرُارُه، كتذكرة سـفـر توصلـه إلى الأبدية. وفيما هو يدخّن سـيجارتَه متابعاً، عبرَ التلفـاز، أنباءَ حمامة الطوفان التي عادت إلى السـفينة، وهي تقود سربا مـن الطائرات الحربية، أهزُّ رأسي، إذ أرى إلى جسـده الذي صار نحيفا كالناي، لكثرة ما حفرتْ الأهوالُ من ثقوبٍ في حياته.

كنـتُ قد صادفته يفرُّ مـن أوروك، ذات ليلة، على ظهر زورق من القصب، بعد أن أخذتْ بلبِّه مغامراتي، فتغاضيتُ عن اعتقاله، مفضّلاً أن تأخذ عقوبتُه شكلَ هذا الترحال الذي لا معنى له:

لقد كان عليه أن ينتظر، على الأقل، حتى أضيفَ هذه القصيدة إلى ملحمتي، في طبعة لاحقة.

الأوديسا السومرية

هذه المرسومةُ بعناية على لوحٍ من الطين، المحفورةُ في نبض الزمان:

هـذه الأمُ السـومرية التي ما زالـت لحد الآن، منـذ أول دمعة حزن، تلطمُ رأسها بيديها..

لعلها فقدتْ ابنها غيلةً.

لعلها اعتقدتْ أنه أفلَـتَ من يد الحياة بموجة كالنصل، حادة، فابتلعه الفراتُ.

لعلها أشـعلتْ الشـموعَ جالسـةً، على الشـاطيء، بانتظار أن يعودَ به الملاكُ.

لعلها رأته، في منامها، يسقطُ في المعركة، ذات حرب، وساوته الخيولُ بالتراب.

لعلها سـمعتْ أن عشـتارَ أغرمتْ بجماله، فاصطفته إليها، ثم مزقته بعدما أنهتْ وطرَها.

لعلها أضاعته في أحد أسواق أوروك:

خطفه تاجرُ رقيقٍ،

وباعه.

لعلها ساومتْ،

حتـى آخـر شـهقة مـن ينبـوع جسـدها، مـن أجـل أن يطلق

جلجامش سراحه،

فلا يتعفّــن من رطوبة الخلود، في زنزانة أفكاره.

لعلها سمعتْ أنه كان يعبثُ مع البغايا، في حانات أريدو،

فطعنه سكيرٌ حتى الموت.

لعلهــا ظنّــتْ أنه تجرَّع الســمَّ، مع أحد الملــوك، ودُفن في مقابر أور.

لعلها..

أنا يا أمي كفرتُ بكل هذا، بكل هذا وذاك،

بكل هذه الأطوار من الفقدان والحزن.

بكل هذه البلاد التي لا تتقن إلا خنقَ الينابيع،

إذ تنبع تحت نعل الريح.

بكل هذا التاريخ الملطخ بالفيضانات، بالدم، وبالدموع.

بكل هذا وذاك..

حتى انشطرتُ غرباً وشرقاً، وهمتُ وحيداً في الجهات.

هبوط رومي شنايدر[1] إلى العالم الأسفل

الخـوفُ، ومـا ابتكره مـن أخطار، هداني وأنا شِـبهَ يقظٍ، شِـبهَ نائمٍ، إلى أن أحفر حفرة:

هكـذا ودعـتُ شـطوطي: حبـي، مراهقتي وشـبابي، ولا أفهـم لماذا دفنـتُ، مع كتبي في الحفرة، صورةَ رومي شـنايدر العاريـة، ولـو كنتُ أعرفُ أن عشـتار[2] قد هبطـت إلى العالم الأسـفل قبل ذلك، لأضفتُ إلى مقبرتي شيئا من الخمر، فهي سكِّيرةُ سومر.

لو كنتُ أعرف لأضفتُ طاولة الكتابة، وشيئاً من النور: علبة ثقـاب مثـلاً، فالظـلام في كل مـكان، لكنهم يقولون: إن عشـتار خرجتْ عارية، مثلما دخلتْ رومي شنايدر..

عاريةٌ تخرج، فتهبط مكانها عاريةٌ أخرى..

فداءً؟!

---

(١) رومي شـنايدر: ممثلة سـينمائية ألمانيـة، أدت أدوارا مهمة على الشاشـة، وهي إحدى ملهمات الشاعر في شبابه.

(٢) إينانا: عشـتار البابلية، إلهة الحب والحرب، وبطلة الشـاعر في جميع أعماله، والقصيدة تعتمد على أسطورة (هبوط اينانا إلى العالم الأسفل).

إذا كانت تلك هي سُنن العالم، فبماذا نفتدي الكتبَ؟

الكتبُ التي داسها الظلامُ بأحذيته اللامعة.

الكتبُ التي صُيِّرتْ جسوراً ليمشي فوقها الغزاة.

الكتبُ التي سُرقتْ.

التي أشعلت.

التي..

وها إني أخططُ، بعد أن شربتْ أرضُ السواد ما شربتْ من الحبر والدم والأفكار، أن آخذَ عطلةً، ليست طويلة، لكنها أيام أقضيها في مسقط رأسي: لن أمشي ليلاً في الشوارع، ولن أرودَ مقهًى: سأفتح باب البيت بهدوء، وأمشي ببطء، لئلّا أوقظَ أشباح موتاي من إغفاءتهم الطويلة، ثم أدخلُ غرفتي التي.. هناك حيث، تحت سريري، حفرتُ الحفرةَ، وواريتُ كتبي الترابَ.

سأنامُ، ملء جفوني، في الحفرة.

آخر أخبار الطوفان

غيّـر الطوفانُ رأيَه، فلـن يفورَ التنورُ هذه المـرة، إلا في موعد لاحق، سيُعلن بالتشـاور مع الآلهـة، لأن البشر أنهـوا إضرابَهم: نددوا بالفوضى، بالرفاهية وبالحرية، ثم عادوا إلى العمل في خدمة الملوك، تشـييد الزقورات و السـجون: عادوا إلى دفع الضرائب، إلى الصلاة في المعابد، إلى تقديم بناتهم كأضحية وهدايا إلى الكهنة، عادوا أيضا إلى الثكنات، إلى النوم بخوذٍ من الصفيح، عادوا..

لا فرهودَ.[1]

لا ريـحَ عاتيـةٌ في الأفق: لا ثـورات، لا انقلابـات، ولا جثث طافيـة فـوق رؤوس المتظاهريـن: القصائـدُ الحربيـة تعـودُ إلى الأدراج، وعلى الشـعراء أن يعودوا إلى لعـب الدومينو، والمراهنة عـلى مصائرهـم في المقاهي: الظلام للأزقـة، والنجوم على أكتاف الجـلاد، فالماء لن ينبثق من قلب الحجر، ولا من مَسَـام الأشـياء، كما أن المطرَ لن يهطل بغزارة، مثلما حدث في الطوفانات السـابقة: الصحراء شاسعة وسخية، فلن تبخل على أور بالغبار.

ـ "عواصف ترابية، لا غير"

---

(١) الفرهود: الاصطلاح الشعبي اليومي الذي أُطلق على عمليات النهب التي طالت ممتلكات اليهود، أقدم مواطني العراق، بعد أن تم طردُهم وتسفيرُهم عنوة إلى خارج البلاد..

هـذا ما قالته صحفُ سـومر هـذا الصباح، وعـلى ذلك هناك تسـعيرة جديـدة للحـَمام، للغربـان، للمجاديـف، للمشـانق، ولألـواح الخشـب: الـزوارق الورقيـة كافية للهجـرة نحو أرض الأحـلام. لا حاجة بنا إلى أنبيـاء، لا إلى زراعة الزيتون، ولا لعناء تشييد جبل عال جدا، كالجودي.

مرثية سومر

الـكلابُ تعـوي في الخرائـب، وكآبـة المسـاء تحيطنـي من كل جانب، فألوذ بكتابة مغامراتي، أو بشرب الخمر، لأستعيد عافيتي التي ضاعت، وأنا أطارد الجراد من مكان إلى مكان.

هناك شائعات عن هجوم مرتقب سيشنه البدو، حاملين معهم الصحراء، قادمين من الجنوب.

وحـدي في الغرفـة، أدخـن سـجائري، وأنظرُ مـن النافذة إلى أوروك، وقد خلت شوارعُها من المارة: الناس قانطون، ولا مزاج لسماع المزيد من خرافاتي.

لا أحد يريد أن يشـاركني أكلَ عشـبة الخلـود، ومعظم الذين دعوتهـم إلى ذلك فضّلوا الذهاب إلى الحانـة لمغازلة النادلات، أو لسماع الأغاني الحزينة، والانخراط في البكاء..

سلة المصائر

أمضي حياتي، في السلّة ، طافيا فوق المياه، فيما حورياتُ البحر يفتحن أمامي ممالكَ الباطن، ويغسَلن ملابسي بلعاب و خواطر اللؤلؤ.

الحَمامُ الزاجلُ ينقلُ رسائلَ مشجِّعةً، من متابعي رحلتي الخرافية، تاركاً سفينة نوح، بمَن عليها، تائهة فوق مياه الطوفان، فيما أنا أجذفُ بيديَّ الصغيرتين، لأنفذ من خرم أمواج الأحداث، التي تعصفُ بهذا العالم المضطرب، منذ اللحظة الأولى لولادته، مصمّما على أن أستثمرَ كلَّ دقيقة من عزلتي الباذخة، غيرَ عابيء بمَن ينتظرني على الشاطيء، فقد حزمتُ أمري على أن أصنعَ أسطورتي الشخصية بعرق جبيني. لا حاجة إلى معونةٍ من مَلاك، أو تحالفٍ مع شيطان: لن أمرَّ بمصر أو ببابل. لا أريد أتباعا، لا أحراراً ولا عبيداً.

لا أحتاج أكثرَ من هذه البرهة الصافية، حيث أعيشُ متآلفاً مع نفسي: لا ضدَّ هذا أو مع ذاك، أقرأ أو أكتبُ الشِعر، وأسمعُ إلى الموسيقى، فبعد أن طالعتُ ما كُتبَ عني، في صفحات التاريخ، شعرتُ بالأسى، وضحكتُ بمرارة من قلة الخيوط في خيال المؤرّخين، التي لم تتسع لأكثر من حياكة هذين الخيارين: نبيٌّ أو ملكٌ، في لعبة شاسعة كالمصائر..

قلب الدمعة

تأتي الصرخةُ من كل مكان، إلا من الجثة، لكن لا أحدَ يسمع، فعشتارُ صمّاءُ، في مجلس الآلهة: لا شيءَ يُلهبُ خيالها إلا النارُ، تلتهم أورَ، معبداً بعد آخر، حتى تأتي على الصرخةُ.

كنتُ الناجيَ الوحيدَ من الحريق.

خرجتُ ورأسي شُعلة. خرجتُ عاريا، وقد صممتُ أنْ أوسّعَ من معجزة نجاتي، فدخلتُ سوقا مقفرا إلا من الدخان: سرقتُ صنارةً وخيطاً، وسلكتُ زقاقا جانبيا، لا اعرف إلى أين يُفضي، حتى وجدتني في نهايته، حيث بحيرةٌ كبيرةٌ جداً بحجم دمعة، تتلألأ مالحةً، بانتظاري.

رميتُ صنارتي وجلستُ أترقب قريباً من الحافة، الى أنْ تحرّكَ الخيطُ وخرج ديموزي[1] من العالم الأسفل، مشتعلا وجميلًا مثل نيزك، فزغردتْ السومرياتُ من النوافذ، ومن فوق السطوح، لكن.. لم يبدِ عليه أنه مهتمٌ: نظرَ إلي بعتبِ مَن يعرفني جيدا، هزَّ رأسه، رمى الصنارة بوجهي ثم غطس عائدا، إلى قلب الدمعة.

(١) ديموزي: إله سومري، حبيب وزوج عشتار، وهو تموز في التوراة، وهو الإله الذي بخروجه من عالم الأموات يبدأ الربيع، في ديانة الخصب الرافدينية، ومنه تطورت فكرة المخلّص في الديانات التوحيدية، وخاصة عند الشيعة الإمامية.

ديموزي / بورتريه شعري

لم أعدْ أحتملُ هذه الطبقاتِ من النواح والترانيم،
هذا اليأسَ، وهذا الحنانَ،
هذا العبءَ الذي أفقدني خفّتي، وصار يجرجرني إلى القاع،
لم أعدْ أحتمل.

رأيـتُ إليهـنّ قادماتٍ من هنـا، آتياتٍ من هنـاك. يخرجنَ من الساحات، يتقافزنَ من النوافذ، ومن الأزقة: موحلاتٍ وجميلاتٍ، يُعولـنَ ويضربـنَ خدودهـنّ، يتناوحـنَ ويلطمـنَ صدورَهـنّ: سـومرياتٌ، بابلياتٌ، آشورياتٌ، نساءٌ كثيرات، أمهاتٌ و أراملٌ، عاشقات وصبايا، تحت وهج الشمس، يتبخّرن ويتساقطنَ دموعا وآهاتٍ، والموكبُ يقطعُ الشـوارع، يكبرُ من شارع إلى شارع، من مدينةٍ إلى مدينة، يتّسعُ من قرن إلى قرن، وكلّهنّ ينتظرنَ أنْ أخرجَ إليهنّ، أنْ أفيَ بوعودٍ لم أقطعْها، فبكيتُ، ولم أحتمل..

لم أعدْ أحتملُ هذه الطبقاتِ من النواح والترانيم.
لم أعدْ أحتملُ هذا اليأسَ، وهذا الحنان.
لم أعدْ أحتملُ هذا العبءَ الذي أفقدني خفّتي، وصار يجرجرني إلى القاع.
لم أعدْ أحتمل.

أنا أيضا، مذ كُتبتْ أسطورتي على ورق الحاجة، أدخلُ الموكبَ مـع النسـوة كلَّ عام، وأفعـلُ مثلَ مـا يفعلْنَ، بانتظـار خروجي، لأصرخ بكل قوتي:

لم أعدْ أحتملُ هذه الطبقاتِ من النواح والترانيم.

هذا اليأس، وهذا الحنان.

هذا العبء الذي أفقدني خفّتي، وصار يجرجرني إلى القاع.

لم أعد أحتمل..

السفينة الباطنية

منـذ الأزل ونحـنُ نبحرُ فـوق المياه التـي تهـدرُ، غاضبةً، بين خطـوط الخرائـط: ندّخـنُ أو نقضـمُ أطـرافَ أظافرنا، جالسـين القرفصاء في السفينة.

منـذ الأزل، والقـرون تمـرُّ مسرعـةً، مثل قطـار أفلـتَ من يد المحطات، فلم يعدْ قادراً على التوقّف:

نفـدتْ الصلـواتُ، جفّتْ الترانيـمُ، ولم تبقَ إلا هـذه الأغنية، التي طالَ التردّدُ قبل أن نعزفها:

لا أحدَ في الطريق إلا العاصفة، إلا العاصفة..

وهـذا الطوفـانُ الذي يهدرُ مثل قطار أفلـتَ من يدِ المحطات، فلم يعدْ قادرا على التوقف..

قبل ألفِ عام أطلقْنا الحمامةَ الأخيرةَ،

آه.. أطلقنا الحمامةَ الأخيرةَ قبل ألف عام، ولا أثرَ إلا العاصفة، إلا العاصفة..

هكذا مزّقنا الخرائطَ، كلَّ الخرائط، واتبعنا طرقا غامضة: كلُّ واحدٍ منا قاد سفينتَهُ الباطنية بنفسه، لا على اتجاه، حتى وجدْنا الحمامة.

الجودي

إذا كان لابد من الهروب إلى المجزرة.

إذا كان لابد من النجاة من الغزو في بلاد السّواد.

إذا كان لا بد من تجنّب الطوفان:

تعاليْ نصنعْ من قبلاتنا جَبلاً عالياً كالجودي، نتسلقه بهدوء، قبلة بعد قبلة.

ماذا تريدين أن نفعلَ،

إذا كان نوحُ لا يريدنا في السفينة؟

الهيكل العظمي للحضارة

بإمكانـكَ أن تتخيّـل الشـمسَ تنفجرُ كبركانٍ عشـرَ على فوّهتِه الحقيقية، فيذوبُ الثلجُ: يذوب الثلجُ، ويسـيلُ الماءُ مختلطاً بالدم، وهو ينحدرُ مسرعاً من ذروة الجبل، ثم ينهارُ كلُّ شيء لتتدحرجَ، على السفح، أجسادُ القتلى..

لكن لا ثلجَ في أور لترى ذلك،

لا جبلَ أيضا.

بإمكانـكَ، إذن، أن تقـترحَ عاصفةً قويةً جـدا، عاصفة جراد، عاصفـةً بأسـنان ومعـاولَ: غاضبةً، تهـبّ من قلبٍ لاكَـه الزمانُ بقسـوة، فتقتلـع القـيرَ، الترابَ والحـصى، من تلكَ الزقـورة التي يدثرها اللغزُ والغبارُ، تلهثُ سمراء، كشامة على خد النهر..

بإمكانكَ أن تتصور ماذا سيحصل لو قرّر الفراتُ أن يعبّر عن امتعاضه، كما كان يفعلُ عندما، في كل عام، يجدّدُ شبابه.

بإمكانكَ أن..

شـاهدْ، عـلى مهلٍ، كيف تسـيلُ الدمـوعُ من مآقي السـومريين، كيف تتطاير الآهاتُ من حناجر الأمهات، وكيف تنجرفُ الأرواحُ، الأذرعُ، والأجسادُ التي شيّدتْ الهيكلَ العظمي لهذه الحضارة.

عشتار - بورتريه شعري

لستُ مَن يفتحُ لكَ، وليس هذا بابي: لا أسكنُ هنا، كما أنَّ الطُرقَ الصحيحةَ، كلَّ الطرق والإشارات التي تؤدي إلى مسكني، تنتهي من غير أن تفضي إلى مكان.

أنا فكرةٌ أقدمُ من الأفكار، لا أعرفُ مَن أطلقني.

لي في كلِّ بحرٍ، في كلّ نهر، في كلّ نبع، في كلّ شريان، في كلّ نسغٍ، قطرةٌ، لكنَّ البشرَ، وحدَهم، جسّموني على هيئةٍ من لحمٍ ودم.

قالوا: في شوارعنا تمشي، وعلى أسرّتنا فقط تنامُ هذه المرأةُ، التي من ثدييها يرضعُ العالمُ حليبَ طفولته، و يخصّبُ أرضَ رجولتِه بسمادِ غريزتها، فأعطوني في كلٍ مدينة اسماً، حتى صرتُ قبيلة من النساء، تتفرّعُ مني قبائلٌ وبلدانٌ:

تحترقُ باسمي مدائنٌ، تنهضُ حضاراتٌ، وأنا هنا وهناك، خارجَ الحدس وخلفَ التوقعات، أواصلُ هبوبي من كل مكان.

صرتُ عدّة أقفالٍ، وأنا مفتاحٌ واحد، لكن هيهات: لا وجهَ لي.

أسيرُ ضائعةً بين تماثيلي الكثيرة، بين عشاقي ومعابدي، بين الحانات والمقاهي والميادين وساحات المعارك، وأقرأ شِعراً لا يمسُ إنسانيَ الداخليَّ، فلستُ امرأةً بعينها.

إن مرَّ طيفي بروحِ هذا، أو مسّ خاطري قلبَ ذاك، إن تنقلتُ

بـين الصعاليـك والأنبيـاء والشـعراء، فلأن مَـن فطرني قـدّر أن أبحثَ، في أعماق هؤلاء، عن كينونتي.

لسـتُ عصيّـةً ولا ممكنـةً، ومَن أغـرم بي، مَن صـيّرني عاهرةً طائشـةً في كلّ ميناء، مَن عبدني آلهة في الأديان، أو مَن نحتني أمّا تهدهدُ منامَه، فلأنه لا يجد إجابةً عن مغزى وجوده:

يكتبُ نفسَه مَن يكتبني، لأنني خالدةٌ لا أموتُ.

القلبُ المكسورُ يأنسُ بدفئي، و الأعمى يستطيعُ، وحدَه، أن يراني..

امرأة الطوفان

يقولـون: إنها وصلتْ قبل أن يغيـضَ الماءُ، وينحسرَ الطوفانُ، ولم تظهرْ إلا بعد أن توقفتْ السفينةُ.

ظهرتْ بعد أن نزلَ الناسُ:

بعد أن تفرّقَ الناسُ،

تجلّتْ.

رنَّ الزمنُ،

وارتعشَ خلخالُ العالم، عندما التفتتْ.

أضافوا: أن كتفيها كانتا عاريتين،

تلهثان، تحت الشمس،

كحقلي سنابل.

كانت يداها خاليتين إلا من خطـين من الماء:

دجلة والفرات،

الفرات ودجلة..

ومما قيل عنها: إنها لم تقلْ شـيئا عندما قذفها الناسُ بالحجارة،

لكنها عندما ركضتْ إلى الشرق أشرقتْ الشمسُ، وعندما راحتْ إلى الغرب سدّتْ الأفقَ غيمةٌ، أما الشمالُ فانسدلَ بينها وبينها على هيئة من الجبل، فلم يبق إلا الجَنوبُ، حيث متاهةُ الأهوار تغلقُ المنافذَ بهواجس من قصب..

أوردتْ الكتبُ أخبارا كثيرة، منها:

أن اللعنة حلّتْ بسببها،

ففار التنورُ،

لكنها أبتْ أن تصعد إلى السفينة.

قالت معتذرة: سأمشي على الماء،

ومشتْ فوقه.

فوق الماء مشتْ، ومن أمامه ومن خلفه، وعندما أطلقَ الربّانُ حمامته الأخيرة وحلّقتْ، حلقتْ عالياً: حلّقت عالياً، ولم تجد مكاناً تحطّ عليه سوى كتفيها.

أضافت الأخبارُ: عندما حطتْ الحمامةُ، انحسرَ الماءُ، فجأة، وظهرتْ اليابسة.

Sun Flower

كنتُ أهربُ من الصفّ، وأجلسُ على سياج المدرسة، مُنتظراً خروجي مع الصالحين. عندما ضبَطَني أبي أكتبُ شِعرا، أعطاني كتابَ ألف ليلة وليلة: من يومها ابتدأتُ رحلةَ البحثِ عن " قوت القلوب ".

من يومها وأنا أتدفّقُ من خواطر الينابيع، ومع دموع الصبايا: تمسحُ عنّي مناديلُ الأمهات غُبارَ سفر طويل، رأيتُ فيه مئات البلدان، وأنا جالسٌ بين أحضانِهن.

عشتُ في الكهوف، وأكلتُ العشبَ مع الحيوان في البراري: ارتعشتُ من البرد، وسجدتُ للبرق، ثم انتشرتُ في الرّعد: خدمتُ في المعابد، وعثروا على وجهي في ألواح الطّين عندما رسمتُ محبوبتي على جلْدِ الزمن: صعدتُ الفراتَ، ومعه انفجرتُ في كل فيضان: حاربتُ مع السومريين في أور، قاتلتُ مع البابليين ضدّ البدوِ، ثم سَلَبتْ لُبّي امرأةٌ آشورية، وتوارتْ في زحام مدينةِ نينوى، فبكيتُ حتى سالتْ دموعي في دجلة، وطافَ بي طائفٌ من الهُيام فهربتُ وحيدا، حتى وصلتُ إلى آخر نقطةٍ في الزمن: رقصتُ كثيراً مع زوربا، وجلستُ طويلا تحت شجرة بوذا: طفتُ مع عُرفاءَ ومتصوّفةٍ، وطرتُ في الهواء مع المجانين، لكنّ صوفيا لورين أغوتْني، في الظلام، فقفزتُ إلى الشاشة، وأقنعتُها أنني الرجلُ الذي كانت تبحثُ عنه في فيلم " sun flower".

طـردوني من السـينما لأننـي كنتُ ولـدا وقحـاً، فخرجتُ من الأحـلام إلى العـالم، ومعـي قبلةٌ جادَ بهـا فمُها الخـارقُ، لكنّني لم أصلْ إلى البيت، رغم أني سلكتُ نفسَ الطريق الذي أتيتُ منه.

كان أبي قـد مات عندما وجدتُ السـبيلَ إلى مقهاه، حيث كان يجلسُ الجنودُ الهاربون من الثّكنات.

كنـتُ أريدُ أنْ أضعَ الحقيقةَ بين يديهِ المُتعبَتين من حفْر الأنفاق في السجون.

كنتُ أريدُ أنْ اشكرَهُ لأنه أفسدَ حياتي.

كنـتُ أريدُ أنْ أشرحَ له خُلاصـةَ العصور، فـ"قوت القلوب" لم تكـنْ غـيرَ إينانا السـومريّة: مفقودتي التي تشـعبتْ روحُها بين الدّخان والحرائق.

وحـين حاولـتُ أنْ أقـصَّ الحكايةَ عـلى عُشـاق هائمين مثلي، صَعقـتْـني معرفتي، وفقدتُ القُدرةَ على النُّطْق، فلم أجدْ ما أفعلُهُ سـوى أنْ أعودَ لأجلسَ على سـياج المدرسةِ، مُنتظرا خروجي مع الصالحين..

مرثية عشتار

أحـدُ أعراض وقوعي في الحب هو المـشيُ تحت المطر، دون أن أبتـلَّ بقطرة، الطـيرانُ في الهـواء، ووقوفي جامـداً كالتمثال، رغم سقوط المدينة بيد الغزاة.

الرمحُ الذي كنتُ أمسكُه لم أَطعن به أحداً، سوى قلبي، لأنني كنتُ في طورٍ آخرَ، لا علاقةَ له بالقوة أو بالضعف: لست شجاعاً ولا جباناً.

هكذا جلسـتُ في الخراب، لا أفعل شـيئاً، سـوى أن أنظرَ إلى الألم، وهـو يتقـدم نحوي حاملاً معـه أمتعةً ثقيلةً، هـي الأملُ في أن أمـوتَ كأيِّ عابـرٍ، لا علاقة له بما يجري مـن حوله، غيرَ مهتمٍ بالربح أو بالخسـارة، لأن دموعَـكِ لم تتوقـفْ عن الجريان، حتى تشكلتْ بحيرةٌ كبيرةٌ جدا من اليأس، جلس الأعداءُ على ضفافها يشربون نخب انتصارهم، ويلقون إليهـا القنانيَ الفارغةَ، لتطفو، مثلَ حياتي، فوقها.

عزيزي أنكيدو[1]

كان لدي إحساسٌ بأنَّ الليلَ لن يبخل عليّ بضيفٍ عابر، ولم أتوقع أبدا أن تلك الليلةَ كانت مخصصةً لكَ، أنتَ القادمُ من جذوري، ومن صحبة الحيوان والعشب.

كان ثمة صراخٌ في الخارج، وكان هذا الصوتُ الآدميُّ المجروحُ يقرع جميعَ النوافذ، ولا أحد يفتح، لأنه كان عبارةً عن الخوف نفسه، متجلياً في صرخة، لم يطلقها أحدٌ من قبل.

عندما تجرأتُ، أخيرا، وفتحتُ البابَ، وجدتُ أنكَ نفسكَ الشخصُ الذي كنتُه في قديم الزمان، بل أنكَ نفسي عندما وقعتُ في الشرَك، وفي براعة الإغواء، فمارستُ الحبَّ، دون أن أعرف ما هو، مع امرأة قالت إنها سومرية، لكنَّ البرق الذي انفجر من داخلي أضاء كلَّ شيء، فتورطتُ باليقظة وبالمعرفة، وتبعتُها، تبعتُ المرأةَ التي قادتني من الروح إلى الجسد، حتى وصلتُ إلى أريدو، هذه المدينةُ اللغزُ، هذه المدينةُ الغباريةُ التي تعصف بها الرياحُ من كل الجهات، ولم أجد أحداً بانتظاري، كما وعدتْني.

كان الجميعُ يهربُ من رؤيتي، عندما طفتُ الشوارعَ عارياً، بحثا عن براءتي، التي اكتشفتُ أنها تبخرتْ، شيئا فشيئا، وأنا أقطع الطريقَ المؤديَ إلى جلجامشَ لا وجودَ له، إلا في قصص غابرة...

---

(١) أنكيدو: رفيق جلجامش، الذي أغوته امرأة وجاءت به إلى أوروك من البراري، حيث كان يعيشُ مع الحيوانات في ألفة!

الحب حسب التقويم السومري

كنتُ جالساً في غباري.

كنتُ غباراً يجلسُ في غباره.

كنتُ في العطش، وفي الحيوان.

وكنتُ لا أعرفُ الجسدَ، لا أعرفُ أحداً، ولي مملكتي من العشب، وحريتي التي من الرمل.

نسيتُني فجأة، عندما تعرّت أمامي، وتعرّفتُ على آخرَ كان يعيش في داخلي.

كان يعيشُ في داخلي آخرٌ، وكنتُ أجهلُ أنني مأوىً أو ملاذٌ. كنتُ أجهلُ أني بيتُه، وأن عينيَّ هي نوافذُه.

تعرّت لي، وتعرّيتُ رغم أني كنتُ عارياً أصلا، غيرَ أنني في عريي الثاني كسوتُ جسدي برقاً خاطفاً، حتى فرَّ مني ما لا أعرفه، وسكرتُ من شدة النور، ومن الرعشة.

دخلتُ العالمَ سكرانَ، وهي أمامي تمشي عاريةً في كل مكان، ثم تبخرتْ، بغتةً، مثلَ دخان، وضاعت مني في الزحام، فصرتُ غريباً في العالم.

سرقتْني مني.

أغوتني، و سرقتْني مني، فقام الجدارُ بيني وبيني.

قام الجدارُ فتهدمتُ.

لا تصدّقوا ما في الألواح:

لستُ بطلاً.

كيف يكون بطلاً مَن خسر كينونته أبدا؟!

أنا أنكيدو

أنا هزيمةُ البراءة.

أنا المعرفـةُ الأولى، أنا الذي تتعاقب عـليَّ عصورٌ من الوحدة، وقرونٌ مـن الظمأ،، أنا الذي يطوفُ الكتـبَ، والحاراتِ والمدنَ، أنا الذي يخترق شاشاتِ السينما، بحثا عن المرأة، تلكَ المرأةُ الهاربةُ في الزمن، بعدما سرقتني.

عن البغي التي أغوتْ أنكيدو

المـرأةُ التـي أغوتــْــني، وجاءت بي إلى المدينة، جلسـتْ إلى جواري هذا الصباحَ، في حافلةِ الحياة، وحدثتني عن أنكيدو آخرَ تبحثُ عنه، لتكفّرَ عن غلطتِها، ولتعيدَهُ هذه المرّةَ إلى البراري.

كنـتُ قادماً مـن ألمٍ آخـر، لم تتجوهرْ لُغتـي بعدُ لأكتبَـهُ بوجازةِ الـدرّ، مكتفيـاً بما في خفّتي مـن ثقلٍ، وبما أعماقي من أسـىً، متوارياً عن الأنظار خلفَ الكتابة، لكنها بوجهِها المشمسِ، ببشرتها الشبقة، التي تنضحُ دموعاً وفرحاً غامضاً، كعاصفةٍ شـاءَتْ أنْ تستريحَ من الطـوافِ عند ناصيةِ هشاشـتي، اخترقتني بسرعةٍ مُدهشـة، فرأيتُ هلاكـي في النهـر المارِّ بين نهديها، عندما عانقتنـي بحنانٍ، ونظرتْ ـ بأيّ أسـف ـ إلى جسـدي الذابل، زاعمةً أنها تراه، أنكيدو، يشعّ من داخلي، وأنها تسمعُ عواءَهُ، نحيبَهُ واضحا، وأنها..

لم أصـغِ إليها، لأنني شـعرتُ بلا جدوى العـودة؛ إذ خسرتُ كينونتي، مذ أنْ طاوعتُها أولَ مرة، فختمتُ هذه القصيدةَ بطريقةٍ لم تتوقّعْها، بل إنني ـ أنا نفسي ـ لم أتوقع أنْ أكونَ غليظَ القلب مع امرأةٍ سومريةٍ، تنطوي على كلّ هذا الخيال.

نملة تحمل على ظهرها الكون!

خططـي تغـيّرتْ: لم أعدْ أفكـرُ بالبطولـةِ، بالقتال مـع خمبابا، بمقابلة سيدوري، أو بالعبور المستحيل نحو أتونا بشتم: سجائري لا تكفي لمثل هذه الرحلة، ولذلك سأعتكفُ في داري، وسأنتدبُ الشـعراءَ المأجوريـن للكتابةِ عن رحلةٍ لنْ أقومَ بها: هناك شـعراءُ مأجورينَ دائما، وأنا لن أستطيعَ أنْ أغيّر القدر.

منحـتُ، اليـومَ، أنكيـدو راتبـاً تقاعديـاً: حفنـةً مـن الغزلان والعشـب والينابيـع، كي يعـودَ إلى البراري ويعيشَ هنـاكَ إلى أنْ يمـوت، فـلا يعثر منقّبو الآثار على قلبه مكتظـا بالجرادِ الذي كان يأكلُـهُ في المجاعـات، ثم كتبتُ إلى عشـتارَ رسـالةً غراميـةً حارةً، ودعوتُهـا إلى أنْ نعيـشَ معا تحت سـقفِ الرغبة، مادامتْ سـومرُ ستسـقطُ أولاً وأخـيراً في يـد البـدو، كـما هـو مكتـوبٌ في كتاب التاريخ، الـذي قرأْتُهُ في مقهى أبي، عندما كنتُ صغيرا، مثلَ نملةٍ تحملُ على ظهرها الكون.

ما هي القصة..؟!

أفتحُ كتابَ: "عظمة أخرى لكلب القبيلة"[1] فأجدني هناك، بعيدا عن أوروك، في قصيدة أقرأها لا على التعيين، ولو سألني أحدهم: ما هي القصة؟! سـأفعلُ مثلما سـيفعل سركون بولـص: أغلقُ الصفحة لبرهـة، وأنظـرُ من النافذة إلى سـاعي البريـد: يخـبرني أن البغيَ التي أرسـلتُها لإغواء أنكيدو، مسـتعدةٌ للذهاب إلى الـبراري، مرة ثانية، بحثاً عن أنكيدو آخر، ليس هشّاً، وأكثر صلابة أمام الموت.

ـ" اخـرجْ من قنوطك، يا رجـل، خذْ هذا المظروف، إنه منها: لقد طرقتُ جميعَ أبواب العالم، حتى وصلتُ إلى بابِــكَ "

لن أفتح البابَ:

أغلقُ النافذة، وأعودُ إلى مواصلة القراءة.

(١) **عظمـة أخـرى لكلـب القبيلـة**: كتاب شـعري من ابتـكار **سركـون بولص**، والقصيدة المعنية في النص أعلاه هي **قصيدة المظروف**.

أبي يعود إلى البيت

عاد أبي إلى البيت، ورمى عُشبةَ الخلود إلى الطاولة. لا حصر للقُبل الملطخة بكلماته التي لم يقلْها، وهو يتخذُ ركناً قصياً من المطبخ، فيما أمي تخرجُ من حجرة نومها، لتهشَّ أسئلة الجيران من رأسها الذي يفورُ كتنورِ الطوفان: انكبّتْ، فوراً، على حذائه الملطخ بالأوحال وبالمدن، وعبثاً حاولتْ أنْ تكشطَ منها آثارَ الطريق المؤدي إلى سيدوري، ضرّتِها في النصائح.

لاشك أنه مازال حزيناً، ليس على أوروكَ التي تهدّمتْ، ونخرَ عمودَها الفقريَّ الغزاةُ والغبارُ، ولا على تلك القرون، القرون الطويلة، التي هدرها ضائعاً بين المنافي، وإنما على رحيل صديقه أنكيدو الذي كان يتسكعُ معه في الحانات وفي المقاهي، أو يغازل بصحبته نساءَ سومرِ الجميلاتِ، في مواكب النواح على ديموزي، وإلا ما سرُّ الدموع التي سالت، من محجري عينيه التائهتين، فخضّبتْ لحيته البيضاء؟

ما السبب في أنه أخرجَ مسدسَه، فجأة، وصوّبه نحو الأفعى التي تسلقتْ المنضدة؟

ولماذا غيّر رأيه..؟

لماذا غيّر رأيه، كما في كل عودة، فأعاد المسدس إلى مكانه، ثم قام: لبسَ حذائه، الذي عاد نظيفا، وخرجَ من البيت، دون أن ينبس ببنت شفة؟!

أنا الذي قامرتُ بحياتي

"ليس للفنان الذي يضع حياته على المحك من شقيق.."

صاموئيل بيكت

كانت درجةُ حرارة اليأسِ قد تجاوزتْ الغليانَ، في ضواحي أحلامي، فتبخّرتْ جميعُها، كشَعبٍ من الغبار والنسيان، وأنا سكرانٌ ومفلس: رأسي بين أقدامي أدحرجه أمامي مثلَ كرة معطوبة.

مشيتُ طويلاً في الشوارع، الى أن قررتُ الاستراحةَ، فاتخذتُ منه مقعداً، وجلستُ فوقه، في حانة سيدوري، حيث يجلس الحشّاشون، والسائرون في نومهم، على جرعاتٍ، فوقَ مصائرهم.

كنتُ أريد أن أعرفَ ماذا يغنّي المفتاحُ أمام حزمة أبواب، لأنكِ صرخةٌ في طريقي لابدَّ أن أثبَ خارجها دون أن أوقظ أحداً، فأنتِ أخفُّ من أن تكوني قفلا، وأنا أبعد من أن أكون بُعدا.

كنتُ بحاجة إلى روحي الطليقة، التي تسطعُ فيها شمسُ الشكّ، ويرفرفُ داخلها القلقُ، لأنكِ ما كنتِ لتعرفي معنى أن تكوني ملاذاً، وأنَّ سكرانَ ومفلساً يصحو وينامُ متخيّلاً أنكِ امرأة.

كنتُ أحتاجُ الجنونَ كي أفكرُ بطريقة أفضلَ، لأنكِ تجذبين الجرحى إلى ينابيعكِ، وتبنين من شقوق شفاههم مشاحيفَ من العطش.

كنتُ بحاجة إلى امرأة أجترحُها من بطون الأساطير، فأنتِ أوحشُ من أن تكوني صحراءَ، وأعمقُ من أن تصيري طعنةً، فكل مَن أحبكِ تحوّلَ إلى حصاة، وكل حصاة تنتظرُ أن ترميها على محبّكِ التالي.

كنتُ بحاجةٍ إلى مَن يُزيح عني ثقلَ العالم، الذي اكتشفتُ أنه يشاركني الجلوسَ فوق رأسي، في الحانة، فيما سيدوري تعرض عليّ مفاتنها:

" لكَ وحدكَ،

هذا السرير الناصع من اللحم،

هذا الرخام المغسول برذاذ النشوة،

هذه التلول من بَرادة الشبق،

لكَ وحدكَ.. ".

تخبرني أنني الوحيدُ، السهمُ المسمومُ الذي اخترق حُجبَ قلبها. تغويني بفكّ النحس، وبالنوم على وسادة من مفاتح الممالك.

تساومني كعاهرةٍ ضاجعتْ عصوراً من الرجال، ولم تبلغ كفايتها قط، لكنها الآن، بفراستها، تبدو واثقة أنَّ في شراييني، أنا السكرانُ والمفلسُ، تسبحُ النطفةُ المختارةُ، التي تجسِّمُ لجسدها المبحر في النار خارطةَ الذروة.

كانت الطرقُ متشعبة، كحلقات من الدخان، تتحركُ في كل اتجاه، حسب مسقط رأس الألم، وحسب أمطار الخذلان الذي تذرفها غيمةُ الخسارة، كذاكرة جلجامش مخمور لطّخ أسوار بلاده بدم العبيد، وبالدموع، ثم اكتشف الخدعة، فعاد محمولا على أكتاف قتلاه، بعد قرون من الحانات، باحثا عن..

- " سيدوري، أين قامرتُ بحياتي، من أجل عشبة الخلود؟ في أية حانة؟

لماذا لم أربحها، أو أخسرها؟

لقد أتلفتُ موارد أوروك على المرتزقة من الشعراء، الذين تجندينهم، ولم أقبض شيئا.. ".

يصرخُ بوجه سيدوري، وهو يخضّها مثل شجرة تعرفُ، وحدها، كيف كان يفكرُ إبليسُ عندما أغرى الملاكين بأكل التفاحة:

- "لقد أخذتُ بنصيحتكِ، وانتدبتُ مليون ناقدٍ للكتابة عن ملحمتي، أيتها العاهرة، لكن..."

فنهضتُ.

كنتُ في قطار يهدرُ بكآبة، بعد أن نفدتْ فيه البيرةُ، وجفَّ السُكرُ في عروق سكته الحديدية، مما اضطرني إلى مغادرته قفزا من نافذة الخيال، مجردا من أوراقي، حقائبي، وعكازي: زاحفا على ركبتيَّ، عشرةً بعد عشرةٍ، حتى وصلتُ المجهولَ، ولامسَ حدسي الغامضَ منه، حيث وجدتُ آتونا بشتم يُشعلُ أعشابا،

ويستنشقُ دخانها منتشيا: يراقص الأفعى، و يغنّي أغنية " عندما كنتُ سكران ومفلسا " فشاركته الغناء، بعد أن استعدتُ مزاجي الذي جاءني محلِّقاً بريش النثر، فيما أنا أهبطُ بهدوء، نبضةً بعد نبضة، نحو القعر الأعمق من هذه الأغنية، ممسكا بحبل مصيري، الذي نسجته من عثرات الطريق، تاركا العالم، في الخارج، يمشي مترنحا على الأرصفة الموحلة، وهو يدحرجُ كرة ما بين قدميه، ربما هي رأسي، رأسكِ، رأسه، أو رأسكَ: أيها المجد الذي تقرّحتْ على جِلدكَ الروحُ، أيها الأجرب، يا عدوي البائس، أيتها المصيدة.

الأنذال

الشـجرةُ، في الحديقـة، لا تهتزَ، سـاكنة، رغـم الإعصار الذي يقتلعُ أوروكَ من جذورها.

الفراتُ يرتجفُ، مثلَ خيط، تحت الجسر.

الأوراقُ تتطايـر، الكلـماتُ، واسـتغاثاتٌ تفلـتُ مـن الحِـبر، فترتبكُ السطورُ.

يومـا ما كتبتَ: " يتركزُ الجمالُ في أحزان غامضة لكنها تلهثُ، رغم سُـمك الظلام، كالذهب " أما اليوم فلسـتَ تذكرُ أين، لماذا كتبتَ ذلك، وها أنتَ عند باب الحانة، حيث سيدوري منكبّةٌ على تأليـف كتابها في النصائـح، تبحثُ عن المفتاح، ولا مفتاحَ سـوى الريح، تقطفُ بمنجلها الأعشـابَ، وتقلـبُ بمزاجها القواربَ، كلَّ القوارب التي أبحرتْ في مخيلتكَ.

لا مزاج للسفر صوبَ أتونا بشتم، بعد نصيحة سيدوري، مع هذا الإعصار، مع هذا الغبار الذي يعبثُ بالتقاويم، ويمزّق الأزمنة:

لا ظل، لا فيءَ تحت هذه الشجرة الميتة.

خلف الباب تقابلُ حياتكَ التي لم ترها منذ مدة طويلة، لكنكَ إذ تكتشـف أنّ مراثـي سـومر، ينابيـع المعرفـة، والمعـاني المفقودة

للكون قد كسـتْ بدنكَ ببدلة الطير المهاجر أبدا، تتذكرُ حفنةً من الصعاليك والسكارى، أنكيدو، الحانات، و العزلة التي تشي بكَ مأهولا،

غـير أنّ هناك مـا هو أهمُّ ينبجسُ مثلَ هلال مكسـور، فجأة، من بين غيوم ذكرياتكَ المهجورة: الأنذال،

آه،

الأنذال،

الأنذال الذين شـاركوكَ مقصورةَ السـهر في أغنية، ثم ترجلوا منهـا دفعـة واحدة، تاركـين حناجرهم على مائـدة الذكرى، التي ترشَـها بالشـمعِ كلـما عنَّ لـكَ أن تحتفلَ بـكل الأوسـمةِ الصدئةِ على صدركَ، بـكل دمعةٍ ذرفتها بحرارة، بـكل الصفعات، وعند هـذه الأخيرة: عند هذه الأخـيرة فقط تتلمس خديـكَ، فيتوقف الإعصارُ عن جَلد المدينة، و تهتزّ الشجرةُ بعنفٍ في الحديقة.

عازف الناي

كنـتُ أضعُ تـردّدي في خدمـة الخوف الـذي يكتسـحُ المعبدَ، كميـاه الطوفان، كلما وصـل الغزاة وأحرقوا البلـدة، رغم أنني لم أبرح مكاني مرةً، ممسـكاً بمصيري، كعازفِ نايٍ وقع في غرامكِ: أنتِ، إينانا، يا مَن كنتِ سيدةَ العالم.

كنتُ أرى إليكِ من خلال فكرتي عنكِ، وأنتظرُ تلكَ اللحظةَ، تلـك اللحظـةَ الخارقةَ التـي تدوم كعمـرٍ، عندما تخلعـين ثيابكِ الغِرينية، وتنكشـفين عاريةً، تحت ضوء القمر: ترسـلين نظراتكِ إلى النـاي فيتحول، بين يـديَّ، إلى وردة تتفتح، بين يديكِ، فتصير شـجرة تأخذينـي إليها، وفي الطريق تكشـطين الطينَ عن رغبتي، لندخل الشـجرة عاريين، فتنمو عـلى الأغصان براعمٌ وأثمارٌ، هي مجـازاتٌ واسـتعاراتٌ، تنوب عـن امتزاجنا،عن عـراك الجمر في موقدينا، وعن قبلاتنا.

كنـتُ مُجبَراً، في تلك الأيام، على أن أبدو متجهماً وحزيناً بوجه الجميع، ولم يكن ذلك يناسب لحظتي معكِ: كان ذلك لا يُشبه ما في داخلي من موسـيقى، ولا ما في حنجـرتي من ترانيم، كان ذلك يحفرُ نفقا طويلا من الحزن أقطعه، جيئة وذهابا، بفواصلَ كثيفةٍ لا يفهمها أحدٌ، ولا يشاركني قدَّاسَها إلا النايُ.

كنتُ أودُّ، كنتُ أودُّ لو أنني..

وهـا أني، بعـد قرون من النفـي، ببدلتي الغرينيـة ذاتها: بدلتي التي تراكمـت عليها نظراتُ الفضوليين، أمسـكُ بنفس الناي في متحف مزدحم، بعيدا عن الضفاف التي خُلقتُ منها.

آه، يبـدو لي، الآنَ، أنَّ السـومريَّ الـذي صـاغ تمثالي، ورسـم قسـمات وجهـي بأطـراف قصبـة بسـيطة، كان يحـدسُ انقلاباتِ الـروح في هذا العـالم، ويعرفُ جيـدا، كفنانٍ، ما سـيفعله الحبُّ، حسب التوقيت السومري، بعاشق من طين، مِثلي..

أتهمُكِ بأخطر الجمال

أتـّهمكِ بأخطر الجمال،

آه، الجمال..

ذلـك الجمال الذي يجعلني مهـددا بالطرد من القطيع، لأنزوي في ركـن حانة، أو زاوية مقهى: أدخّن سـجائري، محدقا بالدخان الذي يشـكّلُ، وفقَ إيقاع اللحن الذي تعزفه الأساطيرُ، وجهَكِ، فأثبُ من مكاني:

أتنقلُ، بخفةٍ، بين الطاولات.

أكسرُ في طريقي حواجزَ متوهمَةً: أحطم كؤوسا وقناني خمر. أقفزُ مـن فوق أسـلاك الكلام الشـائكة، متجاوزا الشـائعات والصراخ، لأُحرّكَ يديَّ في الفضاء، كمن يلاحق روحا هائمة، وصلتْ لتفيض بخوفهـا على أمان المكان: هي روحُـكِ التي لا يراها أحد، روحُـكِ التي جاءت من أبعد نقطة في الزمن، روحُـكِ..

ويضحـكُ الجميعُ، وتعمُّ المكانَ فوضى حياتي التي لا أجد لها قرارا إلا في هذا اللعب مع اللغة ومع الخيال.

لا قـرار إلا في هذا الغرق الطافي فوق مياه الكتابة، حيث يبدو الطوفان مجرّد قطرة.

يغـرقُ الجميـعُ بالضحك، عندما أشـدُّ على قبضتـيَّ صارخا: وجدتها، وجدتها..

أنظـرُ إليهـم بإشـفاقٍ، وأنا أمسـحُ عـن خديـكِ دموعا ظلت تسـيلُ مذ أن حطّموا تماثيلكِ، مذ أن تحوّلتِ من إينانا إلى عشتار، ثم تمزقـتْ بين الأديـان والطوائف: تفرّقتْ في الجبـال والأودية، ومشيتْ حافية تحت الشمس، بحثا عن نفسكِ في البراري..

ارتّـب هندامَـكِ الذي تعتعتـهُ عواصـفُ التقاليـد، أرفعُ عن جسـدكِ الشـوكَ، آثارَ السـياط، وأطردُ الغزاةَ: كلَّ الغـزاة الذين تناوبوا على اغتصابكِ، وأرفعُـكِ.

أمسـحُ صرخات السـبايا، أطوفُ بـكِ حولـكِ: أنصبكِ على طاولتي مثلَ إلهٍ غيرِ مكتشَف، مثلَ شعاع سيطردُ الظلامَ، سيطردُ الظـلام والعـالم، ثـم أنحني لكِ، لأتلـو عليكِ صـلاتي، نيابةً عن الخائبين.

أغنية الفراشة

كانوا يذهبـون إلى المعبد، وكنتُ أذهبُ نحوَكِ، حيثُ الكهفُ الـذي يسرجُ فيه وجهُـكِ القنديلَ المخبـوءَ في أعماقِـنا، فنرى كلَّ شيء، حتى الظلامَ، صافياً.

كان ذلك قبل أن نكتشفَ الحبَ في أغنية بدائية، تكتبها إيماءاتُ أعضائنـا على الريح، ونتركها تسـافرُ، دون أن نفكرَ باللحاق بها، لأنهـم كانـوا يذهبـون إلى الحـربِ، وكنتُ أفـرُّ منها نحو سـنابلِ شَـعرِكِ، ملقياً إلى الوديان بقوسي وسـهامي، كاشطاً عن حنجرتي الصرخة البربرية.

هكذا كنتُ أعتقدُ.

غير أن ذلك كان مجرد وهم، إذ تجلـّتْ تلك الصرخةُ واضحةً، ذاتَ يـوم، حين شـعَّ في الكهفِ نتوءُ صخرة، فتسـاءلتِ بعذوبةٍ، وقد فاض نسيمُ روحكِ في الهواء، حتى طارت في رحابته الوردةُ، التي كنتُ أقطفها يوميا في الطريق إليك:

ـ ماذا يشبه هذا؟!

صرختُ فورا:

ـ إنه نسر..

ورحـتُ أدعـمُ نظريتـي بضرباتٍ قويـةٍ على جناحيـه، لكنكِ

تدخلتِ في اللحظة الحاسمة: ـ دعها تمرح، إنها فراشة!

فخاصمتكِ.

دستُ بقسوةٍ على الوردة، وخرجتُ غاضباً من الكهفِ، جامعاً، في طريق العودة، أقواسي وسهامي التي رميتُها من قبلُ.

قرونٌ كثيرة مرتْ مذ فارقتُكِ، صار العالمُ خلالها أكبرَ من الكهفِ، وأبعدَ من المعبد: حضاراتٌ تنشأ وأخرى تموت. أممٌ تتمزقُ، وشعوبٌ تطحنُ نفسَها: يذهبون إلى الحربِ وأذهبُ، متنقلاً من خندقٍ إلى خندق، ومن كهف إلى آخر، إلى أن وصلتْ هذه الأغنيةُ إلى نهايتها، عندما الجأني البردُ، صدفةً، إلى كهفنا الأول القديم في عصر الجليد، حيث رأيتُ الصخرةَ مكانها، فركعتُ أمامها بخشوع لم يعرفه أيُّ معبد، حتى سال التاريخُ من الجروح التي زرعتُها على بَشَرة الأرض، وبكيتُ بمرارة، محاولاً أن أستعيدَ آدميتي التي أضعتُها بين الأوسمة والمجازر، فقد كان النتوءُ على تلك الصخرة: النتوءُ الذي كان شاهِدَ هيامي وغرامي، يُشبه الفراشةَ، التي تشبهكِ.. تماماً.

حمامة الطوفان

عـادت الحمامـةُ، الحمامـةُ التـي أطلقهـا أتونـا بشـتم، الحمامـةُ البيضـاءُ، حمامـةُ الطوفان، عـادت بعد قرون طويلـةٍ من الطيران فوق المشانق والقتلى.

ضمّـتْ جناحيْهـا إلى بعضيهـما، ورمـتْ بنفسـها إلى حـوض السـفينة، ثم زحفـتْ نحوهُ ببطء، وهو يدخّنُ سـيجارته، مترنحاً مـن التعب ومن السـهر، لكنها عندما وصلـتْ إلى بُحيرةِ الدّموع التي تكوّنت بين قدميه، رفعتْ رأسَها إليه، وماتت.

قصيدة نثر عن الطوفان الأخير

من صنبور مياه، في الفندق، سمعتُ صرخةَ أتونا بشتم، فهززتُ رأسي بيأسٍ: نظرتُ بحزن، من النافذة، ورأيتُه منهمكاً بتحطيم أشجار الحديقة بفأسه الضخم، ثم تذكرتُ أن دوري في القصة هو أن اعتصمَ بجبلٍ، عندما يفور التنورُ، فلم أجد بُدّاً من الصعود إلى سطح البنايةِ، والجلوسِ بانتظار إشارة من المُخرج، كي أموت غرقا..

أعترفُ أنني مللتُ من هذا، لكن ماذا أفعل.. كي أنجو من الإفلاس، ومن شعوري بالخزي نتيجة خيانات عشتار المتكررة مع أصدقائي، وكيف أتخلص من ثقل الزمن؟!

أحبكِ، قبل أن يبتكروا الكتابة

سأبدو متأخرا عن الزمن وعن الحب، لو كتبتُ: أحبكِ، لأنني أحببتكِ قبل أن يبتكروا الحرف. يومَها كنتُ نطفةً في ظهر المعابد، أولـدُ مع كل ترتيلـةٍ: أنقذفُ إلى العالم، مع كل صرخة من حناجر المدن السومرية.

أحبكِ، كنتُ، قبلَ أن تحبو الحضارات، قبل أن يبتكروا الرماحَ من شـكل أجفانكِ، وقبل أن يبحروا، فيحملونكِ فكرة تتشـعبُ منها خواطرٌ، خرائطٌ وبلدانٌ..

كانـت غريـزتي هي الدليـلَ، وكلـما أخطأتُ وجدتـكِ أمامي وخلفي، فالمسـافاتُ صحراءٌ وتِيهٌ، وأنتِ درسٌ من الوله، أسلكُ نحوه أخطرَ الشوق، لأسقط، أخيرا، في أصعب الحب.

أتلصصُ من ثقوب قدري إلى جمالكِ، الذي يجبرُ الناي على أن يحفرني ثقبـا إلى جوار ثقوبه، فأعزفكِ طافيـا، فوق مياه الطوفان، يائسـا من النجـاة، لكن يـأسي كان أخضرَ الروح، وهـو مما أراني الموتَ هزيلا.

ذلك مما رفعني نحو أعمق قيعانكِ: هو مَن رسـمني خطوطا

على تقاسـيم وجهكِ، وعند أقدام تماثيلـكِ: يحملني الغزاة معكِ إلى معابدهم، فأتعددُ مثلما تتعددين: تتنوّعُ أسماؤكِ، وأتنوعُ طوراً بعد طور.

أحيانا يعثرون عليّ وعليكِ في رَقيمٍ واحدٍ: أكون خطأً، إشارةً، وتكونـين امـرأةً: يرونكِ ترفعين طفلاً إلى ثدييـكِ، لا يعرفون أنه أنا، أو ينظرون إلى وجهكِ، ولا يعرفون أنه قناعي.

طاعة من غبار

مثلَ إلهٍ سومريٍ أفكرُ فيكِ، وأنا أضعُ رأس تمثالي،الذي كسره الغـزاةُ، في حِجري، مطلقا العنان لطوفان من الذكريات، يسيلُ مع دموع دجلة، وحسرات الفرات..

آه، ربما عرفتُ الآن كيف كان يخفقُ قلبُ الطين، بين يدي ذلك الفنان الغامض، الفنان المجهول، الذي صاغ تمثالكِ، من أجل أن أكون عاشقك المستحيلَ:

عاشقُكِ الذي يقودُ موكباً من حطام تماثيله، وينحني أمام خرائب السومريين، ليقدمَّ لكِ طاعةً من غبار..

بلقيس

مســاءَ كلِّ يوم، إذ تعود الشــياطينُ بأخبار بلقيس، وكيف أنها تلهثُ جَمالاً، وتلمعُ كحجر كريم في قصرها اللؤلؤي.

مســاءَ كلِّ يوم، وأنا أصفحُ عن الهدهد، وأحرّف الأســطورة، افتــح نافذتي عــلى الليل، و اغنــّي امرأةً أخــرى أجملَ من أن تــُرى من قِبل ملاك أو شيطان: أشتــقُّ لها اسماً من القمر، وأهيمُ في رمل جمالها المتحرك، زاهداً بأملاكي ومقاطعاتي.

قصيدة حب إلى بلقيس

كان عليّ أن ألعبَ دورَ سُليمان، لأنها خرجتْ من أحد الأساطير، فيما كنتُ مستغرقاً بالقراءة، وزعمتْ أنها بلقيسُ، فصرتُ ملِكاً، لكنَّ غيابَها، فجأةً، أرغمني على أنْ أخلعَ التاجَ، أنْ أصرفَ الجنَّ، الطيرَ والشياطينَ، من الخدمةِ، وأنْ أهيمَ في البراري، متَّبعاً خطواتِ غزلان، قال الهدهدُ: إنها مُشتقّةٌ من خطواتها، لكنني لم أجدْها قط، لا في سبأ، ولا في أيّ مكان آخر.

كان الأوانُ قد فاتَ على العودةِ إلى مقهى أبي، كما أنّ القصةَ لم تنتهِ بشكلٍ يجعلُ منها أسطورةً تسلبُ لُبّ أهلي، الذين فتشوا عني، في الأغاني، على شاشات السينما، وفي كتبِ الحب، من دون جدوى، فقد مرتْ قرونٌ كثيرة على غيابي، سقطتْ فيها حضاراتٌ، وانبثقتْ ثم ضاعت فيها أديانٌ كثيرة، لكنَّ العشاقَ ـ وحدَهم ـ عندما مدّوا أيديَهم في الهواء، حازوا على كمشةٍ من حسراتي.

لم يَعُدِ الخلاصُ مُجدياً، لأنني حين زهدتُ به، تقدم طالباً الصفحَ عن تأخره في المجيء، ولم أعرْهُ أهميةً تُذكر، فقد اجتزتُ التوبةَ، وتجاوزتُ الحبَّ أو اليأسَ من الحبّ، حتى تعرّفتُ على الألم في نسختهِ النقية، فاخترتُ أنْ أصمتَ حتى نهايتي التي لنْ يحدسَها أحدٌ، إلا مَن زهدوا بالعالم من أجل بلقيسِهم الخاصّة، أولئك فقط يفهمونني، وهم وحدَهم مَن يشعّون من داخل هذه القصيدة.

دليل الصحراء

وُلـدتُ، ورمـوني أهلي إلى النهر في سـلة. كان يجـب أن أقع في يـد امرأة أكبرَ منـكِ، كي أكون ابنَها، كما في السـيناريو، لولا أنني قابلتُـكِ، عـلى صفحـة الماء، تسـبحين عاريـةً، فوقعـتُ في حبكِ وكبرتُ، فجأةً.

تعرّفنـا على جسـدينا مبكّـراً، حتى تهرأتْ الرعشـةُ، فضبطونا نسكن معا في تفاحتَي صدركِ.

كان أبوكِ يبحثُ عني ليذبحني، لكنه فضّل أن أتعذب بالحبّ، عندما سمع نحيبكِ، فنفاني بعيداً، إلى صحراء خياله.

كان المـلاكُ الموكَّلُ برعايتـي يبكي، وأنا اغنـي، فقد كان عليه أن يخـترقَ الزمنَ، وأن يعيدني إلى البداية: أولدُ ويرمونني أهلي إلى النهر في سلة، ثم تبدأ قصةٌ تعرفين نهايتَها، لكن ما لا تدركينه هو أننـي الآن، في هذه المتاهة مع شـعبي، أبحث عـن رقم هاتفكِ في دليـل الصحـراء، كي أغنّي لكِ عن لحظتنا في الوجد، في الرعشـة وفي الاشتياق، وأنتِ تبكين، ملطَّخةً بالرغبة وباللوعة ..

قصيدة حب إلى زليخا

كنـتُ أتناوبُ مع الذئب في حراسـة طيفـكِ من قطعان الجوع العاصف، التي تهبّ من أرواح أخوتي، وكنتِ المرأةَ الملعونةَ، التي قيلَ: إنها تسكنُ الآبار.

كنـتُ أهربُ من أبي، ومـن العائلة، لأقفَ عند حافةِ أبعد بئر: أنظـرُ إلى داخلهـا، فأتعـرّفُ على نفسـي العميقةِ وارتجـفُ، لأنني كنتُ أقابلُ رعبي وجهاً لوجهٍ، فأهربُ منه وأفكرُ فيكِ، في سـموِّ وجهكِ، وفي عبقريّةِ جسـدكِ العـاري، وهو يتلألأُ في القعر، وقد فقـدتُ عقـلي، وتجلّى هُيامـي على أشـدّه، عندما انبثقـتْ ذراعاكِ مـن أعماق خيـال الماء، فجأة، فقفزتُ نحوكِ قفـزتي المجنونةَ التي رسمتْ قدري، وغيّرتْ مصيري.

ما حصل بعـد ذلك كان مُلفَّـقاً، لأنَّ المؤرخين أقفلوا الأفقَ، وحوّلـوا أشـواقي، غرامي وجنوني، إلى تبتّـلٍ جاحدٍ، لأنني حين دخلتُ في متاهةِ جمالكِ التقيتُ بأكثرِ أحلامي طيشـاً، وأصعَبـها تفسـيراً على العالم، فعاقبوني بتفسـير أحلام لا صلةَ لها بطيراني في مداركِ، ولا تليقُ بخفقات قلبكِ العذب الذّي، لحدّ الآن، يرنّ في جهاتِ الزمن، كما يفعلُ قلبي.

يوما ما سـنلتقي، لكنْ في أسطورةٍ أخرى، ليس فيها املاءاتٌ من الخارج، وسـنعودُ إلى البئر، ومعنا الذئبُ: شـاهدُنا النبيلُ على البراءة..

يوسف

قالت: "لقد بحثتُ عنكَ في كتب السحر والتنجيم، لأنني كثيرا ما رأيتكَ في منامي، فأغرمتُ بجمالكَ، كما أغرمتْ زليخا بيوسف.. ".

كانت جالسةً إلى جواري في حافلة الحياة، وأنا أقرأ كفَّ القدر، منتظراً متى يصعدُ معنا الأخوةُ الأعداءُ، حاملين معهم البئرَ.. ثم حصل كلُّ شيء بدقة متناهية، وبسرعة عجيبة، سوى أنها لم تعشقني مثلَ زليخا، لأنني غيّرتُ الخطةَ، ولعبتُ دورَ الذئب.

قميص يوسف

أتذكـرُ تلـك اللحظةَ النـادرةَ، عندما اختلسـتُ إليـك النظرَ، ورأيتُ ـ أنا الغوّاصُ ـ إلى اللؤلؤةِ تلمعُ، لاهثةً، في أعماق رغبتكِ: حدستُ أنكِ هشة جدا، وفي درجة الاتقاد، فانحنيتُ لأشربَ من الينبوع، الذي تفور به نيرانُ مياهكِ، والتي تنتظر زورقاً، حتى لو كان عابراً، كي ينقلها إلى الشـاطئ، لكنّ عطشي تردد عند الحافة، فارتديتُ قميصَ يوسف، ومضيتُ.

مـا حصل بعـد ذلك هو أننـي طفـتُ الزمنَ، تمرّغـتُ بأطوار جسـدي وبرعشـتِه، وعشـتُ بقيَّــةَ حيـاتي، مـع جميـع النسـاء، محاولاً أن أخلعَ القميصَ، وأن اسـتعيدَ تلـك اللحظةَ التي لعبتْ بمصيرَيْنا، وافترقنا إلى الأبد.

عاصفة من الروائح

جـاء في الخبر أنّ امرأةً خرجتْ من كتابِ ألف ليلة وليلة، وأنّ النـاسَ، في بغداد، شـاهدوها تمـشي في كل مـكان، فتبعوها حتى آخـر خطـوةٍ في الخيال، ثم تـوارت، فجـأة، من أمامهـم، فعادوا مكسـورِينَ من اليأس ومن الجلال، لكن كلَّ واحدٍ منهم لمّا دخل بيته خرجَ مُسرعاً، زاعماً أنها عندَه، ثم شقّ ثوبَهُ ليتشمّموا عطرَها، الذي كان يَعطّ من مسام جسدِهِ المسكون بعاصفةٍ من الروائح..

واحد منهم

أنـا واحدٌ مـن آلاف الصيادين المذكورين في كتـابِ ألف ليلة وليلـة، أنتظرُ بين السـطور، منـذ قرون طويلـة، أنْ يقلبَ أحدُهـم هذهِ الصفحةَ، التي تبدأ معها قصتي، وأنْ يقرأ الصفحةَ التاليةَ، لا مـن أجل المُتعةِ، مُتعتِـه، وإنما لأنني أريدُ أنْ اتمّمَ دوري في القصة، فأجـدَني مـع الحوريةِ الفاتنـة، التـي ابتكرَها الخيـالُ، وهي تخرجُ عاريـةً من الماء، عاريةً من الحِبر، من النقاطِ ومن ضيق السـطور، ثــم تُعانقُني بحـرارة مَن وجدَ نصفَه الضائعَ أخـيراً، بعدَ أنْ جفّ قلبي، وتوقفتْ حياتي بأكملها، عند هذه الصفحة، التي تراكمتْ عليها قرونٌ من الغبار..

أغنية إلى مجنون ليلى

أنا مثلكَ يا قيس، سوى أنكَ لم تولد بالقرب من دجلة:

لم تسقطْ بغداد، أمامَ عينيكِ، بيد المغول.

لم يتناوب الجنودُ، أمام عينيكَ، على اغتصاب ليلى

لم تتلوَ، في هواء الألم ، مثل خيط

أنـا مثلَـك يا قيس أجهـش بالبكاء، كلما مرّ طائـر فوق رأسي. كلـما رنّ الاشـتياقُ، واشـتعل اللحـنُ في الحنـين، سـوى أنـكَ لم تنسَ رأسـكَ المخمورَ فوق طاولات الحانات، لم تسـمع أغنية "يا حريمه"[1] ولم ترَ أجسادَ مَن تحبهم ممزقةً في الضواحي..

(١) يا حريمة: أغنية عراقية مشهورة.

قصة من ألف ليلة وليلة

وصلتُ البلدة محمولاً بريح الرغبة. وقعتُ، مثلَ ريشة، في أحد شوارعها، وكان الناسُ يتقاتلون مع بعضهم البعض بأسلحة مختلفة: جثثٌ كثيرة، غربان تنعق على الأسيجة، وهناك شجرة تفرّ، تاركةً أغصانها في الحديقة. في ظل الشجرة كلبٌ ينبح، ونملة تمدّ لسانها، ساخرة منه، وهي تنقل قريتها، إلى ثقب آخر، في ناي مطروح تصفر فيه الريحُ، معلنةً مشاركتَها في الحفلة.

وجدتُ نفسي شاهداً على انهيار الليل باكياً، وعلى النهار، وهو يحمل فانوسا، بحثا عن الشمس التي ابتلعها اليأسُ، فالقتال يجري، أحيانا، من أجل غيمة مارة، أو من أجل موسيقى، لا يعرف أحد من أية نافذة تتسرب.

أحيانا أخرى يجري لأن أحدهم مرّ، ولم ينحني.

إذا انحنيتَ فستنجو من أطلاقة جاهزة، وأيضا هناك أخرى جاهزة، من الجهة المقابلة، إذا انحنيتَ.

لم أصل البلدة إلا لأنَّ الأخبارَ قالت: إنكِ هنا، لكنَّ القتالَ كان ضارياً، فلم أعثر عليكِ، أنتِ الهاربةُ من البستان، عاريةً، في ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة، كما أنني لم أستطع الخروجَ أو الهربَ من تلك الورطة، إلا بعد أن استيقظتُ من النوم، حيث شهرزادُ لم تزل مكانَها، ساهرةً، تواصل سردَ القصة.

ذات يوم

ذاتَ يومٍ، في الحربِ، ألقيتُ وردةً على دبابةٍ،
فانفجرتْ..

صبية

أبتسمُ،

من خلال غلالة الأسى، مثل فراشة ترفرف في قميص صبية مهجورة..

صبية اللؤلؤة

ارتكبتُ ذنبَ أن أمشي عارياً، وهيكلي العظمي يرتدي بدلةَ الحشمة، مواضباً على الغناء تحت نافذة، تنتظر خلفها صبيةٌ، سرقتُها، في لحظة وجد، من كتاب ألف ليلة وليلة. ذلك مما حفّزني على المشي فوق حبل الاضطراب، وكثيرا ما ترنمتُ بهذا الهيام، الذي يختلط فيه الضياع مع اليتم، كما أنني لم أجزع من مصاحبة الألم المبارك لحياتي، ولم أندم، أبدا، عندما تفرّقتُ إلى قبائلَ وشعوبٍ، بعد أن مزقني الحبُّ تماما، فقد ترفعتُ عن الجلوس مع الطمأنينة، وتمرّنتُ طويلا على ملاطفة الهلاك، من أجل غاية نادرة: أن أشارك اللؤلؤةَ في صيرورتها.

لصبيتي التي سرقتُها من الخيال، لا لغيرها، تلك اللؤلؤةُ..

قصيدة الكوكب

لقد أحببتُ السوقَ دائما. كثيرا ما تجولتُ فيه، على أرصفته الموحلة، وجلستُ في مقاهيه، متنعماً بالوقت الذي تبخّر، وصار دخانا، عندما اندلعت الحربُ.

لم يهمني الخاسرُ أو الرابحُ، ولم أعر أهمية للأسباب التي جعلت الناسَ يتقاتلون بكافة الأسلحة، فقد عدتُ إلى هذا المكان، بعد سنوات طويلة، مدفوعاً بالذكرى، ورضيتُ برائحة البارود في الهواء، بحثا عن وجهكِ العتيق، عندما كنتُ أحبكِ، عندما كنتِ تحبينني، وعندما كانت حمامتانِ، تحت قميصكِ، توشكان على الطيران في ذلك السوق، بين المقاهي، وعلى أرصفته الموحلة، حيث قلبُكِ يضخ رقصاتِه إلى ذلك المكان الموحش الفقير، فيحوله إلى كوكب..

ساحر من ألف ليلة وليلة

قال: " إنَّ الليـلَ، هذه الليلةَ، مؤاتياً للمعجزات " وهو يرش، على صفحة الريح، كمشـةً من الرمل، فتجلتْ شـيئا فشـيئا امرأةٌ مقمِـرةٌ، كتلك التي تخرج من رحم المعجـزات، وأخذت تركض بـين الأرواح المنشـورة على المصاطب، الأرصفة، وبين الأسـلاك الكهربائية الملتفة حول أعناق الساحات، وخلفها ثمة رجلٌ انبثق مـن بطون الحكايـات، كان يعدو بسرعة، وهو يجر حبلاً طويلاً، ربـط إلى نهايتـه جثتَـه، التي مزقتهـا الكلابُ في الأزقـة، ثم غاب الاثنـان في كثافـة عريهـما، فلم اسـمع بعد ذلـك إلا صيحةَ البرق دون أن أراه.

قـال: "ألم أقل لكَ إن الليل، هذه الليلـة، مؤاتيا للمعجزات!" ثـم نفـخ في الاتجاهـات، وهو يتمتـم بعبارات غامضـة، أضاءت الخطـواتِ بين البعد والمسـافة، فرأيتُ المـرأةَ والرجلَ واضحَين، وهما يُشـعلان الخرائـبَ بنيران موقدهما، حتى هبَّ نسـيمُ الأمان قادمـاً مـن اللامـكان، فنزلـتْ الأرواحُ مـن عـلى حبال الغسـيل باحثةً، في شـقوق شـيخوخة الجدران، عن أبدانها، لكن ذلك كلَّه توقف فجأةً، عندما زعق البرقُ ثانية، ورأيتُه واضحاً، يسقط على الجسـدين الملتحمين فيحيلهما تراباً، فيـما الأرواح تعود، صاعدةً، بحبل من الدخان، إلى أسلاك عزلتها.

الحكايـة انتهتْ ليس كما هو متوقَعٌ، فقد تبدل مزاجُ السـاحر، وفقـد قدرتَـه على المـشي فوق حبل خرافتـه، فلم يعد يفعل شـيئا سـوى التحديـق بالرمـل، والبكاء، لأنـه - كما قـال - لم يكن قد خطط لظهور البرق مرة أخرى، لكنها القنابل والحرب.

أخذ نَفَسـا عميقا من لفافة الحشيشـة التي أشـعلتُها من أجله، ثم عانقني بعرفان، وهو يسـحبني بدخانهـا نحو الأعمق: " تعال لأُريـك ما أنا قادرٌ عليه فعـلا " حتى توارينا معا بين طيات كتاب ألف ليلة وليلة، الذي اسـتعرتُ صديقي الساحرَ هذا من إحدى حكاياته:

- " يبدو أن الليل، عندكم، لم يعد مؤاتيا للمعجزات "

ظل يردد هذه العبارة على مسـامعي، طوال طريقنا نحو بغداد أخرى، منسيةٍ في قيعان ذلك الكتاب.

أغنية أوركا جينا[١] أمير الدراجي[٢]

كلَّ صباح، رغم كآبتكَ، وأمطارِ غيوم مزاجكَ المتقلب، أراكَ تمسحُ الضبابَ عن زجاج خواطركَ متّجهاً لتفتحَ النافذةَ: تنفخُ الغبارَ عن الزقورة، ثم تدخنُ سيجارة، تغزلُ من دخانها شوارع مفتوحة على البرية، أو ترسم، بين قصب أفكاركَ، زورقا مطليا بدموع الثورات التي خذلتْ أبناءَها، لتخترقَ أهوارَ السومريين بجنونكَ الذي لم يصادف الجنونُ مثله.

لستَ جلجامش عائدا بخيبته، ولا يولسيس ناجيا بمعونة الآلهة: رحلتُكَ لم تنته بعد،، لأنكَ آمنتَ، مبكراً، أن الموتَ، أن الحياةَ، أن التاريخ، أن الألم، أن الأشياء.. ليست على ما يرام، حتى وصلتَ الأبديةَ بأقدام شككَ الحار.

ذات يوم سيصنعون تمثالاً للمسافات التي قطعها حذاؤكَ المتهرئُ.

ذات يوم سيصوغون موسيقىً من براءة ضحكتكَ على الملوك والتيجان.

ذات يوم سيطلقون سراح أرواحهم وراءكَ، ليتدربوا على أخلاق المطر.

---

(١) **أوركا جينا**: الملك السومري، أول مبتكر لكلمة الحرية..

(٢) **أمير الدراجي**: مفكر عراقي، يعتبره الشاعرُ أباً روحياً له

لا أخالكَ إلا شامتاً بالأولين والآخرين: لا أنهارَ من لبن وخمرٍ تخـوضُ فيهن حتى ركبتيكَ، كما كنتَ تفعلُ عند ضفاف الفرات، و لا حوريـات تفضُّ أبكارهـن: لم تمتهن الجوعَ من أجل هذا، ولم تـشرب كأس السـمّ من أجـل ذاك، هكذا اجتزتَ جنـةَ هؤلاء و أولئك، منطلقاً صوبَ جحيمكَ الرائع.

أتخيلـكَ ترفـعُ رايةً ممزقةً، هـي روحُكَ، حيـث صبايا من أور يُـفخِّـرنَ غِريَـنَ جسـدِكَ الناحلِ على هيئة مزهريـة، ولا تتوقف، طامحـا بالأعـذب: أن لا تنـدبَ حظـكَ العاثرَ شـاكيا عنـد نافذة حمـورابي، بل أن تمشي بسـيطا، مثل أوركا جينا، بلا جـسـدكَ، في المقابر الملكية، مغنيا بلهجـة الشمس: هيا بنا نشرق..

أغنية حب بغدادية

كانت لكِ القدرةُ على رمي أحضانكِ لاستقبال قفزتي، لكنني كنتُ الكرةَ الطائشةَ، لا أجيدُ إلا الارتطامَ بالنوافذ. كان ذلك يكسرني، وكنتِ تجمعين شظاياي، كأن نصيبي من الشقاوة هو نصيبَكِ من الحب، كأن ذلك شدٌّ من الشَعر بين مجرّتين من الضفائر، أو عراكٌ بين دقات الساعات، التي توّجتنا طقسا من مطر الركض خلف الغيوم.

في ما مضى كنا نختبئ، من الفيض، في جِرار الشطوط: كانت أصواتُ المصابيح تزفُّنا إلى البيتِ، مثلَ موكبٍ من الطُّرق، وكان الليلُ يَحبِكُ، داخلَ رأسينا، سِلالاً نقيةً من الشمس.

لا أعرفُ كيف غرقنا في الظلام بعد ذلك، لكنني كلما حاولتُ فكَّ أزرارِ قميص الزمان، كي تثبي خارجا، من بين أضلاعه، إلى صحن هذه الأغنية، أراكِ ترتطمين بالنوافذ، كما الكرةُ الطائشةُ التي كنتُها، فأجمعكِ، كأنَّ نصيبُكِ من الانكسار هو نصيبي من الحب، كأنَّ مراسمَ غرامنا لا تزدهر إلا بشدّ الشَعر بين المجرّات، كأن..

آه، أحدُهم أزاحَ المصابيحَ، فتحرّكَ الليلُ من مكانه: هناك شيخوخةٌ ترسمُ تجاعيدَها على جِرار الشطوط، وهناك سربٌ من الجراد يقضمُ الناي، الذي كنا نعزفُ السنابلَ بين ثقوبه.

الموكب

في المساء
امرأة تهزّ المهدَ
ثم
تغفو قبله.

في المساء
شاعرٌ
يرفعُ الأسلاكَ عن طائرة مخيلته الورقية.

في المساء
الماءُ يبحثُ،
بين طيّات جسده، عن روح الجدول.

في المساء
المساءُ يسعى خفيفا، مع الهواء، ذاهبا إلى الليل..

في مساء مضى، في مساء سيأتي:
العاصفةُ
تضمُّ حنانها إلى الموكب.

نقطة تحت باء بغداد

ترانيمُـكِ يحفظـُها رعاةُ الصباح، الذين يصنعون النايات من قصـب صوتـكِ: أنتِ التي، مـن أجل مروركِ، يخـرُّ المطرُ صعقا، وترتدي الجداولُ هواجـسَ زوارق الأطفال، فيما الفرحُ يتصاعدُ كالبخـار مـن مظلـة حاجبيكِ، نجلسُ عرايا تحتهـا متلاصقين، على رصيف الهوى، ثالثُـنا الشـيطانُ: ينسجُ من وساوسنا قميصَ المغفرة.

كنـتُ أطـوفُ معـكِ الشـوارعَ، مصفِّـراً بلحن حزيـن، نعبرُ من خلاله الأزقةَ إلى السـاحات، ثـم ننحـدرُ إلى المقاهي: تدخلين السينما، وأنتظركِ، فأنا وأنتِ مفلسان.. لكن، من أفق شفتيكِ، إذ تسردين ما يجري على شاشـة روحكِ، تنطلقُ سحابةُ الانفجارات والحرائق، مربوطةً إلى الأرض بخيطٍ من الدم:

ـ كان فيلما رديئا..

ثم تنحنين، فجأة، فأنحني معكِ: نرفعُ ريشة مكسورة سقطتْ من هديل المآذن، أو ننظفُ جسـد ترنيمة نسـفتها عبوّة ناسـفةٌ في حنجـرة كنيسـة: نلفـُّهـا بخصلـةٍ مـن شـعركِ الأسـود الطويل، نـُطلقها كما حمامة ونضحكُ، مثل طفلين يكتشـفان الطيرانَ لأول مرة، بَيدَ أنكِ تقطعين ذلك كله وتجلسين، مقرفصةً، في الظلام.

هناك كائناتٌ من تبنٍ تُعفِّرُ اللحظةَ بالتراب.

هناك أطفالٌ يدفعون الهواءَ، لأنه كسيحٌ

هناك أشجارٌ يتدلى من أغصانها العواءُ،

وهناك..

تتوقفين، ثم تبتسمين بأجفانكِ، وقد شعرتِ بي حزينا:

ـ أما زلتَ تكتب رسائل العشّاق في الأزقة؟!

أيتها المنتخبة، من بين الصبايا، كي تصيرَ أما.

أيتها المختارة، من بين الأمهات، كي تعود صبية.

يا مَن تمدُّ رأسها، من نافذة الهيام، كلما عدتُ من سفرٍ طويل، لتسألني:

ـ أما زلتَ تسكرُ، يا حبيبي؟!

تمازحينني، وتضربينني برقّة كتفيكِ، فينكسر العمود الفقري لطيفِ كآبتي:

ـ أما زلتَ تعشق القمرَ؟!

لكنكِ تواريتِ خلسة، ولم أعد أعرفُ أينكِ: في أية مشرحة؟!

هل أنتِ موجودة على الأرض، أم تبتكرين الطيرانَ، فوقَ، لأجنحةِ الملائكة؟!

كما أنَّ شناشيلكِ شاحبةٌ جدا.

شناشيلكِ، التي كلما وصلتُ عاريا، ألقت عليّ قميصها، فأرتدُ شاعرا:

أعيشُ داخله من دون بدني.

ها إني أطوفُ المرايا، بحثا عن وجهكِ المرسوم بريشة ألف ليلة وليلة: لا أثرَ، وليس سوى التجاعيد محفورةً، كالخنادق.

هل هذا هو نصيبُكِ من الصعود إلى ذروة الألم،

أم هي حصتكِ من بناء عمارة الحضارة؟!

أيتها المولودة تحت القصف، ومن معاينة الأقاصي، والتي كلما تهتُ في العاصفةِ مدَّ برقُ جنونكِ، نحو متاهتي، خيطا من السحر، أسحبه معجزة بعد أخرى، فيُمطرني ثملا، أرودُ حاناتكِ بَصحبة الصعاليك والفلاسفة:

أسمعُ حكمة من أفواه مجانينكِ،

أو

أتسلقه لأكتبكِ على سياج الشعر،

أو

أرسمكِ نهرا يشقُّ طريقه نحو لا تناهيكِ في الخرائط، إلى أن تصيرين جنة، تفيض غاباتُها من خواطر الشجر، فأعود طفلا أركضُ في الجهات، لأجمع الرعاةَ الذين كانوا، عبرَ القرون، يعزفون أغنيةَ النقطة تحت باءِ بغدادَ، تحت نوافذ مدن العالم.

الحب حسب التوقيت البغدادي

"إنَّ على الجمال أن يكونَ متشنجاً، أو لا يكون.."

بريتون

لم يتغلب جمالُ هذه المرأة على جمالكِ، رغم أنها أكثرُ جمالاً منكِ، وهو ما يربكني عندما تضبطينني جالساً في داخلكِ: أتلوى من اليأس، أو متشعبا في مزاجكِ الذي يتدبلُ، حسبَ طقس عائلة مولعة بنشركِ على حبل الزواج، كلما خطرَ في خيالها شبحٌ تعتقدُ أنه الملاكُ المخلّصُ، الذي على يديه ستكونين أمّاً صالحةً: تنجبُ أولادا يذهبون إلى الحروب، أو يتشردون بين المنافي، ثم لا تجد مَن تفيضُ بحنانها عليه، سوى الكراسي الفارغة: تنظفينها، بخواطرك اليائسة، من الغبار، وأنتِ جالسةٌ في زاوية المطبخ.

آه، تضبطني هذه المرأة الجميلة متلبسا بالخيانة العظمى: أتلصص عليكِ من ثقوب تصنعها مخيلتي بمهارة، فأرى حسراتي تحومُ حول رأسكِ، كطيور مهاجرة تبحثُ، وسط المياه، عن جزيرة ما.

ألمحُكِ مثل دخان يتبخرُ في الأزقة، ولا أحد بإمكانه أن يحجزكِ: عبثا تحاول الجدران أن تمسكه: أن تمنعه من الطيران في كل اتجاه، ليقع في مصيدة الحب، حسب التوقيت البغدادي:

تتسللين عبر الأسلاك الشائكة، تخترقين المفخخات، الحواجزَ، ومنعَ التجوال: تجلسين إلى جواري فوق سياج العالم، ونضحكُ بمرارة، لأن الهاويةَ تلّوح لنا، من بين أقدامنا، بشغف جائع ينتظرُ رغيفاً من الخبز، منذ أولِ مجاعة.

لكن..

ماذا تريد هذه المرأةُ الفاتنة من قصائدي التي تحبكِ؟!

إنني، إضافةً إلى كذبي الخارق عليكِ، لا أتقنُ الصدقَ إلا معكِ: أدّعي أنني بخير في كل مرة، رغم أنني أفتح نافذتي، فأجدُ الصباحَ جاهزا لأخذي إلى المخفر، حيث ينتظرني دائنون، مذ أن فرَّ آدمُ من الجنة، مصحوبا بديونٍ عليَّ أن أسددها إلى هذه المرأة الناعمة، المرأة الجميلة، التي تفتحُ جميع نوافذها لتسمعني أقول الكلمة المعجزة، ولا أقولها.

لا أقول لها: أحبكِ، لأنني أحب غربتي فيكِ.

شقائي وتشردي يتحولان إلى منحةٍ مباركةٍ، عندما أشعرُ أنني أحبكِ، كما إنكِ تحبينني هكذا: هائما في الكتبِ، غارقا في الموسيقى والأغاني والسُكر، أو نائما على المصاطب: تعشقينني مفلسا، وترنُّ ضحكتُكِ في جميع الجهات عندما أطلبُ منكِ الزواج.

عندمـا أطلبُ الزواج تسـتفيقُ القبيلةُ من نومها، تُغلق الحدودَ بوجه العصافير، وتعلنُ أمُّـــك النفيرَ.

ـ لن أتزوجكَ قط، لأنني تزوجتكَ قبل أن تولدَ:

أنا أمك، أيها الولد

وأنا طفلتكَ، أيها الأب.

دعنا نعيش على هامش أولئك، لنكون مركزاً لنا..

هكذا تسحبين البساطَ من تحت الجميع، فتنتهي المعركةُ بهدوء:

دائما تنتهي المعركةُ بهدوء.

تذهبـين إلى الأرق، وأذهبُ إلى السُـكر، فيـما يعجز جمالُ هذه المـرأة الجميلة أن يتغلب على جمالكِ، رغم أنه يجرجرني إلى هزيمة طفرتْ معي إلى العالم منذ صرخة الولادة.

لا أعرف لماذا أنتِ جميلة، كامرأة جميلة جدا، رغم أن هذه المرأة أكثر جمالا منكِ؟!

ينقصهـا شيء ما لا أعرفه، أنا الـذي أعرفكِ كما يعرف الطفلُ شكلَ أجفانه.

أعرفـكِ، عندمـا أكـون ممزقا بـين صداقة الـبرق وخصومات الغيوم.

أعرفكِ عندما تفتحين أزرار قميصك، ليطير الحمامُ.

أعرفكِ عندمـا تسرقين رصيد هاتفـكِ، لتخبريني أن الحمام لم يعد إلى الآن، تحت قميصكِ.

هذا ما يجعل من هذه المرأة الجميلة، هذه المرأة الغنية، امرأةً لا أضعفَ منها، رغم أنني لا أعرف عاصفةً أنحفَ من عظامكِ.

آه، لم يتغلـب الجـمالُ كلُّـه على جمالـكِ، ولا أعرف مـاذا فيكِ لأنجو من هذا الدوران حولكِ: أحج إليكِ، بلا موسـم، وأرمي كلَّ جَمال، سواك، بالحجارة.

ربما

بسـبب وجهكِ الـبريء، وجهكِ الشـيطاني، وجهكِ الذي لا أجد له وصفا.

ربـما كان كذبُكِ، ربما هـو صدقُكِ، ربما حزنُـكِ الطويلُ، هذا الذي يشدّني إلى عمود الشوق، ويجلدني بسوطه.

ربـما هي الكتبُ التي أفسـدتْ عليـكِ كلَّ زواج، مثلما خرّبت حياتي..

على قيد الحب

أخـوضُ في نـار المشـقة، التي تبعثنـي، مثـلَ شرارة، نحو قش قلبك المتأهب للاشـتعال، فلا تأخذي أمـرَ قصائدي، التي تقول عكسَ ذلك،على محمل الجَدّ، لأن الأشواقَ أكثرُ اتقاداً من غطرسة الضغائـن في كل حب، فأنتِ الوحيـدةُ، التي ترنّ أصداءُ حبها في الروح، فترتعش الأجراسُ في القلب، وأنتِ المرأةُ التي أسـكبُ، في حوض راحتيها، ضحكاتي ودموعي، بل أنتِ الأصلُ والأمانُ، الينبوعُ والشلالُ والمصبُّ، في بلاد تعصف بها الصحراءُ، ويقضمُ الجرادُ سنابلَ حقولها بأسنان روّاد الجحيم ..

أحبكِ،

لأتخفّفَ من ثقل هؤلاء، لأنكِ البريقُ المضيءُ في سمائي، الذي يبعث إحساساً بالطيران وبالحرية، فأنتِ مَن يُشعرني أنني لم أُمسَخْ بعدُ، وأنني مازلتُ، على قيد الحب، إنساناً!

القتيل

كان مُقْبلاً على أن يجعلكِ جوهرَ أسطورته الشخصية، أن يمنحكِ تلك المساحةَ السريّةَ من قلبِه المضيء، وأن يمشيَ إلى مصيرِه تحت نظرةِ الملاك الذي يسكنُكِ.

كان يعتبركِ الخلاصَ، القنديلَ المضيءَ في زقاق حياته، وكانت رؤيتُه لك، مجرَّدُ رؤيتكِ، تجعله منيراً، من الداخل: كلُّ عباراتكِ، مهما كانت شدةُ الألم، وبحّةُ التوبيخ، في أجراسها، تصبحُ جوهريةً ومشعّة، لمجرّدِ أنها منكِ، أو أنكِ قد نطقتِ بها.

كان يحبّ أن يحبكِ، لو لا أن الدويَّ العظيمَ، الذي يَسبق الموتَ، في أرض السواد، داهمَه فجأةً، وشاهدكَ، قبلَ أن ينطفئَ، في قرارة نفسه، فابتسم ممتناً لمروركِ، كنيزكٍ مضيءٍ، في سماء حياته.

لؤلؤة تتعثر بلمعانها

لم أستطع أن أنسى دورانَكِ، حول البيت، بحثاً عن المفتاح، الذي لا وجودَ له، ولا إصرارَكِ على مواصلة البحث، في الظلام، حتى أنَّ المعجزةَ غمرتكِ بحنانها، فصارت آيتُكِ أن تحملي الفانوسَ الذي أنتِ فيه الشُعلةُ.

لم تعثري على شيء، رغم أنكِ فتحتِ كلَّ الرسائل، وتصفّحتِ جميع الذكريات، لأنكِ كنتِ مثلَ لؤلؤة لا تتعثر إلا بلمعانها..

لم أستطع أن أطفئَ نيران ذكرى رؤيتكِ، وأنتِ تنشرين ملابسَ أولادكِ القتلى، على حبال الغسيل، ثم تخلعين ثيابك، تعلِّقينها، وترفعين يديك إلى السماء، التي كانت تذرف دموعَك بغزارة..

كنتِ مسقطَ رأسِ الجَّمال، وكانت الشجرةُ تفكرُ فيكِ، كلما هرب عصفورٌ من الغابة، لكنَّ العالمَ كان في مهمّة خاصة، فلم ينتبه، وأنتِ تطيرين، في الريح، مع الملابس، مثلَ موكب من الريش..

صور الغائبين عن المائدة

يتفاوضُ الساسةُ، وأمُّكِ، في المطبخ، تغسل الصحونَ: تترنمُ بأغنية عن الحب، عن الأنهار، وتغوص حتى القعر في خواطرها، لتصطاد ابتسامة توّزعها على الصور، صور الغائبين عن المائدة.

يتناقشُ الساسةُ، والعصافيرُ تنقرُ الحَبَّ، فيما الشجرةُ تهزّ الريحَ، وتكنس الأوراقَ المتساقطة عن بهجة العشب.

يتشاجر الساسةُ، فجأة، فتتوقف الأغنيةُ: يسيل الدمُ من الصور، صور الغائبين عن المائدة، فتكسر أمُّكِ الصحونَ، تسقطُ الشجرة ميتةً بشظية عابرة، والعصافير تفرّ من الحديقة..

للحب وقت وللموت وقت

كنتُ الصديقَ الأنيقَ، الذي لم تحفرْ الحربُ أنفاقَها في حياته بعدُ: أعطيتكِ نصائحَ في القراءة، وخبرةً بائسة في مفاقمة المأزق، أنتِ الموشكةُ على الوقوع في غرامي، وأنا المخمورُ في الصباح، لأن الليل كله لا يريد أن يفلتَ من أسْرِ اللؤلؤ، الذي في داخلي ..

أتذكرُ ذلك الصباحَ الباردَ، الذي طِرنا فيه، فوقَ الغيوم، على بساط الريح، ولم نصل إلى أي مكان، بسبب القصف المفاجئ، وبسبب تمزق خارطة بغداد تحت ضرب الصواريخ، مما اضطرَّنا لأن نهبط، لكن خوفَنا الحقيقي والأشدَّ كان من الحب، الذي كان على وشك أن يفتح جبهته ضد هذا الدمار، لذلك تلافينا الخوضَ في مياهه، التي ركدت فيها أمطارُ صفارة الإنذار، التي هطلت بغزارة، وهي تُعلن عن موعد الدخول إلى ملاجئ لا وجودَ لها، ولم نهتم، فذهبنا لنطوف فوق بحر المكتبات: اشترينا كُتباً، من بينها روايةٌ:

" للموت وقت وللحب وقت " أجبرني السُكر على نسيانها في الحافلة، وأجبرك الرعبُ على عدم قراءتها، والحصارُ على بيعها.

أتذكر جيداً حين رافقتُكِ، آخرَ مرة، إلى بيتكِ، ورجعتُ وحيداً وممزَّقاً، بين الحب والحرب، إلى الفندق، ثم دخلتُ الغرفةَ، وهناك بكيتُ خجَلاً من الشخص الثاني، الذي ظهر أمامي في المرآة، حتى أنني تقيأتُ أحشائي بين يديه.

كل يوم أشيّعُ عصفورا

كأنني كنتُ أتوقعُ أن تغيّرَ البراكينُ من أماكن فوّهاتها، فبعد ذلك العدد اللامتناهي من القُبل، لم اصدّق أن فمَكِ قد بقي مكانه، إلا بعد أن نطقتِ..

لم أعرف أن جسدكَ زورقٌ يتّقن الثباتَ كلما ضربته العاصفةُ، و لا أنني مثلَ ورقة أتقلبُ بين فصول رغبتكِ، لكنني ثبَتُّ أمام هيجانكِ، راضياً بالغرق في أطيانكِ حدَّ الاختناق، حدَّ أن يأخذني فمُكِ إلى أن اكتشفُني عضوا عضوا.

تنحتيني قبلةً قبلةً، فأصيرُ كما تشتهين أن أصيرَكِ.

احبكِ لأنكِ ماهرةٌ في هذا، وفي أنكِ تعرفين أنني لا أفعلُ شيئا من دونكِ.

إنني ماهرٌ في اشتقاقكِ من الهوس، ومن المشي في الليل تحت نور الخيال.

إنني ماهرٌ في النزهة بين الكمائن: ماهرٌ في التسلل إلى الخطر، من مسَام منع التجوال، وفي الوقوف ضد حياتي.

أعرفُ أنه الصباح عندما أذهبُ إلى الوظيفةِ:

عندما أذهب إلى وظيفتي أعرفُ أن الصباحَ لا وجود له إلا في نشرة الطقس.

لا صباحَ من دون وجهكِ.

كلُّ هـواء مـن دونـكِ يعنـي أننـي أتنفـسُ نسـخة مزيفـة من صباحكِ:

صباحُـكِ مذهَـبٌ خاصٌّ، أتباعُه يرفعونكِ بـين الرايات رايةً تمسحُ التجاعيدَ عن وجه العالم.

صباحُكِ يأتي بالنهار بكامل قيافته.

صباحُكِ بدلةُ الماء، وعُريُ الينابيع.

صباحُكِ راحَ: شطبه اليسارُ ومحاه اليمينُ، ولم يبق لي منه غيرُ أنْ أدخنَ سـجائري تحت سـقف صحتي الرديئة، وأنتظر أن أموتَ، تحت الشجرة التي تفكرُ فيكِ، كلما أسندتُ رأسي إلى جذعها.

آه، إنني ماهرٌ في ابتكار الحلول، التي تفاقمُ السـدودَ، وتشعلُ النارَ في قش اشتياقي.

إنني ماهرٌ في العراك مع الكلمات، التي لا تحمل من معانيكِ شيئا:

إنني ماهرٌ في تمزيق أغنياتي، وتخريب قصائدي.

إننـي ماهـرٌ في ابتـكار العاصفـة، التـي تقلـبُ علـيّ زوارق طمأنينتي.

الحربُ معي، وضدي، هي هوايتي الوحيدة.

أرمي على اللا أحد أطلاقاتي، وكلَّ يوم أشيع عصفورا يسقط قتيلا، في طريقه إليكِ.

كم برقٍ أرسلتُ ليضربَ نافذتكِ؟

كم أغنيةٍ غنيتُ لأقتلعَ من عينيْ العالمِ دمعةً..؟!

كنتَ، قبلكِ، أعيشُ كتاب الليل، مع هذه أو مع تلك، لكنني أغلقُ الكتابَ، بعد ذلك، منتزِعاً منه صفحة هذه وصفحة تلك، لأنني لا أطيق انشطاري، ولا أحترم تعددي.

كنتُ، قبلكِ، أشربُ كأسي بفخامةِ مَن عادَ من الغزو بألفِ جارية، غير أنَّ قلقاً ما سرعانَ ما يساورني، فلستُ هذا ما أرغبُ أن أكونه.

وعندما ذهبتُ لأقرأ كتبا أبحثُ فيها عني، لم أجدني، ووجدتكِ بيني وبيني، لكنَّ هذا الذي بيني وبيني كان يفلتُ، فجأة، من بيننا، فأُضيّعُكِ.

صرتُ أتبعُ امرأةً، كلَّ امرأة، ولا أصلَ إلى حنانكِ..

صرتُ أصرخُ: مَن أنتِ، وأينكِ؟!

لكنَّ صرختي لم تكـن إلا داخلَ المكتبة، فلم أقابلكِ إلا بعدما طـرتُ خـارجَ معرفتـي، لأنكِ معرفـةٌ أخرى: وعيٌ شـقيٌ أنتِ، طفلةٌ مجنونة وعاقلة أنتِ.

سماءٌ تفرُ من السماء أنتِ..

قلتِ: أحبكَ، فعرفتُ أني سأخسركِ،

ولأنكِ تحبينني حقا،هيأتُ عنقي إلى المشنقة، وأحببتكِ.

أحبكِ لأنني لا اعرفُ غيرَ هذا،

لا أملكُ إلا هذا.

أحبكِ لأنكِ ماهرةٌ في الحزن،

وفي أنكِ تعلمين أن مهارتي هي أن لا أكون شيئا من دونكِ..

أغنية لتحطيم أنف العالم

أتدربُ، مذ عرفتكِ،على أن أكون خاسرا.

أضفتـكِ، مـذ أول لهفة، إلى مفقـوداتي، قبـل أن يحصلَ ذلك، وأفقدكِ فعلا.

لم أحبـكِ إلا لأن الحـبَّ تنـشره الصبايا، على حبال الغسـيل، لتتبخرَ، من أرواحهن، الطعناتُ تحت الشمس. ولم أغرم بكِ، إلا لأنكِ مخمورةٌ بالألمِ وبالتوبيخِ ، حدّ الثمالة.

وها إني أشربُ خمرَ غيابكِ، واضعاً وجهَكِ على طاولة مخيلتي لأسكرَ:

أسـكرُ مـن أجـل أن أجرجـرَ العـالمَ مـن شَـعره، وأرميـه بين قدميكِ: يصفعونكِ في البيتِ، فأسـقطُ، بدلاً عنكِ، في الشـارع. أما أمُّكِ فلن يغفرَ لها الشِّعرُ، وستفرّ الجنةُ، من تحت أقدامها، نحو الشـيطانِ، لأنها تراني، عندما تبكـين، طافراً من بين دموعكِ، فلا تحرّك ساكنا.

تطبخـكِ وجبة من تعاليم، وتبني، مـن صفعاتها على خديكِ، مطبخا تأكلكِ فيه العائلةُ..

أحبكِ.

اقســمُ بالقمـر، وهو يرفرفُ جريحا فوق رؤوس العشـاق، إثرَ انفجار عبوّة ناسفة في قلبه.

اقسمُ بالخوف: ينشرُ راياتِه فوق رؤوس متظاهرين، في مسيرةٍ لا يعـرفُ فيهـا أحدٌ أحـداً. لا يعرفون لِمَ هم هكـذا محمولون على أكتاف الهتافات بدون فائدة.

احبكِ حتى الأخيرِ.

حتى الأخيرِ، حتى الأخيرِ، رغمَ أننا نعيشُ مرحلةً ما بعده.

حتى عندما يأتي يومٌ ترشّنا فيه خراطيمُ المياه بدموع الحكومة،

حتى في وشـايات الأصدقـاء على بعضهم البعـض، من أجل عضّةٍ من تفاحتكِ المنهوبة منذ أول غابة.

ماذا أكثرُ من هذا شِعراً؟

ماذا أكثرُ من هذا جنوناً؟

غير أني لا أعرفُ كيف أحبكِ دون أن أسكرَ.

دون أن أبيـتَ ليلتـي عنـد عتبة اسـمكِ، فلا تمريـن إلا وأنتِ مبتورةَ العواطف، في سيارة طوارئ.

أحسـبُكِ تنادين الأقاصي من مسـتوصف الزمن، وتحسـبينني أنادي الشِعرَ، ممتطياً حصانَ الرصيف، لكنني أغنيّكِ أيتها الشقيةُ.

أخسرُكِ يومياً، وأكتبُ:

إذا كنـتِ امرأةً، فكوني امرأةً حقا، لأنني إذا ما سـكبتُ عليكِ مـن مياه فرحي، فلـن تفيضَ عـلى وجهكِ إلا صفعـاتٌ أخرى، يزرعهـا الأصدقـاءُ عـلى خديكِ، واحـداً تلـوَ الآخـر، فتدفعني لأشربَ من أقرب غيمة ترفرفُ فوق رأسكِ:

أسكرُ

كي أحطمَ أنفَ العالم،

فلا يتحطم سوى رأسي، وأنا أضربه بالحائط.

لكِ

أن تختفي في شِعري دائما،

ولي

أن أقطعَ المسافةَ بين القصيدة والشـعر حافيا.

أمشي على شـظايا مرآة هاويتي المنثـورة طول الكتابة، فألمحكِ تقفزين، من جملةٍ إلى جملةٍ، وخلفكِ يقفزُ ثعلبٌ، سيواصل لعبته، حتى وأنا أحذفه من هذا المقطع.

غير أني مللتُ.

مللتُ أن أحبكِ بهذا الشكل،

حتى صرختُ ثانية:

إذا كنتِ امرأة، فكوني امرأة حقا.

فخرجتِ من غرفة النقاط:

مشـيتِ، كالحِبر، في عروق الحروف، ولم أجد لكِ معنىً عندما وضعتُ كلماتكِ، تحت عدسة مكبرة:

يحتلني غيابـُكِ، واقترابي يجعلك تفلتين من قبضة الحضور.

أحبكِ.

اقسـمُ بكل ما فقـدتُ من أصدقاء في الحـروب، وبكل جرعة خذلان أخذتها، وأنا جالسٌ على شرفة الحب في الشوارع الخلفية.

أضمّكِ إلى مفقوداتي، وأغنيكِ،

ثم أضحكُ جزعا، لأن اللعبة هذه لا يفهمها أحدٌ سواي:

أنـا الخـاسرُ مذ قلـتِ: أحبـكَ، لأنني خـالي الوفـاض إلا من عطش الرحيل، ولستُ بنادمٍ.

أنا الرابحُ الأزليُّ مذ تدرّبتُ على اضطرابكِ بين مقبض الوردة وغصن الخنجر،

ولستُ فرِحاً:

لا فرق،

ففي الحالتين يصفعكِ أحدٌ ما،

فأسقطُ، بدلا عنكِ، في الشارع:

تجمعنـي أمُّـكِ مع دموعكِ، لأعودَ مثل نهـرٍ، ترمين زوارقكِ الورقية إلى مجراه،

ولا أفعلُ شيئا سوى أن أسكرَ:

أرفعُ قبضتي عالياً لأحطم أنف العالم،

فأرتطم بأول حاجز.

يركلني الجندُ على مؤخرتي فأطيرُ،

كقنبلةِ تنويرٍ في ساحة حرب.

أراقبكِ تغرقين غياباً، وأراقبني أفيضُ حباً لكِ،

يوما بعد آخر، حتى آخر ركلة..

أسطورة الجندي والمرأة العارية

جنودٌ هاربونَ من جميع الحروب شاهدوكِ تسبحين عاريةً، ولما شعرتِ أنهم ينظرون إليكِ نظرةَ الرجاء الأخير ابتسمتِ، وغطستِ عميقاً في النهر، النهرُ الموجودُ في كل بلاد، المرسومُ في خواطر كلّ فنان. آه، خلع الجنودُ ملابسَهم، وتركوا خُوَذَهم مُعلّقةً على أغصان الأشجار، ثم هبطوا أملاً في اصطيادِ وجهكِ على صفحةِ النهر، لكنهم عادوا مغسولين بالدموع، فارتدوا ملابسَهم، خوذَهم وغادروا.

هناك ملابسُ مُهملةٌ تحت شجرة، وخوذةٌ وحيدةٌ بقيتْ وحدَها، مُعلّقةً على غصن، من جوفها، كلَّ صباح، تنبثقُ وردةٌ، وتسقطُ على الملابس في الغروب.

خوذةُ الغريق الذي وجدكِ!

الفراشة

اعتقلوكِ بتهمةِ السحر في سومر، وحين قرأتُ الصفحةَ التالية من سيرتكِ وجدتكِ مصلوبةً في بابل، والعصافيرُ تسيلُ مع شعركِ الطويل. في آشور رجموك بالحجر، وحين دخلَ هولاكو إلى بغدادَ نثروا رمادَكِ على مياهِ دجلة: تلهجُ الأسماكُ باسمكِ، ويرمي إليك الصيادونَ شباكَهم في الخليج..

في البصرةِ كنتِ مع الزنج، ودخلتِ الأهوارَ بهيئة فراشة، طاردكِ أولادُ المعدان في المدارس، حتى صعدتِ إلى أورَ ثانيةً، ووقفتِ على كتفي..

قصة أفضل

إلى هشام حبش

يـا مَن جئتَ من هناك.. من خلف الأسـوار، مـن وراء الغبار والأسلاك..

أنتَ

يـا مَـن قطعتَ طرقا تسـتغرقُ قرونا من الخرائـطِ، جارّا معكَ هـذا الموكبَ الطويلَ من المناحات، من الطوفانات، من الخرائب: هذا الموكب اللامتناهي من الذئاب والعويل..

ما الذي وراءَكَ غيرُ هذا؟

غيرُ أوقات من الشيخوخة تسرحُ في ساعاتٍ من التجاعيد؟

غيرُ الأشباح تجالسكَ في المقاهي؟

غيرُ الليل يتدلى، مشنوقا، من أعمدة الكهرباء؟

غيرُ الغناء، هذا الغناء السكران الذي يقطعُ الأوتار،

ويمزقُ روحَ الكمان؟

ماذا وراءكَ؟

وهذا الكيسُ،هذا الكيس الذي أنقض ظهركَ، هذا الكيس:

ماذا غيرُ الأخبار التي نعرفُ أنها حقيقية،

ماذا غيرُ الوقائع التي نعلمُ يقينا أنها قد حدثتْ، ولا نصدقها؟

إن كان هذا ما لديكَ، إن كان هذا..

فقد قرأنا هذه القصة، قرأنا القصة، حتى.. قبل أن تحدث القصة.

نحفظُ أسماء مَن..

نتوقعُ أسماء مَن..

و نعرفُ أيضا ما بعد القصة التالية.

إن كان هذا..

عُدْ من حيث أتيتَ، فالحزنُ هناك ممّا لا يسعه المكانُ هنا: لكلِّ ألمٍ مكانُه الخاصُّ، وإلا قُلْ شيئاً آخر، غيرَ الذي قالوه قبلكَ، غيرَ الذي قالوه بعدكَ، وإلا لا تقلْ شيئا.

ضعْ قدميكَ العاريتين على إسفلت المنفى، ثم.. كما يتبدّدُ تحت شمس الصباح ضبابُ الفجر، تعلمّ أن تتبدّد، أن تموعَ مثل قطعة ثلج، وأن تتوارى، بهدوء، وسط الزحام:

دعْ الصمتَ يروي، بدلاً عنكَ، قصةً أفضلَ..

أنا الذي أحرقتُ أور

آخـرُ صاروخ يشـهدُ أن أحزاني سـوداء، و يشـهدُ الـدويُّ أنَّ ضجري يطيرُ.

أقول: أنا،

وأعنـي: تحت عظام صـدري كهوف، وأن قلبـي منجنيق: أنا المتحقَّـقُ، والبقيةُ وهـمٌ.

رأيتُ إلى الفراغ يفتحُ ذراعيه ليحتوي كآبتي ويأسي، فتحصّنتُ منه بفراغ آخر، ابتكرتُه من تبعات قنوطي.

لا تؤنسني أغنية، لا امرأة، ولا يأويني بيتٌ.

في جيـوبي أقفـالٌ، ليس لها مفاتيح، وقصـوري لا تفتحُ أبوابَها إلا بالطعنات:

إلا بضربات السيوف.

النحـّاتون صنعوا لي تمثالا في المتحف:

الأغبياء تركوا حصاني يصهلُ، حرا، في البرية.

المؤرخون

تركـوا زوجـاتي يسرحـن، مـع الأسرى والعبيـد، في بـراري سريري،

و كتبوني أمشي مرفوع الرأس

في شوارع العالم.

أقول: أنا،

وأعني: أن أولادي ليسوا من صلبي.

لا أسلاف لي ولا أحفاد:

أنا واحدٌ مذ اُكتشفتْ النارُ في الكهوف،

مذ انطلقتْ أولُ شرارة.

في طريقي إلى الهدف تولد أهدافٌ أخرى، ودائما يوجدُ شعراءٌ يتبعونـني، دون أن أطلـبَ ذلـك: أسـمعهم يترنمـون بشـخص آخـر، وأنا في عزلتي و يأسي، أعـرفُ أن أمثالي لا يُلهمون، طوال حياتهم، إلا قصيدة واحدة، تولدُ كلما نُصبتْ مشنقةٌ، كلما انهارت حضارة، كلما أشعلت النار في الكتب.

أقول أنا،

وأعني: أنني لستُ كلمة، أو سطراً،

لستُ الكتاب، ولا التاريخ:

أنا الذي أحرقتُ أورَ:

أطلقتُ أول نبلة لأنني لم أرَ أحدا هناك.

هذا ما يقلقني،

وهو ما يصيبني بالدوار أبدا.

أنا الذي خرّبتُ بابلَ، هدمتُ آشـورَ، ابتلعتُ سومر، ومحوتُ أكدَ، أما البقية: البصرة أو بغداد أو..

فتتمة لغزواتي.

لم يفهمني أحدٌ، ولن يعرفني الملاكُ أو الشيطان: لا أحد لامسَ إنساني الداخلي.

لن يجرؤ أحدٌ ما على ترويض الوحش، وحشي المريض، الذي يتأهبُ للقفز بعد كل معركة..

آه،

أريـد أن أصرخ عاليا، أن أهـزُّ أركان العالم بصيحتي البربرية، أن أبكي بدموع حقيقية جدا:

هاهو الليل، ليل السبايا والنواح،

هاهو ليلي، ليلُ أملاكي ومقاطعاتي،

هاهو الليلُ،

هاهـي مدينـةٌ أخـرى تُضافُ إلى محروقـاتي، وعما قريـب يبدّدُ هـواءُ الصباح دخانَها الأزرقَ، فتشـتعلُ الرغبةُ إلى إضرام النار في مدينـة جديدة، لا أعرف أيـن: ربما لم تُخلق بعد، لكن حوافر خيلي ستخلقها..

متاهة

رجلٌ يتسـلقُ سـلَّماً، وهو يحملُ على كتفيه سـلَّماً يتسلقه رجلٌ آخرُ. عند نهاية كل سـلّم سـلالمُ أخرى، وهناك رجالٌ يتسلقونها، وعلى أكتافهم سلالمُ.

السلالم تؤدي إلى سلالم:

متاهة تنفتح على متاهة،

والأملُ

هو العثرات.

أمثال

كمن هامَ بحب قاتليه.

كمن يسدّ فوّهة بركان بفلينة.

كمن يسترُ مَن يشي بوبائه.

كمن يبحثُ عن عينيه في الظلام.

كمن هبطَ من شاهق عزلته ليشتري تاجا،

فعاد

بدون رأس.

أسرار

كـم كان قاسـيا أن ألمـسَ الجمرةَ في راحـة اليد، ثـم أدّعي أنها موجة؟

كـم كان مؤلمـا أن ألمَّ الصديـقَ الـذي تناثـرَ، وأن لا يلّمني إلا عدوي؟

كم كان صعبا أن لا يثمر الصفصافُ أبدا، وأن لا يمد الظلالَ إلا استجابة للطبيعة؟

كم كان..

لقد رأيتُ ما رأيتُ، وكتمتُ ما رأيتُ،

ثم تناسيتُ ما كتمتُ، حتى نسيتُ النسيانَ،

لكن..

كم كان جميلا

أن أغسلَ الذكريات بالدمع لئلا تصدأ،

وأن أغمسَ الأسرارَ بالأسرار،

لئلا تبوح.

القفص

البرقُ الذي ضربَ الشجرةَ، لم يضربْ الشجرةَ:

ضربَ الغصنَ.

البرقُ الذي ضربَ الغصنَ، لم يضربْ الغصنَ:

ضربَ العصفورَ الذي حطَّ على الغصن.

البرقُ لم يضربْ العصفورَ، ضرب القفصَ:

آه،

القفص الذي حمله العصفور في قلبه، وهو يفرّ منه إلى الشجرة.

بيت العزلة

إلى احمد الباقري

لا تسألْني كيف ابتنيتَ من القطيعةِ بيتا، وكيف شيدتَ حوله جدرانا من اليقظة، لأنني لبثتُ ماشيا تحت راية لا ترف بين الرايات، ولا تسقط بسقوط الفارس.

هل كان ضروريا أن أطردَ الساحات، التي مشيتْ معي، وأن أغلقَ على النهايات بيتي؟

كنتُ أريد ما هو أبعد:

أن أتركَ العالمَ وحده في الظلام،

حيث القنديلُ الممسوسُ بالشِعر يقرأ عليه ذنوبه،

فيما أنا أتثاءب خارج الكون،

وبين يدي النومُ والأرقُ يتناوبان على رسم الحلم، وهو يحبو صغيرا، ملطخا بالقلق!

كان ممكناً ما هو أبعدُ:

أن أتاخمَ حدودَ المجرات.

لا تسألْني: كيف وجدتَ العزلة؟

اسأل العزلة: كيف وجدتني.

الأقلية الساحقة

قلـة هـم أولئـك الذيـن يحفـرونَ أنفاقـا، في أرض السـهاد، لتهريـب أحلامِهم، كذلك هم قلة أولئك الذي يلملمون أطرافَ ثياب الماء، في جِرار الشـطوط، التي نسـيها نهرُ الأمل تجفُّ، وهو يغيـّر مجراه، فيما هم يكسرون النايات، لينطلق العصفورُ من قلب الخوذة.

آه،

مـا أكثرهـم أولئـك الذين جرحـوا الأغنيـة، مزّقـوا الألحانَ، وجرجـروا الهديـلَ. البعضُ اكتفـى بفاكهة النسـيان، البعضُ هزَّ سريرَ الكسلِ، ولم يمشِ إلى القصيدة، تاركا قدميه خلفه، البعضُ..

قلة جدا هم أولئك الذين لم ينحنوا للعاصفة، بالرغم من أنهم غالبـاً ما اهتـزوا أمام رقّة العشـبِ: أولئك يسـتحقون العيش في قلب الجمرة.

زملاء المطر

الشعـراء الحـزانى، الغـامضون، النـاطقـون بالإشارة، الذين لـم يبارحهم الحيـاءُ، ولـم يمـطـوا الكلمات أبعـد ممّا تصل إليه أصابعـهُــم: ناهـبـو الشـعـلة، العُـراة، ومخمنو الفـرح، الذين بدمعةٍ يغسلون الغفرانَ، ويمسحون الزلة.

الناجـون من الانحـناء إلا لالتقاط شمـسٍ، أو رفـعِ حـسرةٍ: مصحّحـو الأرق، مفخـّخو السهـاد، قاضمو الضجر، والذين لم يترددوا عن المشي فوق المياه، لأنهم مُوكـلون بمهمة الغرق.

أولئك سـتلاطـفهم العثراتُ وتبطـش بهـم المدنُ: ستأمرهم الفـنـادق بالنــزوح إلى السـاحات، ومــن سـاحة إلى سـاحة سيطاردهم نبـاحُ القناديل في الأماسي: سـيعودون صارخين من الألم إلى حبيباتهـم، فـلا يشـمّـون في أحضانهـن رائحــة امــرأة، وكمـا أكلتْ الساعـاتُ المفتوحـةُ على الرمل هواجسَ طفولتهم، سيأكل الإسفلتُ أحشاءهم المبللةَ بحنو البراري.

القادمـون مـن أقاصي اليقظة، مـن الخرائب، مـن قِصر الخيط ومــن انقطاعـه، والنازحــون إلى أقاصي العزلة: لـن يصلوا، لن يأمروا، ولن يطاعوا، وأنا واحد منهم.

أغنية خارج السرب

من المؤسـف حقا أن تموتَ، ولا أحد يدري أنكَ كنتَ شاعرا.
ربـما كانت الحظوةُ لمن رأى كيف قدتَ التلال إلى العشـب بمرآةٍ مكسورةٍ، وكيف سقيتَ العزلة بجدول الأرق.

انحدرتَ مع النسورِ،وسكنتَ إلى الحمام، فانعزلتَ عن الفحم حقـا، لكنـكَ انعزلتَ عن الـدرّ أيضا: هكذا لبثـتَ في الميزان، في ذروة الانشـقاق. لا مِن ماء هؤلاء شربـتَ، ولا مِن دمع أولئك.
كطائرٍ خارجَ السرب غرّدتَ، فكانت لكَ الفخاخُ، وكنتَ لها.

مـن المؤسـف أيضا أن تقـودَ النبلـةَ إلى القـوسِ، وأن تذبحكَ نفسُ النبلةِ.

قصيدة الإنسان

وصلتَ أبعدَ ممّا وصله شيطانٌ أو ملاكٌ، فما وجدتَ شيئا يُذكر: لا نهرَ رأيتَ على صفحة مياهه وجهَكَ الآخر، لا جبلَ ترتقيه صوب المطلق، ولا صحراء ينتظركَ فيها التأملُ، كما تنتظر المعاركُ وصولَ قتلاها.

لا تتعجل.

لم يتبيّن بعد عبثُ خطواتكَ، ولا عطب الترانيم التي سفحتها طوال الطريق، فإذا كان لابد من عزاء فهو الغبارُ على القدمين: أمسكْ به، كما تمسك البراكينُ بفوّهاتها، وانتشِ بسِحرٍ لم يعرفه أحدٌ سواك، فقد أضحيتَ إنسانا.

ما من حربٍ إلا وكنتَ قتيلها الغامضَ الهويةِ،

ما من سفينةٍ إلا وكنتَ راكبَها المنزويَ،

ما من عاصفةٍ إلا وكنتَ الملقى إلى البحر، اتقاءَ شرِّها، ما من..

آه،

عجبتُ حين دقّقتُ مخطوطة حياتكَ: كيف لبثَ قلبُكَ مكانه، كلَّ هذه المدة؟!

أنتِ الزهرة وأنا الشوكُ

إلى جليل القيسي

تتبرقعين بزَبد الأمان، وقلبكِ مخلوعٌ من عزّ قلبه، كأنَّ لظلامكِ نكهةَ النور، أيتها المولودةُ في الدهاليز، ووجهُكِ، في المرآة، يعكس التفاتةَ الفجر. كنتُ أهزُّ منامَكِ، أنا الطفلُ، وحين أغفو تهدهدكِ العاصفةُ.

من أجلكِ جاورتُ شظايا البرق، مردِّداً اسمَكِ، مثلَ أغنية تقيني الموتَ، ساعةَ يحلُّ، بكامل أسلحته، الخطرُ، وبين أحشائكِ تنقلتُ باحثا عن الينابيع، وكان دخانُكِ يستطلعني، كبركانٍ يبحث عن فوّهته: هناك أرعبني جمالُكِ، وجرحتني جلالةُ ومضته.

وذات صباح وجدتُ "غزالة سركون" ميتة ببابي. غطيّتُها بخلاصة الخجل، عوّذتها بروح شمعة، فقامت.

منذ ذلك الصباح وأنا أشمُّ خواطرَها على الإسفلت، أتبعها، فأعثر، بين سطور رسائلكِ، على ناي، لا تزال رطبة، بين ثقوبه، الأغنية.

آه..

لا أحد ينفض الغبار عن روح مَلاكه،

فالبعض أكله الترابُ،

والبعض يأكل الترابَ.

أأحبكِ؟

كان ممكنا أن أكون لكِ الدرعَ،

لو أنكِ سدّدتِ إلى الخصم رمحكِ،

لو أنكِ بأظافرك الألف لعقتِ قيعان وحدتي اللامتناهية،

وإلا لماذا تجرّعتِ كأس حبي السامَّ، الذي خلع عليك جلبابَ تمرده على كل طاعة؟

لماذا اخترقتِ الثقبَ الوحيدَ في قلعتي، ودخلتِ الصالة، كما تخيلتكِ: ناصعةَ البياض، خفيفةً مثل ريشة، وثقيلة مثل لاشيء؟

من أجل مَن أرضعتِ، من جَمالكِ، طفلَ العالم؟

أأحبكِ؟

لا..

ولن أكرهكِ.

أنتِ الوردةُ،

وأنا الشوكُ،

وما ينقصنا لأن نكوّن حِلفا،

هو الغصن.

جمعية الشعراء الموتى

إنْ خطرَ لكَ أنَّ الحبَّ قد خذلكَ كثيراً،
وأنّ ما كتبته الحبيباتُ، واحدة تلو أخرى، كان مجرد مزحةٍ.
إنْ خطرَ لكَ أنّ امرأةً تنتظركَ.. هناك، لم تُخلق بعد،
فهي متوارية في ما ستكتب من قصائد.
إنْ آمنتَ بأنَّ هناك ما ليس هناك،
وأنَّ الماضي والحاضر والمستقبل
قد ركبوا دراجاتهم الهوائية، عائدين، خجلا منكَ، إلى الوراء.

إنْ هزمتَ الموتَ بأنْ مشيتَ على جمر حباله،
وتحسّستَ ألمه، وهو يتلوى بين عزلتكَ وصرختكَ، وحيدا.
إنْ خطرَ لكَ ذلك، وصدّقتَ بأنَّ ما في الكتب لا يعنيكَ،
كما تعنيكَ شجرةٌ تتسول منكَ ظلالَ أمانها.
إنْ صدّقتَ بذلك.
إنْ أردتَ أن تتبخرَ روحُكَ: تتكاثف فتصير فراشةً.
إنْ أردتَ أن تلعبَ دورَ الوردة والفراشة معا.
إنْ تجاوزكَ خيالُكَ فوجدتَ المسرحَ جاهزاً
كي تلعب دورَ الفراشة والوردة والعاشق في نفس الوقت.

إنْ تماديتَ فأردتَ أن تصيرَ الحديقة بأكملها،
ثم رأيتَ الروحَ أوسعَ مما كنتَ تظن.
إنْ خطر لكَ ذلك:
أنْ تنتظر قلبك، أسفل جبل الحلم، يأتيكَ
متدحرجا على الصخور.
أنْ تتهشم حياتكَ كالزجاج،
أنْ تجمعها، جاعلاً من العالم غيمةً، حسب الشِعـر،
ومن نفسكَ طقسا حافلا بسماوات لا تحصى.

إنْ فكـّرتَ بذلك.
إنْ فكـّرتَ أنَّ هناك طريقاً ما لم تسلكها بعد، نحو المطلق،
فضع رأسكَ فوق رمحكَ، وامضِ منشدا أغنيةَ الشعراء الموتى.
تمثَّـــلْها كي تعبرَ نحوكَ، حيث النورُ ينشر قميصه:
إنْ خطرَ لكَ أنَّ الحبَّ قد خذلكَ كثيرا،
وأنّ ما كتبته الحبيباتُ، واحدة تلو الأخرى، كان مجرد مزحة.
إنْ خطرَ لكَ أنّ امرأة تنتظركَ.. هناك، لم تُخلق بعد،
فهي متوارية في ما ستكتب من قصائد.
إنْ آمنتَ بأنَّ هناك ما ليس هناك،
وأنَّ الماضي والحاضر والمستقبل

قد ركبوا دراجاتهم الهوائية، عائدين، خجلا منكَ، إلى الوراء.

إنْ هزمتَ الموتَ بأن مشيتَ على جمر حباله،

وتحسّستَ ألمه، وهو يتلوى بين عزلتكَ وصرختكَ، وحيدا.

....

....

الخ

الليل تحت عدسة مكبرة

اصطدتُه فيما أنا أكتبُ.

كثيراً ما كمنتُ له في القروح، في العبارات، وفي مفارق الطرق، عندما تعوي المدنُ من شدة الألم، فيما الذئابُ، في فواصل الجسد، تلحسُ عظامَ فكرتي عنه، لكنه يفرُّ من مدى الإشارة، ثم يختفي مثلما جاء، ساحبا خلفه حزمة من خنادق حفرتُها لاصطياده، وشراكا، هي قصائد تعكسُ قارئها، وقد تعفّن في مرايا الأمل.

كنتُ مُبعثرا قبل ذلك: أطيحُ بالشجنِ، أمدُّ يديّ في الجهات، أجرُّ الهواءَ من ياقته، وأشدُّ العاصفةَ من شعرها، لاعقا الجروحَ التي شاركتني العيشَ مكشوفا، تحت عدسةٍ مكبرةٍ: غاضباً غاضباً أشربُ العالمَ بعينين معصوبتين، وأتقيأ كل شيء، دمعةً بعد دمعة.

مع ذلك كنتُ مشرقاً، كما ولد عاشق يكتبُ زوارقه الورقية، على نهرٍ من الأسفار، بين دفاتر الأغنية، و في بحة الفجر. كما أنني كنتُ حانياً على الغابةِ، أفركُ صدأ ذاكرتها: أكشطُ الزئير، و أفرشُ لضيوفِها سريرَ الطمأنينة، بالرغم من القتال العنيف بين نفسي وبيني، لأنَّ الكمائنَ التي نصبتُها كثيرةٌ، ولأنني كثيرا ما وقعتُ فيها.

وهاهـو الآن في غرفتي، مجـرَّدا، حتى من ظلامـه، فـيما الزمنُ يجـري كعادته، تاركا لنا، نحـــن الاثنين فرصةً عادلةً للانقضاض عـلى بعض. كنتُ واثقا أنَّه هو وليس نسـخةً مزوّرةً، كتلك التـي طاردتُها في الحروب التي خضتها دون طائل، فسـحبتُ له كرسـياً من حديقة القصيدة، وأجلسته.

غـنيـّتُ له: يا ليل، يا ليل

يا ليل

يا ليل

كم ناديتـُكَ يا ليل؟

كم أنشدتُ، تحت مظلات حرابكَ:

ألا يا أيها الليل الطويل،

يا ليل:

أنتَ يا ليل

يا مَن تفر من الليلِ إلى الليلِ

يا مَن تنقل الليلَ إلى الليلِ، يا ليلُ..

إلا انجلي بصبح

ولم تنجلِ، ولو مرةً، يا ليلُ؟

كان غنائي نواحا، كان بكاء، كان صراخا، كان..

حتى رأيـتُ أنَّ النجـومَ، على كتفيه، قد بدأتْ بالثغاء، كـما أن القـصيدة قد اكـتظتْ بحشـرجـات القتلى، فمزقتـُها، ورفستـُه.

هكذا تركته يتلوى وحيدا، في الغرفة، وخرجتُ لأتثاءب.

أغنية الكلب

ثمة كلبٌ كان يحرسنا:

أحمقٌ، لكنه أسودُ.

وكان يركض أمامي حين أعود، قادماً من المتاهة، وغسقٌ من الإفلاس يظللني. يتشممني كما لو كنتُ اخفي غنيمةً تحت ثيابي: يلحس حذائي العريقَ الأصولِ بالغبار، ثم يتسلقني، يلف ذيلَه حول رقبتي، وينبح هامسا: " متى تتركني أعيش إنساناً مثلكَ، أو تنزع عنكَ جلدكَ البشري، فتكون كلبا مثلي: نهيم في بلاد الله، بعيدا عن علاقة العبد بالسيد؟ ".

كان صديقا مدهشا: يخترق غرفتي، من مسام الحائط، ويتجلى شبحا من الدخان، يخلع عن المكتبة ثيابها برقة، كما لو كانت امرأة، يتشممها من كتاب إلى كتاب، ثم يقفز فجأة، يدخل أعماقَ الشمعة، ويخرج قابضاً بأنيابه على فكرة الظلام.

أحيانا، وهو يلحس صور كائنات ارسمها ملاذا لوحدتي، يرمقني بخبث: " أشم ذئابا في هذه الرائحة، وهناك صرير فئران " كان يهتف، لكنه عندما، آخرَ الليل، انتزع حنجرتي من مكانها، وأهمس: " كفاكِ صمتا " كان ينبح.

هل كان يعرف؟

مـرّات يظل، خلف الباب، جالسـا: كان يزن فقـري بنظراته، وهـو يرى إلى شـحة العظام، وبؤس المزبلـة، لذلك، من اجل أن يجد طعامه بنفسه، تركتُ له الباب مفتوحا.

آخـرَ صباح، وأنا أخرج مـن البيت حاملاً منفاي على ظهري، بقيَ مكانَه، ولم يحرّك سـاكنا، فرأيتُ، من خلال عينيه الجامدتين، العـالمَ مفتوحـاً. كان يعرف أننـي خارجٌ من حياتـه، وأن عليه أن يخرج من حياتي.

هل فكـّر بالانصراف؟

هل بقي مربوطا بحبل الوفاء؟

آه،

هذا الحبل الذي يجرّني إلى الوراء،

كلما هممتُ بخطوة.

الآن،

من هذا المكان الذي ينفجر فيه ينبوعُ هذه الأغنيةِ،

اسمعُ نباحه منشورا على حبال الكون، وأبكي.

الريشة

في بدايـة الأغنيـة يخـرج رجلٌ من بيتـه، باحثا عـن شيء. على ضـوء المغامرة الـذي يضيء له الطريقَ، سـيقطع مسـافاتٍ أطولَ مـن حاجته الثمينة: أثقـلَ حتى من خطواته التـي تحقّق للخرائط شخصيتَها، وللغبار كينونتَه، إذ يلتصق على وجهه، كالقناع.

في نهاية الأغنية، ودون أن يعرف، يجد الرجلُ نفسه، أخيرا، في نفـس البيت، وجها لوجه مـع الشيء الذي خرج باحثا عنه طوال حياته: يتقدم نحوه، ومع كل خطوة يشتد ضوءُ الحاجة إليه، لينير أعماقاً لم يرها تشـع يوما: ذكرى صديق، امرأةٌ، ترنيمةٌ سقطتْ كما نيـزكٍ من مجرة الذاكـرة، وتآكلتْ في الطريق نحـو مصيرِها، لكن شكّـاً ما يداخله: آه..ربما، ربما رأى كلَّ خطوة من رحلته الطويلة هذه في منام، ربما خاضها يوما وهو يسمع إلى أغنية تركها منشورةً عـلى حبال حنجرة المـاضي الصوتية، متجنبـا كل طرق الوقوع في شَرك ريحها، هو الريشةُ.

مشيتُ وحيداً في العالم

حين سـقطتُ انهارَ سـقفُ العالم، ولم أتحطـم، لكنني خسرتُ عزلتي.

صار مُؤَكَداً ذلك.

صار مؤَكَدا أنَّ العزلةَ عَزلَتني من ألعابها.

انتُزعـتُ مثـلَ ماءٍ مـن قطرةٍ، ولمّـا دخلوا القطـرةَ، ووجدوني داخلهـا، ألعـبُ مع القطـرةِ، أغلقوا القطـرةَ. أيقنـتُ أنَّ حصتي مـن الفرح قد وصلـتْ آخرَها، فشربتُ القطـرةَ حتى آخر قطرة، وغنيتُ: كيف تُفصلُ القطرةُ عن الماء؟

أسـكرني أنّي مـاءٌ لا يجد في صحنـه قطـرةً، فرقصـتُ طويلا، حتـى فاضتْ رقصتي عن الرقص، وفاضَ التنورُ، فرأيتُ القطرةَ قطراتٍ، وفي كل قطرةٍ أنا الماءُ والقطرةُ، لكنني، في ذروة الرقصِ، سـقطتُ كما فانوسٍ من برجٍ، ولدى ارتطامي بالليل فاضتْ، على الإسفلت، حياتي.

ماذا أفعلُ بهذا الشيء؟

أطبقـتُ أجفـاني عـلى آخـر قطـرة دمـعٍ، لأننـي أدركـتُ أن خواطري، هي الأخرى، قد انتُهكتْ، ثم مشيتُ وحيداً في العالم.

طبعة جديدة من رئتي السياب المثقوبتين

لأنني لم أجد كرسياً، لا في زنزانتي ولا في حريتي، أجلسُ واقفاً في اللامكان، وعيناي تطوفان حول خراب البصرة، مثلَ شبح يعرف أين يجدد خواطرَه.

في رأسي هيكلٌ عظمي، يكسوه السُكرُ بدلةَ الطير، فيحلق بعيداً، ناقلاً بمنقاره خطةً محكمةً لجرجرة الليل من ياقته، وتثبيته عنوة تحت عدسة مكبرة، لكن السيّاب يخطر أمامي، فجأة، وهو يجلس القرفصاء في أسطورة أزقته، قابضا إلى صدره طبعة جديدة من رئتيه المثقوبتين، فيهما قريتان من النمل تسيلان مع دموعه على خديه، فارتدُ إلى الوراء، كمن طاشتْ له أطلاقة ثم وجد أنها نابتة في قلبه.

مَن يخبر أهلي – وقد نجوتُ من المهالك – أنَّ هولَ البقاء ناجياً أصعبُ؟

مَن يخبرهم أنني أحوم حول خرابِ البصرة، معلقاً سترتي على أصابع الليل، مثل شبح يعرف أين يجدّد خواطره؟

أغنية خاتم سليمان

في تلك الساعة التي تطيرُ فيها الصخرةُ والريشةُ، انتظرتَ أن يُنجزَ الخادمُ المخبوءُ في خاتم سليمان مهمته، فتفتح عينيكَ، بعد جملتين غامضتين وقصيرتين، لتجد نفسكَ في مدينة أخرى.

لم يكن هناك مهرَب من هذا الطيران بين المنافي إلا بالسِحر، حيث الترياقُ أجنحةٌ للتحليق، والجرعةُ الواحدة منه تذكرةٌ للسفر في الدخان.

- هناك امرأة تنتظرك، عاريةً، عند البحر..

يقول المهرّبُ، وهو يهبط نحو القرية لاستدعاء امرأة الخاتم، فتأخذكَ النشوةُ إلى البحر، تقودك إلى حيث المرأةُ تبتسم، عاريةً، بانتظاركَ، فيما الشرطةُ في الخارج، يتقدّمها الخادمُ شخصيا، سيقتحمون الكهفَ الذي لجأتَ إليه، في تلك الساعة التي تطير فيها حتى الصرخة والريشة، إلا أنتَ.

أغنية عقيل علي

خسرتَ كما ينبغي لخاسرٍ أن يخسرَ، ولم تندم، لكنكَ بكيتَ لأن الخسارةَ، بحد ذاتها، لم تكن كما ينبغي لخاسرٍ أن يخسرَ، رغم أنكَ أخذتَ جرعةً صافية من الألم.

ذلك مما وهّج شمسَ الآهة، لكنه مما جعل الصفحَ متعذرا، فألمُكَ كان أشدَّ من أن يؤلِم، وأكثفَ من أن يسطعَ، لأن جرعتَه كانت مركزةً جدا.

ذلك مما أوقعكَ في قعر كل صيحة، ولم تخرج إلا بعد أن اغتسلتَ من العافية، وتطهرتَ من الصحو. لم تخرج إلا بعد أن نظفتَ من درن الطمأنينة، وارتديتَ الخوفَ.

هكذا نسجتَ رايتكَ، ومضيتَ:

ما مررتَ بقرية إلا وتبعتْ شحوبَكَ الصبايا الجميلاتُ.

ما وطأتَ مدينةً إلا وجَمع المجانينُ الترابَ، من تحت أقدامك، وصُعق الصعاليكُ من هيبة الإفلاس في جيوبكَ.

ما دخلتَ غابةً إلا وهشتْ إليكَ عصافيرُها،

وبنتْ أعشاشَها بين عينيك.

ما قطعتَ مسافةً إلا وكانت الأقاصي قادمةً نحوكَ.

من قرن إلى قرن، مثلَ شبحٍ غامض خرجتَ من الكتب والقصائد والمخطوطات القديمة، يتبعكَ الرعدُ والغيمُ والهامش الساقط من يد المتن: تنتظر منكَ الأمهاتُ، عند المساء، أن تعيد أزواجَهن أو أبناءَهنَّ

الضائعينَ في الحروب والفنادق، والحانات، والبلدان، والنساء، والبحار، وأنتَ تسير إلى الأمام:

عيناكَ شرارتان، كما قالت النبوءاتُ، وآيتُكَ أن اسمك عقيل علي عجيل، كما اتفق المفسِّرون، إذا ذكره الجائعُ هبط عليه الخبز حاراً من سماء لم يخلقها ربٌّ، ولم تعش تحتها إلا الرؤوسُ المكتظةُ بهواجس الطيران، كالحمام.

كنتَ أشجعَ من كل ما قرأتَ أو تعلمتَ، مما قيل أو يقال، فمضيتَ رافعا رأسكَ المجنونَ عاليا، غيرَ عابئٍ بالطقس والنار والأسلاك، مرددا أغنية حار في تفسيرها الشيطانُ، وذهل من نورها الملاكُ، وهما يحفّانكَ بالحنان من فوق ومن تحت، ومن خلف ومن أمام، حتى وصلتَ إلى الحد الذي تنكسر فيه كلُّ راية، فالتفتَ ملقياً على ماضيكَ نظرة أخيرة:

راعكَ ما رأيتَ من بشر حاملين أرواحَهم، قاطعين المسافاتِ، يرددون أناشيدَ القتال وراءَك، فتساءلت مندهشا، عبرَ ضجة الخيول والطبول وقعقعة السيوف:

ما بال هؤلاء؟

لماذا يتبعون واحدا مثلي، دون العالم؟

ألا يرون رايتي البيضاء؟

كيف يسيرون خلف شاعر أخذ جرعته من الألم كاملة، واكتفى؟

ماذا يريدون من كوكب ضاق ذرعا بالدوران حول الشمس، ويريد الآن أن يدور ويدور ويدور حول نفسه،وحيدا، كما الشملُ؟

وحيداً، كما الشمل: عبارة شعرية، كان عقيل يرددها دائما.

الطائر

عندمـا التقطتَ المظـروفَ، الذي نقله طائرٌ إليـكَ، ثم اختفى بسرعة في الأفق.

عندما تنفســتَ الصعداء، رفعته إلى صدركَ بحنان، ثم فتحته بهدوء، فوجدتَ فيه جثة الطائر..

عندما وصلكَ المظروف من آخر الزمان

عندما هربتَ من المرأةِ التي خرّبتْ حياتَكَ، وحزمتَ أمرَكَ: صعدتَ القطار طلباً للنسيان.

عندما ألقيتَ نظرةً أخيرة على ماضيكَ، ودخلتَ في كهوف النوم، بعد أن رميتَ بذكرياتكَ من النافذة: رأيتَ إليها تطيرُ، و يحملها الهواءُ الطلقُ بعيدا عن الطريق.

عندما استيقظتَ عند آخر محطة: نزلتَ، ورأيتها تنزلُ معكَ من جميع الأبواب.

عندما صارت جميعَ المسافرين.

عندما يمّمتَ وجهكَ شطرَ جهةٍ أخرى، لم توجدْ بعدُ، ومشيتَ حافيا، إلى أن خضتَ في وحل الألم، حتى ركبتيكَ.

عندما شعّتْ رؤياكَ،

ومرَّ نيزكٌ في فضاء غرفتكَ الباردة.

عندما سمعتَ الليلَ، في منتصف النهار، وكنتَ جالسا على رصيف مقهى، في مدينة ساحلية.

عندما وجدكَ ساعي البريد، الذي كان يبحثُ عنكَ منذ قديم الزمان.

عندما أخيرا، وبعد مماطلات، فتحتَ المظروفَ الذي وصلكَ من كل مكان، وقرأتَ الخبرَ السار، الخبر ـ اللغز، الخبرَ الذي تعرفه، الخبرَ الذي لم يهمكَ يوما، الخبر الذي أثبتَ لكَ أنّ حدوساتكَ كانت صحيحةً:

أن المظروفَ فارغٌ، أنّ ساعي البريد لم يجدكَ، أنّ المرأةَ التي خرّبتَ حياتها هي نفسُ المرأة التي خرّبتْ حياتكَ، أنكَ لم تصعدِ القطار، أنكَ لا تجلس قرب البحر، ولا في المقهى، وأن عليكَ أن تفركَ الصدأ عن باطنكَ الذي كان مشعّا، فالليلُ ليس الظلامَ، وهو ليس ظاهرةً فيزياويةً إطلاقا..

قصيدة الماضي

يأتي الماضي من كل مكان، وفي لحظة غير متوقعة.

أصدقاءٌ ينبثقون، صديقاتٌ، وأماكنُ لم تعد مأهولةً بناسِها.

مدنٌ تظهر، مدنٌ كثيرة صادفتُ فيها مهرّبين، نساءٍ جميلاتٍ، وأشجاراً عاريةً على أغصانها ترك جنودٌ هاربون خوذَهم، وغابوا..

أحدُ أصدقائي، مات غرقاً في طوفان نوح، نطّ برأسه فوق المياه، و طلب مني عودَ ثقاب:

ـ الطريقُ مظلمةٌ إلى العمق!

قال، ثم اختفى!

المفتاح

عندما اكتشـفتَ أرضاً مجهولةً فيكَ، لم تمرّ بها من قبل، فيممّتَ وجهكَ شطرَ منفىً لن تؤنسكَ في الطريق إليه أغنيةٌ، ذكرى امرأة أو قصيدة.

لبثـتَ متلعثـما تبحثُ، في خزائنـكَ من العثرات، عـن الكلمةِ المفتـاح، كي تمضـغَ ما قد تواجهُـهُ من عناء الوقـوف أمام أبواب ذاتكَ العميقة كالغريـب، كأنكَ ما ارتحلتَ أبدا، ما أحببتَ يوما، ما سافرتَ وما غنّيتَ..

قصيدة اللؤلؤة

إلى ميثم الحربي

شـطبتُ على ما أعـرفُ من قبلُ، بغيـةَ أن أتجـاوزَني إلى معرفةٍ أخرى. لم أعرف أنني بذلك وسّـعتُ ذخيرتي من الأعباء، لكنني فرحـتُ لأنَّ وحـوشي بـدأت تنقـص: ضمـرتْ أنيـابي، وخـفّ جسـدي، حتـى طرتُ وانتـشرتُ، ثم سـقطتُ فتمرغـتُ في كلِّ وحلٍ، كقتيل نهبتْ أنفاسَه قبائلُ لا تُحصى من الدخان.

لم أمـرضْ، فقـد تعافيـتُ من الشـفاء وقفـزتُ حاجـزَ العلة، لكننـي تحطمتُ تماما لفرط ما حاربـتُ، ولكثرةِ ما انتصرتُ، فلم يعدْ يشـغلني أيـن أجد مسـقطَ رأس المعرفة، لأننـي ـ في طريقي إليها ـ أحرقتُ كلَّ الكتبِ، ومزّقتُ جميعَ الخرائط.

لم أعـد أذكـرُ، الآن، مـن قلـبِ أيِّ امرأةٍ شـعّ مصـيري الذي حفّزني على التخلّي عن اللمعـان، وعلى اعتناق اللاجدوى دليلاً، أو اللاهـدف هدفـاً، حتـى وصلـتُ وعثـرتُ، في لجّـة اليـأس و الظلام، على اللؤلؤة.

العالم بين كتفين هزيلتين

إذا هربتُ إلى الشرق، قاد خطاي إلى الغرب.

إذا يممتُ وجهي شطر الجنوب، وجدتُه مع الشمال، بانتظاري.

يعرفُ أنّ أكتافي هزيلةٌ، لكنه يصرُّ على هذه اللعبة: أسقطُ، ثم أقوم وأمشي، ذاهباً إلى هناك، آتياً إلى هنا، فلستُ أعرفُ إلى أين وجهته.

أدحرجُه، أحيانا، مثل تفاحة.

أستدعي امرأةً. أغويها فنأكلُ التفاحة، لكن عبثا: لا الشيطانُ، لا الملاكُ، لا أحدَ. لقد تغيّرتْ السُنـنُ، فالكلُّ في العالم،

والعالمُ، بين أكتافي، يلاعبُ ساقيه..

يا للمرارة!

يأتي القتلى يوميا، يطرقون نافذتي، ثم يلوذون بالفرار.

تـأتي أمهاتُهم في موكبٍ من الأحجـار: يتركنَ صيحاتهنّ تحومُ حول رأسي، بعد أنْ يختفي موكبُهنّ في الظلام.

أنني أرى في ملهاتي جيشـاً من الخائبين، يأتي مسـبوقاً بضحكة لا تنوب عن الفرح، لكنها نشارةُ غربتِه: أولئك هم ملاذي.

أدعوهم لنعتليَ ندبةَ الجرح.

واحدا بعد آخر نسكبُ أرواحنا في العالم:

نسكبُ العالمَ في الكأس، ثم نشربُ الكأسَ.

أغنية جان دمو

أودعتُ المَلاكَ رسالتي، وتألمتُ كثيرا لرؤيته، وهو يتهدم من ثقلها.

مـاذا عليّ أن أفعلَ لأخفّـف عنه وطأةَ سـقوطه في الشَرك، إذا كان الشِـعرُ ينطوي، بطريقة ما، عـلى طاقة من الحرية الوعرة، من شيطنةٍ ملائكية، ومن الجَمال المدوّي، الذي لا يُطاق..؟!

المنفي

بعد عدة خطوات تصل المدينةَ، لا تلوي على شيء، سوى أن تستعيدَ نشوةً غامضةً اجتاحتكَ وأنتَ تمشي، ذات يوم، في أحد شوارعها، عندما طرق سمعَكَ النايُ يعزفُ امرأةً موحلةً تشرقُ بوجهها القمري من بين البردي، حيث كان يعيشُ أجدادُكَ..

مرورُكَ ذاك كان عابراً ثم صار مقيما فيكَ، فأخذته معكَ إلى أهلِكَ، وهناكَ، وأنتَ بينهم، شعرتَ بكَ منفيا منذ الولادة.

مثل ملاكين في قفل

عندمـا تمشي وحيـدا، في البرد، قد تعثـر في جيوبكَ على مفتاح هـذا الكون، فيما الضبابُ المتصاعد من فمك يحولكَ إلى لغز يحثُّ الكون على أن يضعَ يديه، في جيوبِه، بحثاً عن مفتاحكَ..

كلاكما في محنةٍ، مثلَ ملاكين في قفل.

أغنية ما

عندما تكون على مقربةٍ منكَ: لا أحد يفصلُ بينكَ وبينكَ، وأغنيةٌ ما، فَرِحَة أو حزينة، أو لا فَرِحَة ولا حزينة، تنبشُ أرضاً مجهولةً في باطنكَ، لم تكتشفها من قبل، فينعكسُ اللؤلؤُ في عينيكَ لتصبحَ جروحُكَ مرئيةً، وأنتَ تمشي واضعاً يديكَ في جيوبكَ: رأسُكَ ليس بين كتفيك قطعا، لا تلوي على شيء سوى أن تمشي واضعا مصيرَكَ في مكان لم تصطلح عليه اللغةُ: لا خلفك أو أمامك أو تحتك، ولا هو هذا الذي يرفرفُ فوقكَ، مثلَ علمٍ مكسور، فترفعُ بصرَكَ نحوه شامتاً بمَن انتصرَ وبالمعارك..

ها أنتَ تسيرُ فيكَ، كنبضةٍ وجدتْ الطريق، أخيرا، إلى قلب العالم.

كيف تفوز بوردة؟!

عاد الجنديُّ الذي قُتلَ في جميع الحروب إلى قريته الصغيرة، ولم يعبأ بالحوريات اللواتي ينتظرن، أو بالصبايا: يلوّحنَ له من على السطوح، ومن خلف النوافذ.

الأبوابُ المفتوحةُ أمامه فتحتْ جرحاً غامضاً في داخله، لكنه لم يحرّك ساكناً، ومضى في طريقه غيرَ عابئ بالرايات أو بالأهازيج التي حاصرته من كل جانب.

لم يتوقف ليندهشَ بالمصاطب أو بالحدائق أو بالجسور، لم يشربْ من أنهار الخمر أو اللبن، ولم يدخل قصرَهُ المشيّد من أحجار اللؤلؤ.

كان ينظرُ إلى كلّ شيء بعينين يائستين: يهزُّ رأسَه، وهو يطوفُ الأزقةَ كالسائر في نومه، حتى دخل بيته أخيراً، ولمّا لم يجدْ أحدا، اكتفى بأنْ يدخلَ إلى الحديقة، ولبث مترددا طويلاً عندما فكّر في أنْ يقطفَ وردة من الشجرة التي غرسَها بصحبةِ حبيبتهِ مرةً، لأنّ الجرحَ الذي في داخلِهِ، الجرحَ الغامضَ، بدأ ينزفُ ألماً لم تسببه له، من قبل، أيّةُ قنبلةٍ أو قذيفةِ مدفع، أيّةُ طعنةٍ من الخلف أو رصاصة، فأسند ظهرَهُ إلى السياج: أشعلَ سيجارةً، ونظرَ إلى فوق، حيث الدخانُ يشكّل دوائرَ عصيةً على الفهم، ترتفع بهدوء فوق رأسه، ثم تختفي شيئا فشيئا.

قبل أنْ يحزمَ حقيبتَه، ويعودَ ثانيةً من حيثُ جاءَ، انخرطَ، فجأةً، بالبكاء.

نبي متأخر

إلى كريم راهي

عثورُكَ على تكاملكَ في تمزقكَ، وفي تشظّيكَ..

كن أعمىً يمشي على ضوء يديه المقطوعـتين، وستصلُ.

لا يهـمُّ إن طالبـوكَ بمعجـزةٍ، ولم تحصـلْ، لأن أنبيـاءَ لحظتكَ الشائكة ليسوا بحاجة إلى هكذا ترهات.

قـدّمْ قلبَـكَ كبرهانٍ قاطع، فما من أعجوبةٍ تفوق بقاءَه نظيفاً، كما أنه لا مفرّ من الأثر، ثم بعد ذلك.. سيّان إن حصلتْ المعجزةُ أو لم تحصل:

في كل الأحوالِ سـيأكلون قلبَكَ، وها همْ قد توّجوكَ مطروداً من الحفلة، فلا تجزعْ..!

وطني

وطنـي، عـلى دراجتـه المثقوبـة الإطاريـن، يطـوف الشـوارعَ مذعـوراً، بحثا عن مـلاذ، وخلفه يركضُ موكـبٌ من اللصوص بالمدافع، بالهاونات وبالمفخخات، وكلهم يهتفون: يا وطني..!

وطني الحزينُ، وطني الذي جُنّ من الحزن!

أغنية

ليس أكثرَ سلاما من أسيرَين، يلعبان الشطرنجَ، في باحة سجنٍ، ويترنمان بأغنيةٍ عن بلادهما البعيدة، وعن الحب الضائع المفقود ..

في حانة سيدوري

أنا ومصيري، ذاتَ ليلة، سـكرنا وبكينـا، على أكتاف بعضينا،
حتى الصباحِ، ثم افترقنا:

كلُّ واحـد منـا أدركَ، دون أن يقـولَ، أننـا سـنلتقي على حافة
الهاوية، التي كانت، عبثاً، تغيّر مكانَها بين كأس وآخرَ..

عزلة الوردة

أنـتِ التي، تحتَ القصـف، وفي الحروب التي تنشـبُ، فجأةً، بـدون سـببٍ، تبحثـين عني، عـن أشـعاري المسـفوحةِ، كالدمعِ عـلى خدِّ الزمان، وعن عنواني الذي يقـودكِ إلى المتاهة، أنا القتيلُ المجهولُ، مذ أولِ قرية اغتصبَ بساطتَها الغزاةُ..

أحتاجُ يديكِ الصغيرتين.

أحتـاجُ براري راحتيكِ التي قـرأتُ فيها، في صباح بعيد جداً، مصيري الشائكَ، فأفصحتُ عن لوعتي، وعن قبلاتي.

في ما مضى كنتُ أهشُ الظلامَ عن شّـعرك الطويل، بالنجوم و بالفوانيـس، أحتضنـكِ في العاصفة، أصدُّ عنـكِ الخوفَ، و كنتُ أخضّـكِ، كلما داهمني الجزعُ، مثلَ شـجرة، فتسـقط عند قدميك الحافيتين مفاتيحُ أقفال حياتي..

أفكـرُ، دائـما، فيـكِ لأن ذلك ممّـا يخصّـبُ مخيـّلتـي، ولأنه ممّا يكشـفُ عن اللؤلؤة في داخلي، فأتضوَّرُ من النوم داخل السـهاد، ومن مَسَام جسدي يضوع عطرُكِ.

أحتاجُ كلامكِ الذي يعطفُ على الصمت، ويبسط الحريرَ على

سرير الطمأنينة، وأفتقدُ فمكِ الذي ينسج ثوبَ الرحيق، قبلةً بعد قبلةٍ، في عزلة الوردة.

أتخيلُ، في وحدتي، نوافذكِ التي، من وراءها، ترسلين القبلات والرسائلَ، وأهيم في الحياة التي ترسمينها في حديقة الخيال.

أفكرُ في أنفاسكِ: معيارِ البراءة، وشبق الحواس.

أرقصُ من الوجد حين أفكرُ في شحوبكِ المكتنز بالحياة، الذي يحوّلُ الحبَّ إلى ملعب للملاك وللشيطان، ويتعتعني الشوق إلى عُريكِ الذي يطرد كلَّ وحوشي، وإلى إيماءاتِ جسدكِ التي، كلما دخلتُ غابتكِ عارياً، مجرَّداً حتى من العري، تأكلني ـ بإشارة منها ـ وحوشي..

أغنية عابرة

لستُ ولداً صالحاً لأيِّ طقس، عدا أن أكون خارج القطيع: أسرقُ حياتي من وقائعَ لم تحدث، وأتشظى مع زجاج نوافذ لم يتحطم بعد. أعرفُ ما لا يُعرفُ، وأكتفي بالإشارة. أفيضُ بحناني في كل اتجاه، دون أن أستأذن السدودَ:

أعيشُ في الخطر وأعرفُ أن مفترقات طرق الأمان تلوذ بمنعطفات خواطري: العالمُ بكل محيطاته يبدو لي، أحياناً، كما لو أنه بللٌ عابرٌ، غير أنّ ما يؤكدني شاعراً هو أن العاصفةَ ريشةٌ ساقطةٌ من جناحي، لكنْ.. رغم هذا، وفوق هذا، فإنَّ ابتسامةً واحدةً تهدم قلاعي، وتطيح بإمبراطوريتي أغنيةٌ عابرةٌ..

قصيدة العطش

كمـن قطـعَ الصحـراءَ، بحثاً عـن الواحـة، ولم يجدْهـا، فقاده العطشُ إلى نبعه الداخلي..

نبعكَ الداخلي

عندمـا عثرتَ على نبعكَ الداخلي، وكان الشـيطانُ على مقربة، والملاكُ يراقبكَ عن كثب.

عندما تخليتَ عن الماضي، وقلتَ: اليومَ خمرٌ، وغدا خمرٌ.

عندما سكرتَ، وخرجتَ من جلدكَ الآدمي.

عندما رميتَ بدنكَ إلى البريّة، وراقبتَ كيف تفرّق بين الوحوش.

عندما تنفستَ الصعداءَ، وقابلتَ المطلقَ شخصيا.

عندما دستَ على عشبة الخلود، فعثرتَ على أقدامكَ الحقيقية.

عندما طلّقتَ العقلَ، واستحمّ الخيالُ بطيف يديكَ.

عندما عرفتَ اللعبةَ، وكشفتَ السرَّ.

عندما طردكَ العالمُ من العالم، فلذتَ بالشِعر غيرَ عابيء بشيء.

أغنية الناي والحمامة

لا تكفي أغنيةٌ كي يتغيّـر العالمُ،
لكنْ أغنيةً ما قد تجعل منه أكثرَ حناناً من العالم الذي تعرفُ.

عنها،
تلك المتواريةُ مثلُ نبضة،
نسيَ هازمُ اللذّات أن يلتقطَها بمنقاره، من جسد الميت،
إبحثْ.

إنها تنتظركَ هناك،
هنا أو هناك،
وما تحتاجه هو أن تنفضَ الغبارَ عن حذائكَ،
أو أن تتقدم حافياً نحو غبارٍ آخرَ،
ليس مهماً من أين جاء،
و لا إلى أين يذهب.. إلى أيةِ صحراء.

كثيراً أرسلتْ إليك دعوات.
كثيراً أرسلتْ مَن يستطلعكَ عن كثب،

حتى وأنتَ تفكرُ بالطوفان، وبمآل السفينة،

حتى وأنتَ تكتبُ الآن،

حتى وأنتَ ترفع رأسكَ عن الورقة:

تحدّقُ، مبهوراً، بالحمامة التي حطّتْ على مقربة،

ثم

غاصتْ جنوباً فيكَ،

فـ " لستُ أرضاً تصلح لابتلاع الطوفان، ولا لرسوٍّ السفينة.

لستُ العطّارَ، ولا الدّهرَ:

أنا الفسادُ"

تريد أن تصرخ بالحمامة، لكنكَ تغيّر رأيكَ، فجأة، عندما ترى إلى الناي الملقى بإهمال، في قعر هوّتكَ الداخلية، طافياً على سطح العالم، معلّقاً، كالغصن الأسطوري، بمنقار الحمامة.

قصيدة الألم

إلى محمد مظلوم

رأيتُ المخلبَ مثلما رأيتُ الفراشة:

أشهدُ بذلك،

وأشهدُ أني ما رأيتُ إلا المخلبَ نابتاً في قلب الفراشة.

رأيتُ النملةَ أيضاً.

رأيتُ النملةَ تمشي بهدوء على راحة اليد.

رأيتُ النملةَ مثلما رأيتُ راحةَ اليد.

ما رأيتُ إلا الاثنينَ.

أشهدُ بذلك،

وأشهدُ أني رأيتُ النملةَ تحفر ثقبها في راحة اليد.

ما رأيتُ إلا ذلك،

إلا ذلك الخفيّ من السرّ،

فعرفتُ كيفَ يصوغُ الشعراءُ،

من خلجاته، قصيدةَ الألم

أغنية الإله الحزين

مثلَ شجرة، في ساعة نهب، تأمرُ أغصانَها بالفرار.

مثلَ سياج اختار أن يهدم نفسَه بنفسِه، قبل أن يدوسه الغزاةُ.

مثل حريق يبحثُ، في الرماد، عن أثر الشرارة التي أشعلته.

مثل دخان يتلوى، بيأس، وهو يشيّد سلّماً صاعداً إلى السماء.

مثل علم مكسور في مدينة منهوبة.

مثل أغنية حزينة تتدفق، بهدوء، من ينابيع مجهولة داخلَ الروح، لتطلق العنانَ للذاكرة، وتفتح البراري للخيول..

مثل تمثال إله سومري، يضعُ رأسه المكسور في حِجره ويمسحُ، بيدين مقطوعتين، دموعه التي تسيلُ بغزارة على خديه..

أسطورة الحب الذي لا وجود له

كان يغنّي، متألِماً، من الحب الذي لا وجودَ له. يتذكرُ وجهَها، تلك الصبيةُ، وهو يطفرُ من أغنية إلى أخرى، أو عندما يسمع باسمِها، أو ما يُشبهه. يطوف حول جدران بيتها المتهدم، مثلَ شاعر جاهليٍّ، ويبكي، غيرَ عابئٍ بالحقائق وبالزمن.

كانت صبيةً وقحةً، من ذلك الزمان المُشمس، تملك قلباً يطير بأجنحة لا مرئية، فنتبعه إلى سماوات لم يرها أحدٌ سوانا، وكانت أمُّها تضحكُ، ساخرةً، عندما تضبطنا نرمي على شباكها الوردَ، أو نحلّق، فوق سطحها، بطائراتنا الورقية.

لم نكن مراهقِين، ولا أتذكر كم كانت أعمارُنا، لكننا لعبنا دورَنا كعشاقٍ بإتقانٍ نادر، وكثيراً ما حدثت بيننا معاركُ طويلةٌ ومشاجرات، بسبب قُبلة كانت تُرسلها بيديها، فنمدُّ أيدينا في الهواء، ويزعمُ كلُّ واحد منا أنه قد قبض عليها، فهي له أصلاً!

لم يترك لنا الزمنُ فرصةَ أن نكبُرَ، لنكتشفَ أن ذلك كان وهماً، إذ ذات ليلة لم يعد والدُها إلى البيتِ، ولحد الآن، فاضطرَّتْ الأمُّ، إلى إنهاء قصة الحب الذي لا وجودَ له، بأن غادرتْ، مع حبيبتنا، إلى جهة مجهولة، فلم نرها بعد ذلك، أبداً.

ترنيمة الطوفان

إلى أنكيدو، صديقي الذي هاجر إلى بلاد الثلوج، كتبتُ يوماً رسالةً:
ربطتـُها إلى جناح حمامة الطوفان، وانتظرتُ.

أنكيدو صاحبي الذي ابتكرتُه من بطون الخيال: رسمتُه جميلاً، على ألواح الطين، فصار معشوق الصبايا على مرّ العصور.

أنكيدو رفيقي الذي أكلتُ معه خبزَ الكبرياء في السجون، الذي قاتلتُ معه شعراءَ الغابات ومهرّجي السلطان، الذي تقاسمتُ معه زادَ الفرح، وبكيتُ على كتفيه، عائدا من الحانات، في الليل.

أنكيـدو زميـلُ الإفلاس والـبرد، الذي كان يغنـي فيروزَ على المصاطب، حـين يجتاحه الحنينُ إلى براءة الـبراري، وعندما يهطل المطـرُ مدراراً يعزفُ بالناي، تحت النوافذ، ترنيمةَ الطوفان، فيعود الموتى جميعاً أحياءً من خرائب المدن السومرية.

أنكيدو..

لكن أنكيدو أكلَ الحمامة: أعاد إليّ ريشـها داخل مظروف، ها أني أنثره على البلدان، والقارّات.

بورتريه الخطر

الخطـرُ في كل مـكان لكـنَّ الأمكنةَ لا تعبـأُ، لأن الخطر لم يكن طرفـاً في وجودهـا، لذلـك كم تمنيـتُ أن أكون مكانـاً لأنجو من ثقل وجـودي في خطر دائم، وقد تحقق لي ذلك مرة عندما صرتُ شجرة باسقة، لكن ما حصل بعد ذلك كان يبعث على القلق حقاً، لأننـي لم أجد لي مكاناً لشـدة الزحام، فالطيور، العشـاق، الريح، وأشـياء أخرى كانت قد نقلتْ ثيابها، عاداتها، مخيلتها، ونواحها، وبنـتْ ملاجئَها بين الأوراق، على الأغصان، وحفرتْ عميقاً، ثم تشعبتْ مع نهايات جذوري، لأن الخطر كان قد اشتد أكثرَ، حتى أنه لم يعد في كل مكان فقط، بل تعدى إلى اللامكانَ، ففي الأحلام خطرٌ، في الحب خطرٌ، في الشِعر خطر، في..

لم يكـن ثمّـة مَخـرجٌ من هذا المـأزق: لا يمكن أن أتـرك عزلتي مجروحـةً عـلى هـذا النحو، كما لا يمكـن أن أطرد ضيـوفي، لأنني إنسـان علاقتـه بالطبيعـة مثالية جـداً، بدليل أن فاكهة ما – تشـبه التفاح تقريبا – بدأت تنمو وتظهر على سطح بَشَرتي، وهو ممّا كان يجذب لسـعات، عضات، وسهاماً غيرَ متوقعة، يزرعها الضيوفُ على جسدي، حتى صرتُ شبيها بالقنفذ.

بعد تأمل عميق وجدتُ من الحكمة أن أقابل الخطرَ شخصياً،

وجهـا لوجـه، من أجل أن نعقد صفقة بيننا، غير أن ذلك كان من دون فائـدة، فقد فات الأوان، إذ لم يعد ثمة خطر حتى في نشرات الأخبار، بل تلاشـى تماماً، وحين بحثتُ عنه في سـجلات الماضي كانـوا يضحكـون مني، ويسـخرون كلـما سـكرتُ، وترنحتُ في الشوارع، في الأسواق، أو في الأزقة، منادياً:

اظهرْ أيها الخطر، أين تواريتَ، أيها الجبان؟

طبعـا كان ذلـك في طَـور الشـجرة، قبل أن أتحـوّل، أنا نفسي، وأصير خَطَـراً.

كمشة فراشات

إلى قاسم فنجان

طوّقنا الأزهارَ بالحديقة، ربطنا الحديقةَ إلى البيتِ، ثم ربطنا البيتَ إلى الأرض جيداً.

احتياطاً: من أجل أن تغوصَ جدرانُه عميقاً حتى جذور العناصر، استخدمنا مطرقةً عملاقةً. رسمنا في الممرات، كما فعل أسلافُنا البدائيون في الكهوف، ديناصوراتٍ لها شكلُ المدافع، وخنازيرَ تمتطي صهوة الطائرات، ومن أجل أن ندفع الشرَّ ملأنا الفوانيسَ بالبخور، وفرشنا التعاويذَ والأدعيةَ على أجفان المداخل. أثناء ذلك، من ذاكرتنا الشاسعة الحروب، استعرنا مجارفَ ومعاولَ: حفرنا خنادقَ من الدمع، وشيّدنا سياجاً من الخوف، يمنع الغزاة من الوصول.

قيل لنا: اقفلوا الأبواب بإحكام، لئلا يتسرّبَ الظلامُ، فهو دليلُهم، فبعثنا بمن يشتري مساميرَ لتثبيت النور على الحيطان، لكنه لم يجد غيرَ صور الغزاة أنفسهم، فأشعلنا فيها النارَ، لأن الشتاء كان يتجول في الغرف، مما يجعل الأثاث يرتجف من شدة البرد، ذلك مما أجبر الكراسي، الأغطيةَ، الملابسَ، وأسرَّةَ النوم، على تغيير أماكنها لتتجول، هي الأخرى، من غرفة إلى غرفة، حتى فقد البيتُ مغزاه، فانفجر غاضباً:

- " لماذا تعبثون ببدني؟

انقلوا حربكم إلى مكان آخر، ودعوني أعيش في بيتي الخاص.. "

كنا قد ربطنا السقوفَ بسلاسلَ طويلةٍ تنتهي بالسماء، أما النوافذُ فقد اغلقناها تماماً، عدا بعض الثقوب الصغيرة، لئلا نختنقَ بالحسرات.

كانت ليلةً من العمر، تسمّرنا في نهايتها إلى التلفاز، وصافحنا المذيعَ شاكرين، فكلُّ شيء على ما يرام - كما قال - ولم يعد ثمة غزاة، لكننا كنا متعبين جداً، فلم نفتح النوافذ لنتأكد من الجيران: لم نرفع السياجَ، لم نوقفِ الدمعَ، لم نتناوب على الحراسة، ونمنا بهدوء، واثقين من أنَّ الأحلامَ ستجد رؤوسَنا في مكانها، فنرى في المنام، بدلاً عن الأشباح، سرباً من العصافير، أو نسمع هديلاً ناصع البياض، كقلب الحمام، لأننا لم نخذل الجمال، رغم الرعب، فقد طوّقنا الأزهار بالحديقة، وربطنا الحديقة إلى البيت.

في الصباح، عندما استيقظنا، لم تكن ثمة أزهار أو حديقة، ولا أثر للبيت: وجدنا أنفسنا ممددين في العراء، ومن حولنا ترفرف كمشةُ فراشاتٍ: تدخل بيضاءَ من ثقوب في أجسادنا، ثم تخرج حمراء، من ثقوب أخرى.

ثقب ما في بدلة الزمان

أشياء كثيرةٌ سقطتْ، بفِعل القصف، مِن على الجدار: نساءٌ عارياتٌ مثلاً، تمزقتْ صورُهنَّ، فاستيقظ النملُ: تحرّكتْ فرقةٌ منه لتنقلَ الأعضاءَ المتناثرة، مع الغبار، على بلاط الغرفة، قطعةً بعد قطعة:

خصلة شَعر محمولةٌ كما جنازة على الأكتاف، ساقٌ بيضاء تهتز، أجفان ترفُّ كموكب أعشاب، وهناك..

هناك سرّة

تسقط من فم نملة - ربما لفرط جمالها -

لتسرع نملةٌ أخرى، وترفعها..

لكنَّ قنبلةً أخرى تنفجر، فجأة، لتسقطَ ساعةُ الجدار، هذه المرة، وتتهشم، فيتحرك قسمٌ من النمل وينهمك بنقل الوقت، دقيقة بعد دقيقة، إلى قريته، التي شيّدها في نفق ما من أنفاق الكون، ثم يتوقف كلُّ شيء، لأن هناك حلمةَ ثديٍ مهملةً، على الأرض، يحرّكها عصفُ انفجار شامل، فتغلقُ على قرية النمل بابَها، لتنتهي هذه الأغنيةُ، التي ستسقط ذات يوم وتتهشم، ليأتي النملُ وينقلَها، إلى قريته الجديدة في ثقب ما من بدلة الزمان.

موجة الكتابة

صعدتْ في عروقي موجة حارة حالَـما رأيتكِ. استيقظ النداءُ الذي يسـبق العـومَ فوق موجة الزمن، وتهيـأتُ لأن أنكسرَ، مثلَ ساقِ سنبلةٍ، أمام إعصار جمالِكِ، الذي هبّ من كل مكان.

لم أصـل فقـد تحطمـتُ، وحصل ما يحصـل عـادة، إذ تحركتْ البيـادقُ فـوق رقعـة الشـطرنج، واشـتعلت الحـربُ، فلـم أركِ بعـد ذلـك، وها أني أكتبـكِ، وكما في كل مرة أكتشـفُ أنني أكتبُ عـن امـرأة أخـرى، لا علاقـة لها بـكِ، فأمزق مـا كتبـتُ، محاولاً الإخـلاصَ لهـذا الإحسـاس الغريـب، في أنـكِ ظهـرتِ لي، لي وحـدي، لأنجوَ من التفكـير في حياة مكتظة بالعطـش، بالغياب والموت، وبالمفخخات..

مدينة عراقية تحت المطر

مغسولاً بالريح وبالبَلل، أغطي رأسي بصحيفة يحرّرها شعراءٌ يكتبون " قصائدَ " رديئةً باسم النثر.

يسيلُ حِبرُ المطبعة على شَعري ثم يسقطُ، مكوّنا بقعا كبيرة سوداء، تسبحُ نحوها الكلماتُ أفواجاً، مثل قواربِ إنقاذ مثقوبة في بحر هائج.

رعدٌ خاطفٌ يقرعُ، فجأة، طبلَ الكون، فتتردّدُ استغاثات قتلى مختلطةً بثغاء حملان خائفة، و بحشرجات مجاميع شعرية طافية فوق المياه.

متى تنتهي حفلات تحضير الأرواح، فالشِعر لم يمتْ، ولن يموتَ، وإلا لماذا يهطلُ المطرُ؟!

متى يتلطّفُ الشاعرُ بهذا الرنين البعيد؟ بصمت الكهوف؟ بالموسيقى الخالية من أية نغمة، تعزفها الروحُ، إذ تنصتُ إلى حركاتها، ساعةَ تلقي الغيومُ العابرةُ تحيَّتَها، على الحقول، بهيئة برق؟

أشعلُ سيجارتي بصعوبة، فيختلط الدخان بالرذاذ المتساقط من حنفية السماء، إلى صحن هذه المدينة المكتظة بالفقر، بالموت وبالجمال.

إنني أفكرُ في كتابة شيء عن هذا الذي لا أفهمه إلا بطريقة

غامضـة، وما من سـبيل سـوى الانسـياب مـع زمن المطر في سـاعة نفـسي، فلسـتُ من طـين أو من تـراب، رغـم أنني عريـق الأصول بالمـاء: ليس الدم هو ما يجـري في عروقي، إنما هي دموع إله معجونة بخواطر من كرسـتال: هذا مـا يجعلني أتخيلُ الطوفـان والعالم طافيا فوقـه: أنظـرُ إلى العالم يتفتـتُ، ذرة بعد ذرة، في العاصفة، ثم أرسـمُ العاصفة بتجلياتها الألف:

أور التي أكلها الغبارُ.

بابل التي هدمتْ نفسها بنفسها.

آشور وهي تبتلعُ الحجارة،

و كيف أنّ جسـورا من الكتب قـد بُنيتْ ليمشي التأريخ، بحذائه العسكري، فوق مياه دجلة.

أنفضُ بقايا حِبر المطبعة عن شَـعري، وأمشي: أتأملُ، وأنا أجتازُ دوريةً مسـلحة، كيف أن سـنابلَ ذهبيةً نبتتْ في لحيتـي، يومَ نشرتْ المجاعـةُ ثيابهـا على حبل غسـيل الجفـاف، وكيف أن ينابيـعَ صافيةً انبجسـتْ، ذات صيف، من شـقوق عطشي، لكن.. صوت انفجار هائـل يصلُ مسرعا من مكان ما، يخترقني مثل نصل، ثم يختفي مثلما جاء، فألوي عائدا إلى البيت..

آه، يبدو لي أن هذه البلادَ مثلُ جبل المغناطيس، في كتاب ألف ليلة وليلة: رماحُ البرابرة، وحدها، تعرفُ كيف تجد الطريق إلى قلبها.

دروب الخذلان

أتساقطُ من الشرفات كمياهِ الأمطار، أو أتصاعدُ، كالبخار، من إبريق الشـاي، وبعد عـدة دورات في الطبيعة سـأتحوّلُ إلى نطفةٍ في رحم، لأولدَ ثانية في تلك السـاعة التي تُضرُم فيها النارُ، في بغداد، فيختلـط الحِبر والدمُ بميـاه دجلة، ثم يبدأ الفيضـانُ: الطوفان، أو الدمـوع، حيث لا سـفينة نجـاة إلا قشّـة الصدفة، التي يمـدّ إليها النـاسُ أيديهـم، طلبـا للنجـاة، دون جـدوى، لكـن ـ في الأخير ـ لابـد أن يجدَني أحدُهم نائما عند بابـه في آخر الزقاق، أو ضائعا بين الخرائب، فيعتقدني المخلِّصَ، الذي جاء ذكرُه في الأساطير.

في المقطع الحالي من دورة حياتي، تجدني امرأةٌ طافيا على سـطح الماء، كما لو كنتُ سـمكة ميتة، فتعتقد أننـي هبطتُ ملفوفا بريش الرحمـة، لكـن الأوغـادَ نتفـوه، فتحملنـي بـين ذراعيهـا وتمشي، لاعنـةً هذا العـالمَ الذي جفّ الحنانُ في قلبه، تحـت بروق المدافع، وتأوهات المطر.

في الطريق إلى بيتها نصادفُ مسلحين يرتدون لحى تطأ الأرض: يفتشـون مـا بين ثدييهـا، يفحصـون حلمتيهـا بأظافرهـم، يبقرون بطنها، يحفرون رأسـها بمثاقبَ من حديد، وأخيرا يقذفون شباكهم لصيد الأسماك بين ساقيها، وأنا بين ذراعيها أمصُّ أصابعي العشرةَ،

ثم يسمحون لها بالمرور، بعد أن يدققوا بوجهي، ويقارنوه بألبومات كثيرة من الصور: " ليس المخلِّصَ، دعوها تمر " وهم جالسون على علب صفيح طافية، فوق بحر من الجثث.

لا أعرف لِمَ يبدون وكأنهم أشباحٌ ينحدرون من قعر الجحيم، فهم لا يشبهون أولئك الذين كانوا يسكنون، من قبل، في هذا الزقاق، الذي قطعته الآف المرات عبر التاريخ، ربما لغموض مهمّتهم، فهم يطلقون النارَ على بعضهم البعضَ، حتى وهم نيّام.

تبكي المرأة على مصيري الغامض، وتتمنى لو اتخذتني ابناً، بدلا عن أولادها، الذين فقدتهم في المجازر، الحروب، المفخخات والفيضانات، لكن لأن الحياة لا تطاق في هذه اللحظة، لأن المجاعات، لأن البطالة، لأن النفط، لأن الدولار.. تصعد بي إلى شرفة خيالها الفاتن، منادية:

- " يا الله، أرفقْ بهذا الطفل البريء ".

ترميني بكل قوتها إلى فوق، وهي تقفل عينيها بتضرّع وعرفان، مؤمنةً بأنني سأصعد إلى السماء بحبل المعجزة، أو على الأقل كالبخار من إبريق الشاي، فيما أنا ـ في طريقي إلى الأعلى أو إلى الأسفل ـ أواصل مصّ أصابعي العشرة، مغمَضَ العينين:

لقد حفظتُ دروب الخذلان عن ظهر قلب، ولم يعد بإمكاني أن أكون المخلّصَ، ولا الباحثَ عن الخلاص.

التمثال

بورتريه الطاغية

وصـل الغربـاءُ، مثـلَ موجة جـراد محمولة بهواجـس القمح، ونقلوا عاداتهم، تماثيلهم ودياناتهم، ثم تفرَقوا في البلدة. لم أحزنْ، وبقيتُ رابطَ الجأش، أنظرُ إليهم، وهم يشعلون النار في الأسواق والبيـوت، لكن دموعي سـالت بغـزارة، فجأة، حـين رأيتهم قد تجـرأوا، وطـردوا تمثالي الكبير إلى خارج المعبد، فسـحله الشـعبُ بالحبال، شـعب سـومر: شـعبي سـحل تمثالي بالحبـال، وطاف به الأولادُ في الشوارع، بين الهتافات والصفير..

لأنني إله حقيقي، إله رحيم ومُنتخَب، لن أعاقبهم بالطوفان، بالحصـار أو بالأمـراض، ولأنهـم اكتسـبوا مناعـة ضـد كراماتي وخرافـاتي: سـأكتفي مؤقتـا بهـذا الخـروج المُـذل مـن حياتهـم، وأتـوارى في الأزقة، بحثـا عن أجزاء تمثالي، هنـا وهناك، وعندما أجمعه سـأقدم له القرابين والأضحية، عسـى أن ينجز انتقامي من ناكري الجميل أولئك.

سـأحجُّ إليـه كثـيرا، وفي كل مرة سـأتفقده، أدورُ مـن حوله، مـرددا التعاويذ والأدعية: سـأعطّر ثيابه، أرشُّ البخور، وأشـعلُ الشـموع، ثم أتسلقُ هامته العالية، وصولا إلى رأسه شبه المحطم، بغية أن أنظفَ شَعره، الذي طال، من القمل..

هنا نهاية العالم

شمعة

بإمكانها أن تسلخَ جِلد الليل، لو اشتعلتْ.

هذا ما جئتَ من أجله،

ما دفعتَ، من أجله، اجرة السفر،

ما تكبدّتَ، من أجله، عناء رشوة العشرات في الطريق، حتى وصلتَ:

لا أحد معكَ، في القعر، إلا شمعةٌ دسّها السجانُ في يدكَ، وأنتَ تنزل.

زهدتَ بالعالم،

حفظتَ الخرائط عن ظهر قلب،

قرأتَ كل الكتب الصحيحة، و ما أفلحتَ.

لا أحد، قبلكَ، نالَ من الأفعى غيرُ جلدها،

أمّا الخلود، أمّا الطوفان، أمّا..

فتلكَ حكاية أخرى

لا يمكنك أن تقطف زهرتها حتى لو أبحرتَ، صوب أتونا بشتم، على باخرة من كتب.

تحت أقدامكَ، دون أن تشـعر، هياكلٌ عظمية تتكسر، لم يزرها أحد منذ عصور غابرة.

وعلى رأسكِ، من السقف، تنشر الأزمنة غبار ريشها البارد.

ما من خطوة أبعد،

وما ادخرتَ من المشي لن يؤسسَ مسافةً إضافيةً، فهذا هو الحدُّ:

هنا ينتهي العالم.

ما من أجنحة، ولا شمع:

لا إيكاروس، ولا عباس بن فرناس.

الزمن يدور حول نفسه، قبل أن يوجد الزمن.

لن تطير.

لن يطير أحد.

تلك النافذة التي يقترحها الخيالُ مجرد أمنية:

أمامكَ، ومن خلفكَ، الظلامُ

وهنـاك عـازفُ المصائـر الأعمـى، يلـوّح بمنجلـه بحثـاً عن السنبلة،

فيما أنتَ عارٍ تماماً، لا شيء معكَ أو ضدكَ إلا شمعة:

شمعةٌ لو اشتعلتْ،

لو..

الغابة السوداء!

إلى نصير غدير

أنا لا أخلو من الأشجار، من الورد، ولا من الفاكهة:

أستقبل العاصفةَ كضيفٍ أنفضُ أمامَه أغصاني، التي تحطمت بفضل رعونته، وأترنحُ ثملاً بخصوبة نفسي، عندما يستغلُ أسراري عاشقان يفتحان شهية العراء، وهما يعرضان بضاعة جسدين غائبين في النشوة.

لا أخلو من العشب أيضاً، ولا من العصافير،

وكثيراً ما شقّقتني، كأرض ضربها زلزالٌ، هجراتُ الطيور،

كثيرا ما مزقني نواحُ بلبل في قفص.

وكثيرا ما جمعتني الريحُ!

أعيش مأهولاً بسكارى يسلبون وقارَ الصحو، بشعراء يكتبون قصائدَهم بدم القلب، بعاشقات خائبات يدخنَّ سجائر رديئة، بغرقى يجرجرون الزمنَ من ياقته إلى القعر، وبيائسين يفكرون في الطيران فوق الموت.

هناك ذئاب تعوي في مسقط رأس ألمي:

كلاب تنبحُ، كلاب كثيرة تدخلُ وتخرج على هواها.

وهناك فراشة زرقاء تطفرُ من فمي حالما أصرخ.

هناك صبية عارية من شـدة اليأس، لا تسكرُ إلا معي، وعندما تصعـد النشـوة، في رأسـها، ترمي نفسـها إلى الـكأس وتكسرني، لكننـي حالَـما أصرخ تكشـفُ عـن صدرهـا المثقـوب بأعقاب السجائر، وتغازلني من خلف جميع النوافذ.

ثمـة وحـوش يغريها السـكنُ بالقـرب، لكنها سرعـانَ ما تفرّ نتيجة البرق:

بـروق كثيرة تضرب هامتي، فلا يكشـف حطامي إلا عن قصائدَ تعج بصيادين يرسـلون شـباكهم إلى البحر فلا تعـود إلا بجنود قتلى، بعشّاق خاسرين في الحب وفي السياسة، وبامرأة تمشي وبيدها فانوس.

في الفانوس شعلة، وفي الشعلة امرأة تمشي وبيدها فانوس..

هناك موسـيقى تتشـمسُ في فضاء خواطـري، وهناك ترانيم تنبثق من هاجس ما لتملأ فراغات مخيلتي، عندما يقنط الشـعرُ، فلا يعطف عليّ بغيمة أو بشمس، لكنني لستُ حديقة أو بستاناً:

هذا ما يؤرق فؤوسـاً كثيرةً، وهو ما يدفع الحطّابين إلى وصفي بالغابة السوداء!

الذين

الذين محوتَهم، ثم عدتَ فكتبتهم، ثم استويتَ غاضباً فمزقتَ ما كتبتَ، ثم بكيتَ فنادمتهم، ثم ندمتَ فأغلقتَ بابكَ دونهم..

والذين مهما حاولتَ أن تحلّق بعيداً كانوا سماءك!

درجة حرارة اليأس

أشتاقُ إليكِ، يمرّغني الحنينُ بأطيانه ودموعه، فأتفتتُ في هواء الغياب السام، بحثاً عنكِ، أنتِ الهاربةُ لئلا ألمحَكِ، ولو بشكل عابر، حتى إنكِ قطعتِ صلتكِ بالأغاني التي كنا نحبُّها: اخترتِ القطيعةَ، كي يغلقَ قلبُكِ بابَه عن كل شيء له صِلةٌ بي، ولم أنتبه إلى الأقسى من ذلكِ عندما غيّرتِ اسمَكِ، رفاقَكِ، وهجرتِ الزقاقَ، الذي كان يقود خواطري إلى ملعب عواطفكِ.

كنت ألوذُ بكِ عندما أفشلُ في أن أكون ولداً عاقلاً مع آلامي، أو عندما، في الليل، أرى إلى رأسي مطروحاً فوق علامة استفهام كبيرة، أو عندما تأمرينني، من خلفِ ظهرِ نُوح، أن لا أصعدَ في السفينة..

كثيرا كنتُ ألجأُ إلى صوتكِ، ألوذُ بكِ عندما أَسمعُكِ تغنين عن الحنين، وعن الحب الخائب والاشتياق، فيرتفع منسوبُ المياه في صحاري عطشي، وتنخفض درجة حرارة اليأس في قلب العالم.

أشتاقكِ أيتها اللعينةُ، أيتها المحبوبةُ، أيتها البريئة، أيتها الخائنة، لأنَّ لا امرأة تشطفُ حطامي بفتنة الحب، وبالسخرية من النظام، كما أنتِ.

علبة الصفيح

أمامي، قبل قرون أطول من خيط شمعة، رفع الجنديُ المنتصرُ كأسَ نشـوته عاليـاً، وهو يجلس على علبة الصفيـح، مترنّماً بأغنية فارسيةٍ مكتظةٍ بالرّمل.

طـوال صوتـه، المصـاب بعـدوى اللهيـب، وحمى الأسـلاك، رأيـتُ أني لم أكـن طرفـاً في هذا الخيـط الذي يروم إشـعالَه بعود ثقاب، لكنني سـأكون، بعد انطفائه، ذرةً من الرّماد، وسأتلوى في أحشاء الريح، بين المنافي، حتى يضيع دمي بين المشاعل والحرائق.

أمامـي الآن، بعـد قرون اقصر من خيط شـمعة: جنـديٌ آخرٌ يرفع كأس نشوته عالياً، وهو يترنم بأغنية أميركية مكتظة بالنفط: لم أره من قبل، إلا أنني لكثرة ما جلس إمامي، على علبة الصفيح، مـن فاتحين،أحـدسُ مـا سـيفعله: سـيقوم منتصبـاً، ويحـلّ أزرار بنطاله، ليبول على أجسـادنا، في الخندق، أمامه، ثم يرحل، فجأة، تاركاً على علبة الصفيح، كأسه المليئة حدّ النصف.

كما أنني أعرف طويَّةَ المخذولِ، وأحفظ، عن ظهر قلب، شكلَ الزلـزال الـذي ضرب حـجر سريرته: سـينظر إلى الـكأس مليّاً، ومـن ثم يزحف نحو نصفَها الفارغ، لكنه ما أن يمدّ يده ليشرب، حتى يصبح طرفاً من هذا الخيط، الذي سيشـتعل ويشـتعل، كلما خطرتْ في خياله النارُ..

أغنية نفسي

عندما أوشكتُ أن أطير من اليأس.

عندما فتحتُ حنفية الماء، وتجمعتْ كلُّ دموع الخائبين في راحتيّ.

عندما رنَّ الغيابُ من جهاتي الأربع.

عندما صوّبتُ حناني إلى قلب المرآة، وكسرتُ الرجلَ الذي كان يتفرّسُ بي.

عندما تنفستُ كلَّ المعرفة، وزفرتُ جميعَ الأحلام والكتب.

عندما لوّحتُ للمسافرين على القوارب المرسومة على قميصي.

عندما عثرتُ على نسختي الأصلية من القلق، وتلوّيتُ تحتَ مصابيح الأزقة.

عندما أوقفتُ الزمن، وبصقتُ بوجه الصباح.

عندما افترستُ الضوء، تمرغتُ بالجحيم، وتشّبعتُ بالحدس.

عندما انتزعتُ ولادتي الثانية من رحم الجمرة.

عندما راقصتُ الملاكَ، وشربتُ معه الخمر على طاولة الشيطان.

عندما أيقنتُ أنني لعبتُ بنظافة.

عندما قررتُ أن لا أقرر شيئاً، سوى أن أشطفَ طعنة لا أعرف مصدرها.

عندما صرختُ: لماذا؟!، ثم انكشفتُ كساحة معركة.

عندما تسللتْ أغنية ما، وشملتني بحنانها، وأسكرني اللحنُ.

عندما فتحتُ الذراعين، وعانقتُ أطلاقة الرحمة.

عندما رأيتُ الخذلانَ من النافذة.

عندما قابلته شخصيا.

عندما فتحتُ البابَ، وخرجتُ بصحبة الغرفة.

عندما تركتُ الضيوف يجادلون آلامي في العراء.

عندما شعرتُ أن الضحية تراقص جلادها.

عندما رميتُ إليها المفتاحَ، ولبثتْ جالسةً في القفل.

عندما خسرتُ بجدارةٍ.

عندما وضعتُ يديَّ في جيوبي.

عندما مشيتُ ببطء، ثم أسرعتُ قليلا.

عندما دخلتُ الجموع، وتواريتُ وسط الزحام،

عندما تلاشيتُ كالدخان، في موكب العالم..

أغنية الذئب الجريح

" حالما يهدأ الإعصارُ في نفسك، يبدأ الموتُ.. "

كفافي

من ثغراتٍ، أعرفُها فيكَ، أتعرّفُ، الآن، على شكل ألمي، الذي عاد إليه التوهجُ، ودوزنته العافيةُ بأجراسها. لم أنتظر إلا هذا الحافزَ، من أجل الطيران بعيدا عمّا اعتقدتَه فرحاً أو حباً، كأنني انتظرتُ أن أمسكَ بلحظتي هذه، لأزهدَ بالمعنى وبالمبنى، وأتركها لكَ، فهناك مصاطبُ خائرةُ القوى تحتاج أن تدثّرها بسُخام قلبكَ.

هكذا يعودُ الداءُ إلى وكره، بعدما تبيّن أنه لم يُصَبْ بمواعظ الشفاء.

تركتُكَ تنسجُ من صوف الضغينةِ وردةً هزيلةً، وتجدلُ سلةَ نصركَ من الغبار:

هل وقعتْ قطرةٌ من الدمع كالتيزاب، فأيقظتكَ؟

ولماذا أنتَ هنا، في هذه الأغنية؟!

مهما كانت كثافةُ الظلامِ في بدن الفتنة: يبقى النورُ يرتلُ نفسه، يتراقصُ سكرانَ، يتلوى جذلاً، مع نحافة الخيطِ في شمعة البراءة.

لستُ أحدا من هذه القبيلة:

إنني شـاعرٌ لا يقدّم نفسه إلى القطيع إلا كذئبٍ جريح، كذئبٍ ناصع الألم، كذئبٍ فتّـشَ عن جرحه طويلا ولم يجده: ما من جرح على سـطح جسـدي، لكنني أعرفُ شـكلَ مَن تقمّصَ شكلي، ولم يلعـب الدورَ إلا كقرصـان يغتصبُ الإشـفاقَ، عنـوةً، من مرايا ضحاياه.

أعوي لأنه الحزنُ وقد عاد أنيقاً، كترانيم الأمهات في الطفولة، كما أنني لا أعرفُ لغةً أخرى، أما أنتم فلستم مجبرين على الإصغاء، سوى أن المريبَ يكاد أن يقول: خذوني.

انظروا..

هـو، في الجـوار، ينتظرُ مَن يقتلع شـجرة وساوسـه، لينام ليلة واحدة:

ـ " ليلة واحدة يا إلهي، ليلة واحدة، كالآخرين "

يـصرخُ بـلا توقف، وهـو يـضربُ رأسـه بحائط يديـه، لكن الوساوسَ لها رأيٌ آخرُ.

أتطلعُ إليه من مَسَام ثقتي: أنا الشكُّ،

غير أني شاعرٌ لا يكتفي بهذا، فعندما تكون اللغة برّيةً مفتوحةً أقفزُ، كالذئب، لأجتاز ما كتبتُ:

أتطلعُ إليه من مَسام السكوت: أنا الصرخةُ.

أنظرُ إليه من خلال الظلام: أنا العمى.

أشمّه من بين القطيع: أنا الرائحةُ.

أحيطه من كل جانب: أنا الصحو.

وفوق ذلك أشعلتُ ورقتي كي يراني عاريا، و كي لا يفهم من أغنيتي شيئا.

أما أنتم..

فقد أشعلتُ ورقتي لأنني لا أملكُ سواها، ولأن السفرَ استصلاحٌ لأرضٍ هائمة: لا عِلم إلا في الباطن، لا شِعر إلا في ممتلكات متأهبة للفقدان، لكن لا هزيمة إلا لمن جفَّ الإعصارُ في قلبه..

ثم إنني، من أجل النار، لا أريد أن أخسرَ أكثر من هذا: إنني أعرفُ ما جرى، ولا أنطقُ به.

ليس لديَّ ما أعرفه لأن لديَّ ما أعرفه،

ليس لديّ ما أقوله لأن لديَّ ما أقوله، ما الفرق؟

الإخفاقُ بزهوٍ

هو

كالوصول بزهوٍ.

كلاهما

يربط الأرقَ إلى السرير.

كلاهما

يربط روحَ الطائر إلى الأعالي.

كما أنني أعرفُ ماذا بعد هذا، لأن ماذا بعد هذا هو ماذا بعد هذا.

هناك صمتٌ يمشي بأصحابه.

هناك صخبٌ يعرفُ أولئك الذين يُربكون عزلتَه،

وعندما الفمُ مجرّدُ قفلٍ، هناك الأغنيةُ تغني نفسها: في داخلها ذئبٌ جريحٌ لا ينافقُ، هائمٌ في برّية لغةٍ مفتوحة، حيث العالم في مهد ولادته يفركُ عينيه لأول مرة: لا ربطة عنق، لا عطر، ولا يستخدمُ الله أو معجون الأسنان لتلميع أنيابه..

ألف منفى ومنفى

(١)

لا يوجد ليلٌ بدون برابرة.

هناك برابرة بدون ليل، لكن.. لا ليل بدون برابرة:

ليليْ أو ليلُـكِ.

(٢)

أتطلعُ من النافـذةِ التي افتـّض البرابرةُ، في ظلامِهـا، براءتي البكـرَ، يومَ كنتُ عاريا، إلا من الفانوس الوحيد المضيء: قلبكِ، الذَي سـكنتُه كالشـعلةِ، لكنهم اقتحموه فجـأة، ونـثروني قطعةً، عـبر العـالم: من تلك السـاعة التي لم تنتـهِ بعد، وأنا أكتبُ الشِـعرَ لأجمعني، وما من فائدة، فقد كان هناك فيّ ما يسـمّونه الكائنَ، إلا أنَّـه طار من القفص، فأصبحتُ، في الخـارج، أجمع غبارَ أجنحته، حسرة بعد حسرة.

مـن تلك اللحظة خسرتُ كينونتي، فلم أعـد أحدا.

صـار مـن الصعب جـدا أن أجـد لفظـاً يناسـبني، لأنني تخطّيـتُ حـتى مـرحلة أن أكـون شـبحا.هكذا صار ما يُـثبت وجـودي هـو السُـخام وحـده، يرشـّه الـبرابـرةُ، عـلـى حيـطـان حياتي.

هـذا، وحـده، مـا يؤكدني، وهو مَـن يثبتُ أنَّي قد عشـتُ على هـذا الكوكب، في هـذه الغـرفة التـي أتطلعُ من نافذتها، ماسـكا بقضبانها، أهزّها، كمَـن يريد أن ينتزع أصابعَ امرأة مـن يديها.

(٣)

أحيانا، تهربُ النافـذة، سـراً، في الليل، عندمـا يقـفـل البرابرةُ أجفانَهم، لتأتيني بالقمر المـرسـوم على قميص السـماء، مـن أجل أن أكرّرَ عليـه الكذبةَ الوحيدة، الكذبة المشرقة: " لم أخلُصْ، فـي حياتي كلها، إلا للشِعر، ومع ذلك لم أكتبه كما ينبغي "

غـير أني كلـمّا تطـلّعـتُ مــن خلف القضبـان، رأيـتُ القمرَ أخضرَ.

كلـما تطلعتُ إلى القمر رأيتُ القـيودَ، التي حـول معصميّ، باردةَ القلب وقاسـيةً، مثلَ سلاسل الجـبال التي عـبرتـُها، عبر أنفاق دخـان التـرياق الأزرق، مع مهرّبٍ رسمَ خارطةَ الطريق عـلى ظهره، وأنـا خلفه، أحـاولُ فـكَّ طلاسـمِه الغـريبة، فقد كانـت الجبـالُ متحركةً، حسـب رأيـه، كما أنّ الأرض ليـسـت كرويـة، حتـى أنه لمّا قرّر، في لحظة نشـوة، أن ينتحرَ على طريقـة البغال ـ ضامّـا حوافره إلى بعـضها، ملقيا بنـفسـه إلى الـوديـان ـ كـان عـليّ أن أسـتعـيـدَ الخارطـة بذاكـرة مكـتظـة بغبـار الحشيشة، وبالآثار المتروكة من سـكـرٍ طـويـل مع الحروب، في

حاناتٍ لا تطلب منكَ ثمناً سوى أن تموتَ أكثرَ من مرةٍ، وأن تمرَّ مترنحا، كالذبيحة، بين موائدها: أن تشربَ، أن تسكرَ، أن تنسى، أن...

(٤)

هكذا تحوّل المستقبلُ، أمام عينيَّ، إلى ماضٍ نسيتهُ، ولم أعد أتذكر منه سوى كتلة من الألم، أحملها على ظهري، مواصلا الرحلة على بصيص من الأمل يشرقُ، أحيانا، عندما أُردّدُ اسمكِ أيتها الحرية:

اسمُكِ الأعظمُ الوحيدُ الذي أعرفه، من بين ألاف الأسماء، التي يعرفها عنكِ آخرون أكلَ أحشاءهم البرابرةُ: ماتوا وهم يردّدونكِ هناك، في ظلام الأقبية، أو في حفلات الشواء، في الغابات، حيث يتم التهام أجسادهم تحت ضوء القمر:

هذا القمر الذي أنظرُ إليه عبر النافذة، متذكرا كل شيء، حتى تلك القصص الساقطة من كتاب ألف منفى ومنفى، الذي لم يكتبه أحدٌ، إلا أنني قرأته كثيرا، دون أن أتصفحه مرة.

(٥)

هكذا اجتزتُ المحنةَ.

مشيتُ على خطوط الحظ، الذي فارقني، دون تلويحةٍ، متّبعا خطةً لا أعرف مَن رسمها في ذهني المشوّش، لأن ذلك كان قد حدث قبل أن يبتكر الإنسانُ الكتابةَ.

حـصـل ذلك وأنـا غـارقٌ في مياه النسـيان، أتنقـلُ عبر أنابيبها، وأتسـاقطُ مـن فوّهـات الحنفيـات، قطرة بعـد أخرى، فـي عـلب صفيح، ينقـلها آخرون على ظهورهم، ربـما لرشِّ الدمعِ على جدران حياتهم، أو لشـطف الحزن، غير أنهم لا يصلون بها إلا وقد أضحتْ فارغـةً، لأنهـا كانـت مثـقوبـة عمـدا، فلا أصـل أخـيرا إلا إلى هذه الزنزانـة الكبـيرة التي يقـولون: إنهـا الحياة، ملتقيـا بأصحاب ماتوا قبـل ألاف السـنوات، ثم قـرروا العـودة، عندما سـمعوا أنَّ جنةً ما في طريقهـا إلى التجلي فـي بلاد السَـواد، حيث الفراتُ، مثلما دجلةُ، كان قـد كفّ عن الفيضـان، رحمةً بنا من قلبه النبيل، فقد نسيَ الناسُ السباحةَ، كمـا أنَّ القيعان لم تعد تستوعب أي غريق إضافي.

(٦)

هنـاك تذكـرتُ أحلـكَ سـاعاتي، فثمـة مَـن سُـجنتُ معه في الوحشـة تطوّعَ، في لحظةٍ ظلّتْ ملتبسـةً عـليه، ليتكلمَ عني أمام محكمـةٍ لم تـُعقـد بعـد، مـعترفـاً أمام البرابـرة: أننـي ذات صدق سـقطتُ من هول نحـولِ الروح فـوقعـتُ في غرام الـدهشـة، في زمنٍ لا تأخذ فيه الدهشـةُ زينتَها المذهلـةَ، إلا إذا كانت مصحوبةً بهيامِ مراهقٍ، صار عمري عليه كبيراً.

آه،

لـم يعـرف حتى الحبُّ أنَّ هيامي لم يعـد صالحا لشيء، سـوى أن يكـون هيـاما مجردا، أحتفـظُ به لنفسي لأعرف نفـسي، منذ أن مات المهرّبُ على طريقـة البغـال.

لم يعرف أحد أنه لـم يعـد لأيِّ شـجرةٍ مكانٌ في حديقتي، إلا لهـذا القمر الذي ترسـمه القضبانُ بفـرشـاتها عــبر نافـذتي، وأنا أُغني أغنيةً وصلتني، عبر الماضي، عن الحرية، أُردّد اسمَها الوحيدَ الأعظمَ، من بين ألاف الأسماء التي يعرفها الآخرون.

(٧)

ربما، نتيجـةَ ذلك، عشتُ طويلا، أهتفُ مع هـذا ضد ذاك، أو أهـتفُ مع ذاك ضد هذا، شـاعراً بالذنب من كل جرائمي التي لم أرتكبها.

أبكـي كلَّ يـوم لأن الله خلقني على شـاكلته، وتركني وحـيدا أعيشُ مع مَن هـم ليسوا على شاكلتي: مُجبَرا على أن أقبلَ بالعقوبة وبالتاريخ، الذي وصـل مكتوبا على جلود ضحايا لم ينتحروا، كما المهرّب، في وديان كان البرابرة يحفرونها برمشة من خناجرهم.

(٨)

ربـما، من أجل ذلـك، خرّبتُ حيـاةَ المرأة التي آوتنـي، عندما أعـدتُ كتابة مذكـرات العـالم على حـلمتيها، دمعـة بعد أخرى، حتى صاحتْ بي ذات ليلة:

ـ "لقد امتلأتْ براكيني بأحزانكَ، ولابدّ لي أن أفيض، كما أنني انطفأتُ، فلم أعد مـانعة الصواعـق، تلك التي تلتهبُ وتشتعلُ، عـلى السرير، كلما مرّ برقٌ، أو سـقطتْ شرارةٌ، من عين رجل، في صحن شهوتي".

هكـذا غادرتُهـا خلسـة، في فجـر بـارد جـدا، حامـلاً طـوال جسـدي، آخر شـهقة فـاض بهـا ينبوعُها، الذي فقــدَ خصوبته، فلم يعد يفيض إلا بتنهدات زائفة.

ـ " سأعاقبكَ، أيهـا البربري، أيها الأجـرب القـلب،

سـأعاقبكَ.... إنـما على شـاكـلتي، كـما خلقنـي الله: بالكـتابة، قصيدة بعد قصيدة، تاركا لكَ حقـلا واسعـا من النسيان، كـقـبـر"

هتفـتُ، وأنا أخـرجُ من النهر المـار بين نهديها، مبتلا بالشِـعر وبالصحو!

(٩)

مـَن يفهمك أيها الفؤاد؟

ومَـن يسـمعكَ، وسـط انهيار العـمارة بجميـع سـاكنيها، فيما البراكـينُ مشـغولة بتبـادل فوّهاتهـا، كـما كنـا في الطفولـة نتبادل الطوابع؟

وأنتَ يا أيها العبد العظيم فنجان،

كـم كنتَ أبيض أكثر ممـا ينبغي، عندمـا دُرتَ كالدرويش بين الأفاعي؟

كم كنتَ بارعا في غبائك،

وأنتَ تمسـح الغبارَ عن كتـف مـَن لا يود العيش، إلا فوق تلّ قمامته؟

(١٠)

الآن، أسمعُ وقع خطوات قادمة:

طبـول وخيول، لجرجرتكِ نحو حرائق أخرى، حضرتُها قبل أن تبدأ، أنتِ التي لا أعرف من أسـمائها الألف، إلا اسما واحدا، اردّده ساعة الخطر، فأسمع خفق أجراسكِ، أميزها من بـين خطواتهم:

ـ أهم البرابرة؟

لكن.. أين ليلُهم؟

لا يوجد ليل بدون برابرة.

هناك برابرة بدون ليل، لكن.. لا ليل بدون برابرة:

ليليْ أو ليـلـُـكِ.

آه،

مثلـُـكِ تخفقُ أجراسي

البلبل المشرّد

المحُ وجهي في المرآة، فأهتفُ به: مرحى، أما زلتَ حيا، أيها الشقي؟

أخرجه من المرآة، أنظفه من اليأس، أزرعُ على شفتيه بسمة نبيلة، ثم أرتديه قناعا، وأبدأ: أسألُ سيقانا تهرولُ أمامي، عن ثقب الإبرة، فتعطيني طرفَ الخيط، فأعرفُ أنها سيقاني: أصطف بها، فجأة، أمام زوجتي، مثل جندي عاد إلى الثكنة. تأمرني أن أرفعَ رأسي عاليا، أرفعه، فاكتشفُ ثقبا في السطح، منه يعود المطرُ إلى الغيمة.

أدخلُ غرفتي: أجد " العريف سرداب " يلقي بقصائدي من النافذة. أهرعُ راكضا إلى الخارج، فتسبقني أسرابُ طيور، تلتقط أوراقي بمناقيرها، وتحلّق بها عاليا، لتؤلف منها شمسا جميلة جدا، أجلسُ تحتها على الرصيف، فيما الإفلاسُ يفيضُ على نفسي، ويغمرني بحنانه الشاسع: يدغدغني، فأضحكُ: أضحكُ مليّا من حياتي. آه، حياتي التي لا تشبه حياتي. أتخذه صديقا وأمضي. أدغدغه، فيضحكُ: يضحكُ يضحكُ عاليا من حياتي: إننا جمرتان في موقد واحد..

أبكي وأضحكُ من حياتي، آه.. حياتي التي لا تشبه حياتي:

مهرّبٌ يرسمني على طائرة ورقية، يقذفني إلى الفراغ، فأجدني في جزيرة واق واق، أغرد مثل بلبل مشرّد، فأُطردُ منها داخل قفص، لأنني أقلقتُ هدوء العصافير، فيما مهرّبٌ آخر يزرعني في حقل ألغام، ويلوّح مبتعدا: الحياة جميلة!

حبيبتي تدهن جسدي بالزيت، وترميه الى البحر، تدغدغني

الحيتانُ، فأضحكُ: أضحكُ، وأبكي من حياتي، فيما بلادي تزرعني تمثالا في ساحاتها، وتتركني، آخر الليل، أجمعُ، مع عمال القمامة، دموعي:

آه، يا حياتي: لماذا لا تشبهين حياتي؟

استنجدُ بالخمر، أسكرُ، فيتسلق جدارَ الكأس جيشٌ من الحمقى: جنود، دبابات،مطربون، ومن فوّهة قنينة الخمر يخرجُ دائنون سودٌ وبيضٌ: الحكومة، مدير دائرتي، جاري الذي يقترض العشبَ من قميصي، و..... وكلهم يصرخون: " امسكوه "

فأفيقُ من سُكرتي، واركضُ أمامهم صارخا:

" امسكوه ".

طارَدوني من زمن آدم:

من رصيف إلى رصيف، من زقاق إلى زقاق، من مدينة إلى أخرى، من قارة إلى قارة، من كوكب إلى كوكب، ومن سماء الى سماء، وكلهم يهتفون: " امسكوه "

وأنا، أمامهم راكضا، اصرخُ:

امسكوه، امسكوه، امسكــــــــــــــــووووه...

آه،

يا الهي.. لقد تعبتُ،

متى يمسكونني؟!

قصيدة الحافز

كنتُ ولدا مطيعا للنظام، وتلميذا بارا في مدرسة العائلة، لكن الجمال شوّهني.

تمزقتُ لأن المعرفة أثقلُ من أن تحملها أكتافي الهزيلةُ

خرّبتني المحبةُ، رغم أنها منحتني شجاعةَ أن أمضي، بقلب واثق، إلى حافة الهاوية، كسهمٍ لا يأبه بانكساره، كأن هذا هو الهدفُ من انطلاقته

تحت النظرة اليقظة للملاك ارتكبتُ الأغلاط الفاتنة، و

لم أصل إلى شيء، رغم أنني امتلكتُ المفاتيح.

لم أتقدم، ولم أتأخر

ما الفرق، مادمتُ قد اكتشفتُ أن حافز الفقدان هو الجوهر؟

أغنية شخصية

الذيـن وجـدتَ أنهم ضعفـاءٌ جدا، وليســت لهم القـدرةُ على قتالـكَ، فرفعتَ رايتـكَ البيضاءَ: فتحتَ أبـوابَ حصونكَ كلِّها، ورميتَ على طريقهم كلَّ المفاتيح، كي ينهبوك تماماً..

الذين ما تقدموا قيدَ أُنملة أبدا:

كنتَ سخياً في استدراجهم، وكانوا بخلاءَ، حتى في احتلالكَ!

فيلم سينمائي طويل

عائدا إلى بيت أبي. سلكتُ نفس الطريق. كنتُ أمشي، مطأطئاً رأسي إلى الأرض، بحثاً عن آثار أقدامي الأولى، عندما غادرتُ المدينةَ، قبلَ أعوام بعيدة، فوجدتُ أنها اختلطتْ بآثار أخرى، ميّزتُ بينها أقدام البرابرة، الذين انبثقوا من الماضي، ممّن بطون الأساطير وخرافات الكتب، عندئذ فهمتُ لماذا لم أجد البيتَ، الذي حملتُ نوافذَه وأبوابَه معي أين ما حللتُ.

بطريقةٍ غيرِ متوقعةٍ رأيتُ المرأةَ التي أحبتني، وأغرمتُ بها، أيامَ كنتُ أملك قلبا وسيما، لكنني لم أبقَ معها إخلاصاً لأمرٍ آخرَ، تبيّن أنه لم يعد معنياً بمَن خان، بمَن أخلص، بمَن ذهب، أو بمَن عاد.

سارت، هي الأخرى، إلى جانبي، ولم نتحدث عن شيء، مثلَ بطلين في مشهد سينمائي، فقد كان الصمتُ هو السيدَ، وهو أبلغُ ما يمكن أن تحملَه الرسالةُ.

هكذا فهمتُ، وأنا أحبس دموعي عبثا، أنها لم تتزوج قط، بل لبثتْ تنتظرني، حتى الأخير. أشارت برأسها إلى الحديقة التي كنا نلتقي، خلسةً، فيها، وقد تحوّلتْ إلى مكب نفايات، وقادتني ـ بإشارة من رأسها ـ إلى الشجرة التي حفرنا اسمينا على جذعها الضخم، فرأيتُ أكبرَ قريةٍ من النمل قد انتشرت بين الحروف. أخيرا أومأتْ إلى مدرستِها، التي كنتُ أنتظر خروجَها قريبا من

بابها، وقد أصبحتْ مخيَّما يأوي إليه النازحون من حروب الطوائف.

لم تتدفق موسيقى من نافذة بيت، لم أرَ عصفوراً على أسلاك الكهرباء، ولم تخفق وردةٌ واحدةٌ في هواء الطريق!

عندئذ حدستُ ماذا حصل للحانات، التي غنينا فيها عن الحب الضائع والمفقود، وكيف جرى سبيُ رواد المقاهي بمواكبَ طويلةٍ من النواح. فهمتُ لماذا مات الفراتُ، من شدة اليأس، وكيف أن لا أحدَ قد مشي في جنازته.

عرفت أيضا أن المدينةَ لم تعد هي المدينةَ، وأنني صرتُ الغريبَ فيها، رغم أنها تحتفظ برفات أهلي، وأن هناك مقابرَ متفرقةً وبعيدةً، لم تزل تترددُ بين أركانها مناحاتُ أمهات أقاربي وأصدقائي.

فجأة، توقفتُ، ولا أعرف لماذا، ولم تتوقف هي، بل واصلتْ السيرَ، وخلفها كان يمشي سربٌ من الأطفال والأولاد والصبيان: أبناء أشقائها الذين قتلوا في الحروب المتتالية، التي مرت على هذه البلاد، مثل فيلم سينمائي طويل.

شحوب

أحبُ شـحوبَكِ الذي يتناغم مـع الخريف، وحزنَكِ الصامتَ المتأمـلَ الذي يهطـل مع المطـر. ألمحكِ تخلعـين جلبابَ تـرددكِ، تخرجـين مـن النافذة، وتهربين مع الهواء الطلق، كما في السـينما، إذ لا أحدَ يشـطّف قلب العالم باشراقة الأسـى غـيرُ دموعِكِ، وأنتِ تمشـين، باحثةً عمّن يشـبه رجلَكِ المختارَ الـذي أكلته الحربُ، في ألبوم الصور، الذي تعرضه النيونات، في الشوارع.

رقصة بدائية

ارتّق الثقوبَ في قلب العالم بالغناء، ومن الترانيم أنسجُ قبعةً للذاهب إلى الحب بنظافةِ وردة. أضحكُ بوجه مَن يبتسم، وأصفّر مع العصفور، الذي وقف على كتفي ثم طار بعيدا، تاركا زقزقته الأخيرة كتذكار، أو أرفعُ من همّة العائدين من مجزرة الحياة بقلوب مكسورة، محاولا الحفاظَ على هدوئي، رغم أنَّ العاصفةَ، التي لا أعرف كيف أو من أين هبّتْ، قد أطاحت بسلامي الداخلي، فقرعت الطبلَ، ورقص القلقُ، على إيقاعه، رقصتَه البدائية.

أعرفُ أن النهاية على وشك أن تصلَ، محمّلةً بأثقالها النفيسة والرخيصة، لكنني سأفتح البابَ قبل أن تقرعه، كي يدخل الفراغُ العظيمُ، فيكون شاهدا على ما سيحدث. سأدعها تدخل لتجدني بكامل عزلتي، كما وعدتها، أدخن سيجارتي الأخيرةَ، رافعاً صوتي بالغناء، وحيدا، في الغرفة.

موسيقى الهزائم

أعـرفُ متعـةَ أن أكـونَ جالسـاً، صباحـاً، أدخـن سـيجارتي، منصتاً لأفـكاري، وهي تتصاعد، مع الدخان، محدثة ذلك الهدوءَ المقدسَ، الذي يسبق بداية الحرب بيني وبين النهار، حيث لا أحد يتدخـل، فالكلُّ يخـوض معركته، حتى بداية الليل، عندما تنسـل القصيـدةُ إلى الحفلة، مثـلَ صبية جميلة، تنتظر إشـارة من الرأس، لنرقص معا، على موسيقى الهزائم، في صالة الخيال..

عزلة الجوهرة

أتـدربُّ عـلى العيش فـوق الهاوية، لأكون شـاعرا مفتونا، من الوريـد إلى الوريد: يدعم ذلـك معرفتي المؤكدةُ أن الحبَّ، حبكِ، لا يقيم قدَّاسَـه إلا هناك، في قلب الجمرة، وهو مما يخصّب صلتي بالخارق، وقطيعتي مع الجاهز من الشِعر ومن الحب، فحبكِ توأم الخطـر، وهو الوجـه الآخرُ، الغامـضُ والمقيمُ، الـذي لا نراه من اشراقة البرق!

احبـكِ متوتـرةً، يفـور وجهُـكِ بطيـش الطفولة، ومـن قرارة نفسكِ تشعُّ رغبةُ الصيد في المجاهل .

الحـبُّ مصـيرٌ، ينتخبه الفارسُ مـن بين كل المصائر في سـاحة المعركـة، فـلا يكتبـه أحدٌ على جبـين أحد، لا يهبط بـه وحيٌ، ولا تأمر به الموعظةُ، وأنا احبكِ لأسموَ، لأخرجَ من لعبة الحظ أو من لعبة القدر، و لأنجوَ من السهولة، من العيش تحت سقف القبيلة، ومن الفرح الهزيل.

أحبـكِ مـن أجـل أن يتوقـف قابيـل وهابيـل عن العـراك في أسـطورتي، من أجل أن يفرّ الملاكُ والشيطانُ من الشِعر، من أجل أن تغمريني بالمزيد من عزلة اللؤلؤة، ومن أجل أن يسكن المقدسُ في داخلي.

قصيدة الكاهن

يخطـرُ لي موكبٌ من العشـاق والمتألهين، يتفرقـون في الأودية، يلاحقون أنفاسَكِ الهاربةَ، ومن حسراتهم يشيدون زقورةً، ستظل مثلَ ندبة على خد الفرات.

يخطر لي أن أحدَ أجدادي كان كاهناً وسيطاً، بين الناس وبينكِ، أنتِ يا ربـــَّــةَ العراق العتيق.

يخطـر لي الجيشُ الفاتحُ، في قديـم الزمان، يدور حول معبدكِ، بحثـاً عـن الكنز الـذي وعدتهم به الآلهـةُ، فيما يعلن البـوقُ بداية النفير، إلى معركة أخرى.

يخطـرُ لي ذلـك كلُّه هذا الصبـاحَ، وأنا أقفُ في طابـورٍ طويلٍ، بانتظـار راتبٍ جـدي التقاعدي: حفنة دمـوع وحسرات، بعد أن سرّحه دينُ الصحراء من الخدمة..

الحجر الأخير

مثلَ رجلٍ يفكرُ أن يرمي الحجرَ الأخيرَ، الذي بقي لديه، على الماضي، ويختفي، راكضاً، في الزحام..

شمس وجهكِ

في ذلـك المـاضي البعيـد، مثـلَ حلـم منـسي، كان ثمـة رجالٌ ببدلاتٍ عسـكريةٍ يشـعلون نارا، يجلسـون حولها، ولا يتكلمون. كلٌّ واحـد غـارقٌ في أفكاره، في الفجر البـارد، فيما الموتُ يتربص بعيون مفتوحة، قرب شاحنتهم العاطلة، وهم شبه نائمين.

الهـواءُ تكفّل بنقل الصقيع، فلم تعد تنفع النارُ التي تلعب على هواها.

كنـتُ الوحيـدَ الـذي يترنـم بالذكرى: أمـدُّ يـدي إلى الجمر، وأشـعر بدفئكِ، بشمسِ وجهكِ، وبعبقرية الحنان، فلم أمتْ، كما فعلوا، أو كما تمكن الموتُ من البرد أن يجندهم، واحدا واحدا..

وعورة الكتابة

كلما بحثتُ، في طرق حياتي، عن أشـد المصابيح قوةً، تداهمني ذكـرى صافيـةٌ، مضيئةٌ كالشـمس: المطـرُ يهطل بغزارة، الشـارعُ الـترابيُّ موحلٌ، وأنا، مـن النافذة، أنظرُ إلى نفـسي طفلاً، أغوص في بركة المياه، مندهشـاً من قطرة المطر الصغيرة، التي تصنع دوائرَ مـا أن تلامـسَ المـاءَ، أمدّ يدا بريئـةً بحثا عنهـا، فتضيع في ملامح وجهكِ المسـتدير، الـذي يظهر مشرقا في العمـق، ثم يختفي، مثل طيف لا يمكن الإمسـاكُ بأجراسـه، فأعود وأرسـلها ثانيةً، حتى ينقـذني، أخـيرا، إلـهُ الخصـب، فيتوقـف الرعـدُ، يجـف الـبرقُ، ويتسرب وجهُكِ هارباً، مع البرد، حالَـما يختفي المطرُ.

كلما بحثتُ في طرق حياتي عن أشـد الطرق وعورة في الكتابة، تداهمنـي تلـك الذكـرى الغائمـةُ، التـي تجعلني أغـوص في بركة الدمع، عاجزا عن اصطيادك في أغنية، أو قصيدة.

قصيدة الحنفية

كانـوا جالسـين إلى المنضـدة، قـربَ الليـل، وكنـتُ أقـدّم لهم الشرابَ. لم يهتموا بي، ولم يخفض أحدُهم صوتَه، عندما حان وقتُ الانصراف. كانت الحانةُ مقفرةً، والساعةُ لا تشير إلى الوقت، لأنه اختبأ لشدة الضجيج، فلم يعد ثمة مكانٌ للزمن.

يضحكون، كانوا، دون مبالاة، وهم يطلبون الشرابَ، وكنت أفتح حنفيةَ دموعي لتمتلئ كؤوسُهم..

غيمة اليأس

تقول الأخبـار: " إن العاصفةَ كانت قويةً، فاقتلعت الأبواب، وتهدمـت البيوتُ، وهامت الناسُ على وجههـا، بحثا عن الله، أو عن السبب، أو عن الملاذ.. "

كنـتُ أضع بندقيتـي في حضني، وأحيانا أوجههـا نحو البابِ بحركة سـينمائية، لكنَّ النوافذَ تفتح نفسَـها بنفسِها ليدخل الهواءُ، الشـكُ والرعـبُ، فأوجههـا نحـو شيء ليس بعينـه، يتسرب من الحيطان، حتى امتـلأ به البيتُ، ولم أعد قادرا على التنفس بحرية، ففزعـتُ: خرجتُ إلى الشـارع، وغيمةٌ من اليـأس تظللني، لكن الأخبار توقفتْ، ولم تعد ثمة عاصفة.

ماذا أفعل الآن؟!

لم أجد حلاً سوى أن أقف بمواجهة المذياع، وبندقيتي مصوبةٌ نحوه، منتظراً منه أيَّ صوت أو حركة..

الشخص الثاني

كثيرا، وأنا أنظرُ في المرآة، يظهر رجل يشبهني، لم ألتقِ به عن قرب، رغم أنه يرافقني أين ما حللتُ.

كثيرا دعوته للتعارف، وكان يرحب بذلك، لكنني أبدا لم أذهب إلى الموعد..

رجل المطر

أتذكرُ طـَرقا خفيفا على زجاج النافذة:

أتذكرُ كم كان غريبا: الرجلُ الذي توارى في المطر

أتذكرُ كيف كان مبتـلّاً مثلي، شاحبا ويافعا،

متوازنا ومضطربا، عندما تسللتُ إلى باطنه، وسكنتُ أبدا فيه.

لعبة المصائر

في أحـد الأفـلام كنـتُ الرجـلَ الذي وقـع في غرامـكِ، لكنَّ المُخرجَ شاء أن يلعبَ لعبةَ المصائر، فورّطكِ بالبحث عني، عندما تركنـي أُقتلُ بإطلاقةٍ طائشـة من أعداءٍ أخترعهـم، إذ لا عدوَّ لي، وما مِن حميم، سواكِ .

هكـذا صار الفيلـمُ عن الحـرب دون أن يستشـيرَنا أحدٌ، وإذ أشـاهِدُهُ الآنَ لا أملكُ إلا أن أغنيَ تلك الأغنيةَ التي كنتُ أغنيها لـكِ، الأغنيـةُ التـي تتحدث عـن اثنـين افترقـا، دون أن يعرفا ما السـببُ، والتي تقـول: إنني لا أملك سـوى أن أغني، عسـى أن تتوقفي عن البحث، لحظةً، وأن تريني أرنو إليك بعينين حزينتين، رغـم معرفتـي أن ذلك بدون فائـدة، فالمُخرجُ، في هـذه اللحظة، مُخرجُ حياتي، في هذه الأيام، أشد قسوة من مُخرج الفيلم ذاك.

لماذا تعشقين شاعرا بسيطا مثلي؟!

يحصلُ أن أحبكِ، رغم أن ذلك غيرُ وارد في نشرة الأخبار:

الطقسُ غائمٌ كليا،

والانفجاراتُ على وشك أن تنشرنا على حبال غسيل القتلى.

يحصلُ أيضا،

يحصل أن تحبيني، رغمَ أن ذلك معجزةٌ، فالحكومة تكتبني في قائمتها السوداء، وتنتقي لكِ، من قوائم أخرى، رجلاً يصلُ مبكراً إلى البيت:

يصلُ محروساً بالعطر وبالنقود:

يأتي إليكِ بأشياءَ لا أملكها.

لا أملكُ ما اشتري به أغنيةً نسمعها معا، ونبكي، فأنا لا أعرفُ إلا أن أعودَ مجروحاً من الليل:

أعود قلِقاً من الغد،

أعودُ ومستقبلُكِ يتساقطُ من ثقوب جيوبي:

عبثا أجمعُ مستقبلكِ

لأنه مثلُ قصيدة لا تمنحُ نفسَها.

لا أعرفُ كيف أكتبكِ يا قصيدةً، يا حياتي:

يا قدري الغريب،

لا اعرفُ كيف أكتبكِ:

لكنني أعرفُ كيف أعودُ آخرَ الليل مترنحا من اليأس، مذبوحا من الوريد إلى الوريد، ودمي يلطّخ بالعار وجهَ الملاك الذي اقترحناه حارساً لأحزاننا.

الحزنُ من بلور، فكيف يحرسه الفحمُ؟!

آه

في أعماقي يفرشُ الألمُ بساطَه السحريَّ، ويضحكُ عالياً، إلى أن يوقظَ الجيرانَ، وعبثاً أوقفه:

أقفُ على السرير وأجرجره من ياقته:

ـ كنْ مكاني، أيها الألمُ.

كنْ مرةً في حياتك.

كنْ رجلاً.

أصيحُ به، وأنا أرى إليكِ تتكسرين أمامَ المرآة، مثلَ عاشقة يائسة، فالقي خطبةً عصماءَ، عن الصبر والنضال وحرب

الطبقات، تنتهي بشتم الحكومة، ثم أغفو سعيدا بانتصاري.

لا أعرفُ إلا هذا.

لا أعرف إلا أن أتدلى من سقف الجوع بحبل الفاقة: عنقي خيطٌ مقطوع في يوم عاصف، وأنتِ تجلسين القرفصاء في زاوية غرفتكِ تحدقين بالصورة، حتى تحصل المعجزة فأخرجُ لكِ من الصورة:

أخرجُ مكسوراً من الصورة.

أخرجُ لأمزّقَ الصورةَ.

أجلسُ إلى جواركِ في الظلام، ثم أضع رأسي بين ذراعيكِ:

لماذا تحملين عني ثقلَ وجودي في العالم؟

حاولي أن تفهمي أنني خارجَ اللعبة، وأن مصيرَكِ هو أن تكوني امرأةً: امرأةً، لا غيرَ.

امرأةٌ لا حقَّ لها أن تهيمَ في حب شاعر، فالشِعر نزهةٌ بين الكمائن:

الشِعر أرضٌ مأهولةٌ بالزلازل.

الشِعرُ

رحلةٌ لا على هدى،

الشعرُ

انقلاباتٌ في الروح:

جنونٌ هو، وهو عواصفٌ.

آه،

لماذا تعشقين شاعرا بسيطاً مثلي،

أنا الذي لا أملك أن آتيكِ حتى على دراجة هوائية؟!

لا سفنَ عندي، ولا بحرَ.

لا أملكُ شِبراً من الأرض، لأن وطني في كوكب بعيد.

وطني مسروقٌ من الخرائط:

وطني ليس وطني،

رغم أنني سومريٌ أشقرُ القلب:

أنا بسيطٌ

كمصطبة تأنسُ بالقليل من خطوات العابرين:

حزينٌ

دائما، حزين..

مثل أغنية تحشرجُ في حنجرة ناي.

مثل بلاد مقتولة.

مثل قصب أكله غبارُ زقورات منسية.

مثل فانوس ملقى في قاع نهر هجره الصيادون والماء.

أما أحلامي فيصعب تفسيرُها:

أحلـمُ أن أشـنقَ أحلامي، لأنهـا تقـودكِ إلى التظاهر ضد هذا وضد ذاك.

أحلمُ أن لا احبكِ

لأنني احبكِ عن كثب، واحترقُ بحبكِ عن بعد.

أحلمُ أن تكرهيني ، لأنني مفرط بالذكاء وبالحدس.

أحلـمُ أن لا أراكِ في أحلامـي، وأن لا اسـتيقظَ عـلى طيفـكِ الذي يشـيعُ الصباحَ في منتصف الليل: حيث الملاكُ مع الشـيطان يتوقفان عن العمل في لحظة مروركِ.

لكـن ما يحصل هو أن احبـكِ، لأنني مجبولٌ على أن أجلسَ مع المستحيل إلى مائدة واحدة:

لأن ذلك مما يُربكُ الآلهة في المعبد.

لأنه مما يجعلُ العيش ممكنا مع الموت.

لأنـه مما يبعـثُ الحيـاةَ في عروق التماثيـل، فتفـرُّ الأحصنةُ من الساحات.

لأنَّ الأبـوابَ تفلتُ من أسر الحيطـان، والمفاتيحُ تطلقُ سراحَ الحسرات من سراديب أقفالها.

لأنَّ زجاج النوافذ ينفضُ الغبارَ عن نفسه، ويفورُ الماءُ في تنور الجسد،

ثم يبدأ طوفانُ الدرّ، ويهطلُ البلور من السماء..

لكن..آه،

لا يحصل ذلك إلا لينتهي الحبُّ إلى مجزرة.

نطيرُ بلا أجنحةٍ، ولا يطيرون لأنَّ لهم أجنحةً:

لكننا نسقطُ لنفس السبب، وهم دائما بانتظارنا.

هم دائما بانتظار أن نسقط ..

هم ماهرون بهذا،

ماهرون بنصب الفخاخ، وبحفر الآبار التي نشربُ منها العطش.

يحصلُ هذا عندما أحبكِ.

عندما يكون هناك ثقب في القلب:

هناك ثقبٌ في قلبكِ، هناك ثقبٌ في قلبي،

وهناك رصاصة.

يحصل هذا

عندما لا تُخيط الثقبَين إلا الرصاصةُ.

لماذا تنزفين أكثرَ مني، تموتين أكثر..

لماذا؟

لا احبكِ أكثر أو أقل.

لا كثرة في الحب، لكنه يحصل أن احبكِ كثيرا

وأن تموتي بغزارة.

أحدسكِ نادمةً لأن هذا يحصل وأنا أنتظركِ، غير أنكِ لا تعرفين أن هذا قد حصل لي وأنتِ تنتظرين أيضا.

كلانا محكومان بالطرد، وبأن نُخلي المصاطبَ من عَرق أجسادنا: أن ننسحبَ من معركة العالم، فنحن الخونةُ: لقد اكتشفنا المجاهلَ، عرفنا العناوينَ، وقتلنا الظلامَ بقبلةٍ.

نحن جبهةٌ واحدةٌ: جبهةٌ أخرى، لا اسمَ لها، ولهذا يحصل أن أحبكِ ماشياً نحو نهايتي الدامية، وأن تموتي كثيرا، وبغزارة.

كيف تولد المعجزة؟!

يتضرعـون في المعابـد: يقدَمـون القرابـين، يرسـلون الدموع، ينشدون الترانيم، ثم يرشـّون البخورَ حول المهد الفارغ، يهزّونه جيئة وذهابا:

ينتظرونهـا أن تولـد في الصبـاح، لأن الشـمس غائبـة منـذ قـرون،لأن الأرضِ قاحلـة، كقلـبٍ جـفّ فيـه جـدولُ الحنـان، وغادره الحبُ، لأنَّ..

تنظرُ إليهم التماثيلُ بحنو، وأحيانا تتخلى عن أدوارها، فتخرج معهم إلى البساتين، إلى البراري، إلى الحقول.

ينتظرونها أن تشرق من كل الجهات:

أن تجيء ليترنحوا في جمالها،

ليعشقها القريب،

وليذهب عاشقها، بحثا عنها في البعيد..

من أجلها سيقتل قابيل شقيقه هابيل،

ومن أجلها ستقرع الطبول، وتنشبُ الحروبُ .

سيقولون: ملعونة هذه المرأة.

سيمحون آثارها في النهار،

وفي الليل سيبتكرون آثارا لها، ثم يتبعونها..

سيسكرُ الملاكُ في حانات عواطفها، ومن ينبوع دموعها سيشرب الشيطانُ، لكنها لن تبالي بهذا، لن تعبأ بذاك، وستنبت كالسنابل، في كل مكان.

ستبني العالمَ،

وسينهش لحمها العالمُ:

سيشتري الأب سوطا ليجلدها،

سيحشو الأخ وسادتها باللاقطات،

وستضع الأم هاتفها النقّال تحت المراقبة..

ستُحبس تحت الأرض،

ومن تحت الأرض، رغم ذلك، سيشرقُ وهج حنانها:

سيشربُ الطيرُ من دموعها قطرة،

ستتحولُ القطرة، داخل أحشائه، إلى زقزقة.

ستُشنق كل يوم،

وستمتلئ المقابر بحسراتها.

ستبيعها الأم إلى تاجر يبيعها، هو الآخر، إلى تاجر، وستضيع بين التجّار: تتشعب بها طرق البلدان، شبابيك الملوك، ومتاحف الحضارات.

سيبلعها الغياب والحزن والسراب، لكنها لن تموتُ أبدا، فالأرض قاحلة وهي المعجزة.

اللغة باردة، وهي شرارة الشعر.

عند الينابيع يجلسُ بعضهم، ينظرُ إلى الماء، فهي القطرة التي تختصر الأنهار، والأمطار، والبحور: يمدّون أيديهم، وكل واحد يعتقد أنه قد قبض على القطرة..

في الصحاري يمشي المتألهون،

فهي الملاك الذي سيأتي بالرسالة..

على ضفاف الأنهار، تشعل لها النسوة النار،

فهي القشة التي يتشبثُ بها الغريق..

يعودون..

يرشَون البخورَ حول المهد الفارغ، يهزونه جيئة وذهابا:

ينتظرونها أن تولد في الصباح، لأن الشمس غائبة خلف الغيوم،لأن الأرض قاحلة، كقلبٍ جفّ فيه جدول الحنان، وغادره الحب.

لأنَّ..

تصل الظهيرة عامرة بالقلق، ثم تجتازهم، ويمر العصر، حتى يحل الليل فيشعلون الشموع، لعلها تشعر بالأمان، فتخرجً..

في آخر الليل يتسربُ النعاس، واليأس، والملل، فيتحلقون حول الشموع، ويطفئونها.

يذهبون إلى النوم حزانى..

دون أن يعلموا أنها قد ولدتْ،

وأنها كانت بينهم عندما أطفئوا الشموع..

المخلّص

الرجـلُ الـذي ظهرَ في الأفق، حسـب النبـؤة، وتظلّـه غمامةٌ: وجهُـه كالقمـر ينصـع بالنـور، وأقدامُه تمشي على حبـل سرّي في الهواء، فلا يتأثرُ بحرارة الرمل، ولا بالأفاعي أو بالشوك.

الرجلُ المنتظَرُ، المخلِّصُ، الذي انتظرناه في كل القرون، والذي يستطيعُ، وحدَه، أن يأخذنا من التيه إلى مدينة السلام.

الرجـلُ الذي وصل، والذي رفع رأسـه متعجّباً من الرايات، ومن الأهازيج والهتافات والأغاني.

الرجلُ الذي نظرَ إلينا بإشفاق، نظرَ إلينا بعينين حزينتين، وهزَّ رأسَه، ثم واصل طريقه غير عابئ بشيء!

أغنية لماذا فتحتِ البابَ؟

كنتُ أسكنُ بدني:
لا أوسعَ منه بيتا في العالم،
فهو بدني، وأنا أعرفهُ غرفة غرفة.

بإمكاني أن أتجولَ بين مراياه،
بصحبة أشباحٍ أبتكرهم، كما يبتكرُ الطفلُ ألعابَه.
بإمكاني أن أتأبطه مثل كتاب:
أجلسُ على الرصيف،
أتصفّحه مترنما بخطواته، وهي تبتعد.
بإمكاني أن افككه في الصباح،
وفي الليل أنصبه تحت نجمة.
بإمكاني أن أتركه هكذا..
مثل معطفٍ يغطي جسدَ الشاطئ
أتأمل نفسي داخله،
أتعرّفها
كما يتعرّفُ المرءُ، بمواجهة الغرق، على يديه،
حتى وصلتِ، رفعتِ المعطفَ، فجأة
فرأيتُني أرتلُ موجةً تسطعُ في باحة خواطري،

أشربُها

ومن شدّة السُكر أصرخُ:

لماذا فتحتِ الباب؟

دعيني..

دعيني:

لقد رأيتُ المستقبلَ، في السيرك، يمشي على الحبل كالبهلوان،

وحفظتُ عن ظهر قلب مواقيت انقلابه،

أما الماضي فلم يعد مهمّا

مادام المهرجُ قد حذفَ منه الرقصات

التي كنتُ فيها الطبلَ.

لم أعد أملكُ علوّا أو انخفاضا

ولا يهمّني،

لأنني أعيشُ في طيّةٍ من ثياب الزمان،

تاركا الخاسر والرابح يكرعان الغصّةَ من نفس الكأس

وأنا مشغولٌ عنهما:

أكنسُ عن عتبة بابي الغبارَ

ليجلِسَ قلبُ العالم المثخن بالجراح،

إذ يعود من المعركة شاحـبا،

غيرعابيء بـ... مِن أينَ جاء هذا القائد بجيوشه،

أو ذاك النسر بأسراه،

فالملاكُ أو الشيطانُ فكـرة ضرورية للبعض،

أما أنا فقد رأيتُ ولن أخبرَ أحدا.

لن أخبرَ أحدا.

ما الفرق،

إذا كان العصفـور، حتـى وهـو ينقل أعواد سريـره إلى خارج الغابة، يغني الغابة؟

كفى.

لا شيء حقيقي الآن إلا شغفكِ بي

وهو يحفرُ عميقا،

حيث الإنسانُ يلاطف رايته المكسورة.

لا شيء حقيقي، وعندي البرهان:

في أعماقي هناك أغنيةٌ لماذا فتحتِ الباب

لن أُسمعها أحداً حتى أنتِ،

إلا إذا سكنتِ معي تحت سقف بدني،

في نفس الغرفة،

تاركة شغفي بكِ يعلنُ متى تنتهي رحلةُ الموجة نحو الموجة،

ولن تنتهي، هذه المرّة، إذا بدأتْ...

مختصر سيرة الملاك الضال

إلى عبد الرحيم الخصار

مثل نغمة تبحث عن قلب يعزفها بحرارة العارف، أو يضخها في شريـان العـالم بهيئـة ومضة، كان المـلاك في قلبـي يبحث عمّن يحـرره من كونه مـلاكا، فينقله من القفـص إلى الحرية، أو من قوة الحكمة إلى براءة الهشاشة.

كان الطَهرُ حجابـا، يمنعني عن الغوص إلى الأعمق، يحجزني عن ملامسة الأخطاء التي تجوهر الروح. تلك الأخطاء التي، بعد أن ترتكبها، تخرج من طورك المستهلّك، الذي رسموه لكَ، إلى طـورك الحقيقـي الآخر، الذي لـن يبـين إلا إذا لاكك الألم بأنيابه الحـادة، إلا إذا تبتَ من التوبـة التي تفتح الباب لأختها التوبة، أو إلا إذا دخلتَ محرقة المصير بأسمالكَ، والتهمتكَ الشكوك بنيرانها، ثم خرجتَ صافيا وغامضا، كالجمرة.

كنـتُ على وشـك الاختناق من هـواء الطاعـة، ولعل هذا هو الحافـز الـذي جعلني أنتقـلُ من الفضـول إلى الرعـب، لأنني لا أعـرف كيف وثبتُ إلى خـارج بدني، وخرجتُ مـن متاهة أطوار الخـلاص، التي لا تسـأل، ولا تفـضي إلى الحل، مثـل دائرة تلتف حول نفسـها، حتـى وصلتُ إلى الحب، عاريا مـن القوة والحول، وهناك تنفستُ عميقا، لأول مرة.

هنـاك فقط ضاعفتُ ضعفي، سرقتُ من النار سرّها الأخطر، وحزتُ على النصر. عندئذ اكتشفتُ جوهرة الباطن، وعرفتُ مَن أكـون، لكـن ذلك لم يكـن إلا بعد أن نظرتُ إلى الماضي وشـيّعته، دون أسـف، كمـن ينظر، عـبر المياه، إلى سـفينة مليئة بـكل أنواع الثقوب، وغارقة.

نشيد الانصراف

(حسنا فعلتَ، حين رحلتَ، يا آرثر رامبو)

رينيه شار

سأمشي، آخر النهار، على ورقةٍ، وأين ما تنتهي سأهبط: أخيرا وصلتُ إلى قريتي الصغيرة.

أما آنَ أن أبتسمَ بوجه مَن يحبني حقا؟

كنتُ هناك، كنتُ في المدنِ، وكنت أبحثُ عن الأقفال كي أفتحها، لكنني وصلتها دون مفاتيح.

كانت صرختي قد شقّقها الألمُ، فلم يسمعني أحد: لقد وصلتُ إلى مكان الأقفال، فوجدتُ أن لا أقفال هناك.

أما آنَ أن أخلعَ خوذتي إذن؟

سأخلعها

لترَون كيف تتقافز، من رأسي، الحمائمُ.

أما آن أن أنصرفَ: أن أتنقلَ، بين حقول الألغام، مثل فراشة؟

أما آن أن أبسط راحةَ يدي، كيما تروَن الثكنات التي بنيتُ؟

أمـا آن أن أشربَ مـاءَ أصابعـي، وأنـا أنحـدرُ، دافئـا، كميـاه الينابيع؟

أما آن أن أنثرَ أحلامي على خرائط النوم؟

كانت أحلامي تزن الضوءَ، وتأسر له المصابيحَ، وكنتُ مـُقبلاً على غرسـها عندما طـارت الوطاويطُ فـوق رأسي: كل ما فعلتُ ساعتها هو النظرُ.

أما آن أن استردَ النظر؟

أما آن أن أنفض، عن نظراتي، المنافي التي رأيتُ؟

أما آن أن أكشطَ، عن خطواتي، الطرق؟

أمـا آن أن أعـصر القلـمَ، أنفضـه، لتسـقط دمعةٌ واحـدةٌ على حياتي؟

أريد دمعةً لحياتي.

أما آن أن أنظف حياتي؟

أما آن للكائن أن يعود إلى كيانه؟

أما آن أن يكون هو نفسه؟

أما آن أن يهبط نحو نفسه، ويستحمّ قرب يديه؟

أما آن أن يـُحسنَ، إلى أوجاعه، بصرخة؟

أما آن أن ينتزع بأسنانه الخرسَ؟

أما آن أن يؤاخي فمه مع التراب؟

أما آن أن يلتحق بالأمان؟

متى؟

متى تتحوّل قريتي إلى ساقيةٍ؟

أيتها الساقية

متى أركض، بين أسماككِ، كالمياه؟

متى أربط النهر إلى ذراع صديقي، وأمضي؟

متى ألمُّ نَشارة الأغنية؟

متى أطلق سراح القصائد التي كتبتني بقرون الأيائل،

ومزّقتني بقرون الأيائل أيضا؟

متى أطلب من الربيع أن ينام بيني وبينكِ؟

آه

لقد نامتْ بيننا الحربُ أطولَ مما ينبغي،

والغزالُ المرسومُ على وسادتي أنهكه الدورانُ حول الخوذة.

متى يغمس قرونه بعشب نوملكِ؟

متى يلحس حوافر المطر؟

متى يحلب الضحى؟

متى؟

متى تضربين على صدري، فلا تتقدم على ضرباتِكِ الجيوشُ؟

صدري طبلٌ

على دقّـاته تسير الحرابُ.

متى تقرعه موجةٌ؟

متى تصدأ النارُ، متى يتآكل اليأسُ، متى ينقرض الفراغُ؟

أيتها المرأةُ

تعالي لأدلـَّكِ فتتيهي ثم أتبعكِ فنتيه.

متى نملك المتاهةَ؟

متى يلتقط الطائرُ ظله الساقطَ على الأرض،

ويرتفع به مبتعداً عن أرض الشظايا؟

متى يرسم الشاعرُ لطفلته تفاحةً؟

- ليأكلها؟

- لا.. ليبيعها.

أوَ لَستَ شاعرا؟

- تسألني حبيبتي:

لماذا إذن تخرج مفتوحاً كالنهر،

وتعود، في الليل، مغلقا، كقارب مقلوب؟

أوَ لستَ شاعرا؟

لماذا إذن يكرهكَ الشعراء؟

أ لأنَّ البرقَ عكازةٌ لكَ، أم لأنك عكازةُ البرق؟

أ لأنَّ روحَك من قصب؟

ألأنَّـكَ لا تستدر الظلَّ من خائن الأغنية؟

أيها الطفلُ

لماذا تغازل ألماً عالياً، كالهرم؟

لماذا لا تغني: نفسي

آه

لماذا يا نفسي؟

سأنصرف.

سأمشي، آخرَ النهار على ورقة،

سأدخل قريتي الصغيرة، وأسكنها:

وداعا

أيها السيفُ الذي يلحس الضوءَ من صحن بهجتي.

أيتها السحبُ العاليةُ، لكِ، وحدكِ، حصتي من السماء.

إنني أسد الثقبَ الذي في خوذتي بكبرياء الأعزل ساعة إعدامه.

هكذا أهش الذباب عن الشمس الجميلة.

هكذا أيضا أحرسُ ألمي.

سأمضي

وحيدا ووحيدا ووحيدا: ما أوسع وحدتي؟

لكنني سأحيا،

وسألبث خالدا من شدة الألم.

هناك صبي ما سيرمي أوراق قصائدي إلى النهر،

فتلتهم الأسماكُ فتات الخبز التي فيها،

وعندما،

ذات يوم، في الغروب، يرتفع دخانُ الشواء،

ربما سوف تشمّون رائحة اسمي.

صيف ١٩٩٣

أغنية خارج السرب

من المؤسـف حقا أن تموتَ، ولا أحد يدري أنكَ كنتَ شاعرا.
ربـما كانت الحظوة لمن رأى كيف قدتَ التلال إلى العشـب بمرآةٍ
مكسورةٍ، وكيف سقيتَ العزلة بجدول الأرق.

انحدرتَ مع النسورِ،وسكنتَ إلى الحمام، فانعزلتَ عن الفحم
حقـا، لكنـكَ انعزلتَ عن الـدرّ أيضا: هكذا لبثـتَ في الميزان، في
ذروة الانشـقاق. لا مِن ماء هؤلاء شربـتَ، ولا مِن دمع أولئك.
كطائر خارج السرب غرّدتَ، فكانت لكَ الفخاخ، وكنتَ لها.

مـن المؤسـف أيضا أن تقـودَ النبلـةَ إلى القـوسِ، وأن تذبحكَ
نفسُ النبلةِ.

قافلة المعنى

أمسكتَ باللؤلؤة، ورميتَها بحثاً عن لمعانكَ الداخلي:

كان ذلـك عندما أيقنـتَ أن الحـبّ خصّب فرحاً غامضـاً فيكَ، فمشيتَ وحيداً، واضعاً إحدى يديكِ في يد الريح، غيرَ عابئ بشيء، فيما يدُكَ الأخرى تجرّ خيطَ طائرة ورقية، لا يراها أحدٌ سواك..

ها أنتَ تترنم بأغنية شـخصية، كأنكَ تشـدو قافلةً من المعنى، لا تظهرُ في صحراء العالم، إلا لمن تجرّع كأسَ النفي حدَّ المرارة:

احبكِ أيتها الجروح التي تصنع بحيراتٍ من الألم الكريم: الألم الشـافي، الذي يـزرع في قلب المخذول وردةً، ويمسـح الغبارَ عن أكتاف الحزانى..

أحبـكَ أيهـا الضعف الذي يجلـب معه القشـعريرةَ، تلك التي تُشعل في المرء حقيقةَ كونه لا يزال إنساناً..

احبكَ أيها اليأس:

أنـتَ المِنجلُ الذي يحصد كلَّ السـنابلِ الفارغة، التي يغرسـها الوهمُ في حقولي..

الآن، ارفعْ صيدك الثمين بالقصائد

قلْ: " شكرا " لكل هؤلاء الذين، بعد أن غادروكَ، استعدتَ عافيتكَ، وصرتَ وحيدا..

كلّ هؤلاء الأصدقاء الذين طاروا في نسيانهم الخاص.

كلّ تلك المدن التي تعتعكَ النفيُ على أرصفتها الموحلة.

كلّ تلك القرى التي تعرفُ مهربيها، وألوانَ ثياب صباياها.

كلّ تلك الحدود التي اجتزتها، كعاصفةٍ تركضُ خلف أقدامها.

كلّ هذه الوحدة، التي تجعل منكَ بلاداً شاسعةً، مشحونةً أبدا بالغرباء..

قلْ: "شكرا!"

شكرا أيها المنفى، لقد رأيتُ أن لا أقفالَ ولا مفاتيح هناك: كلُّ الأرض منفى.

شكرا أيها الحزنُ: لقد قلّمتَ الشجرةَ، ليكون طيرانَ العصافير، من حولها، أنيقاً

شكرا أيها الإفلاسُ: لقد آخيتني مع الذهب.

شكرا أيها الجلادُ: لقد أعفيتني من الراحة مع القطيع.

شكرا أيها النائيُ: لقد علمتني أن أعزفَ الشِعر من خلال الثقوب التي حفرها الخذلانُ في قصب حياتي..

قلْ: "مرحبا " للجروحَ التي وهبتكَ هذا الوهجَ المباركَ.

قـلْ للخيبـةِ أن تقيمَ معكَ في نفس البيت، مادمتَ قد عرفتَ، من خلالها، الطريقَ إلى شجرة الاستنارة.

قلْ للعميان: إن الظلامَ ليس الليل، بل هو القلبُ.

الآنَ

أرسلْ دلوكَ إلى قعر هوّتكَ الداخلية،

ثم

ارفعْه بصيدكَ الثمينِ من القصائد..

كأس سقراط

لعلكَ وصلتَ إلى الحد الذي تتلفُ فيه الأغنية نفسها بنفسها:
لعل هذا ما تمنيته، مبحِراً على متن باخرة من الأفكار ومن الكتب.

ربما آنَ أنْ تشربَ كأسَ السُّم، وأن تنتشي بفوزكَ الوحيد، فقد تمكنـتَ من حلِّ لغز الوجـود: عرفتَ أن لا لؤلـؤة كالوعي، ولا انتصارَ كالقلب اليقِظ، ولذلك تركتَ المفتاحَ الضائعَ، مفتاحُ كلِّ كنز، مرمياً بين قدميكَ، ثم جلستَ على كرسيك الهزاز، ونمتَ..

في صحة ملاكك السومري

ربما آن أن تجرؤَ على استلام أوسمةِ خيباتكَ الرائعة، فتنسحبَ كأيٍّ جنديٍ مجهولٍ من المعركة، وهناك ـ عندما تكون وحيدا ـ ابتسمْ ابتسامةَ الظفر، فليس أبهى من أنْ تكونَ مهزوماً في عالم ابتذل فيه المنتصرون أنفسَهم.

تشبّثْ بقشّة محاولاتكَ اليائسة التي جعلتْ منكَ بطلا أخرقَ يرمي أعداءَهُ، من خلف غرفٍ محصّنة، بسهام من ورق، بكلماتٍ وبقصائدَ ذابلة، وترنّمْ بفشلكَ النبيل، فليس النجاحُ في أنْ تكونَ خائبا حتى العظم، أمراً هيِّناً.

تنفّسْ عميقا.

في داخل صدركَ عاصفةٌ عاتية، تقتلع أحشاءَكَ من أجراسها، فتخفق أجنحةُ ملاككَ السومري، لكن غرفتكَ خاليةٌ من الهواء.

أما إذا متَّ فلا تيأسْ: هناك أزهارٌ ستنمو عند أقدام تمثالكَ المهمل، الذي لن يعرف أحدٌ أينَ مكانُهُ، وسيأتي شاعرٌ كسولٌ، ليقطفَ منها زهرةً، ثم يذهب في طريقهِ إلى موعده الغراميّ الأول مع امرأة، وسيفقدها ـ مثلَك تماما ـ في ظروف غامضة.

لا تجزعْ، فلن تكونَ وحيدا.

جنود جرحى، جنود خاسرون، جنودٌ يلمّعون أوسمة هزائمهم، سيرفعون حناجرهم بالغناء الجميل، جالسين في ظلال تمثالكَ.

الفهرس

عبد العظيم فنجان

تولد الناصرية ١٩٥٥، شاعر عراقي لا ينتمي إلى جيل شعري معين، ويغرّد خارج السرب، متحصن بعزلته، وله مشاركات مقتضبة في الصحف والدوريات العراقية والعربية. صدرت له عدة مجاميع شعرية منها «كيف تفوز بوردة» «كمشة فراشات» و«الملائكة تعود إلى العمل».

الأعمال الشعرية

عبد العظيم فنجان

أن تقرأ عبد العظيم فنجان فمعنى ذلك أن تنسى كل النشازات التي سمعتها في الشعر العراقي منذ الثمانينات، وصولا لأيامنا . هو شاعر يثبت لك أن الشعر العظيم لم ينفد من الروح بعد ..

محمد غازي الأخرس

ليست الجرأة في قول الشـــعر والمثابرة، هي ميزة عبد العظيم فنجان فقط، إنما هي شـــجاعته في تناول جرعة الحرمان والنفي، من حياة لم تبخل عليه بكل أنواع الطرد.

هكذا يكون الشـــاعرُ في مكانه الحقيقي، وتتكامل قصيدتهُ في مجمرة الروح، منتظرة "القارئ الشقيق" في متاهات الحياة العراقية والعربية اليوم.

خالد المعالي

من يعرف عبـــد العظيم فنجان يعرف أيضا أن قصائده هي مدونات عن حياته، وهذا تطابق بين شـــعر الحياة وحياة الشعر، لكنه عاشه متاهة وتوقا، ومأساة باذخة، لا يمكن وصفها بالانكسار ولا بالخيبة، إذ لا توجد انكسارات تنوء بها عادت به قصائده من فتوحات..

حسن جوان







دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com